الدكتور
محمد عبد المنعم خفاجي

الفكر النقدي والأدبي

في القرن الرابع الهجري

رابطة الأدب الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير ..

تصـــدير

— ١ —

كان القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى ـ عصر الحضارة الاسلامية حقاً ، وعصر ازدهار الثقافة والمعرفة والعلوم والآداب العربية صدقاً ، كانت الخلافة الإسلامية فى بغداد تهيمن بنفوذها الروحى على العالم الإسلامى ، وإن كانت فى حالة ضعف شديد ، وإن كان أمراء الأقاليم قد استقلوا بها ، وعدوا أنفسهم حكاماً لهم ما لخلفاء بغداد من النفوذ والسلطان

كان بنو بويه حكام فارس والرى وأصبهان والجبل قد عظم نفوذهم ، وطمعوا فى الخلافة ، فدخلوا بغداد فاتحين عام ٣٣٤ هـ ، وأخذوا لأنفسهم ما كان للخلفاء من سلطان ، وأبقوا على الخليفة العباسى رمزاً لاحول له ولا طول .

وكانت خراسان فى يدى نصر بن أحمد السامانى ، وواسط والبصرة فى أيدى البريديين ، واليمامة والبحرين فى يدى أبى طاهر القرمطى ، وطبرستان وجرجان فى أيدى الديلم ، كما كانت كرمان فى يدى محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر فى أيدى بنى حمدان ، ومصر والشام تحت سلطان محمد بن طغج الإخشيدى ، والمغرب وافريقية ثم مصر منذ عام ٣٥٨ هـ تحت حكم الفاطميين ، والأندلس فى يدى عبد الرحمن الناصر الأموى ثم ابنه الحكم . وبقى فى يدى الخليفة العباسى بغداد وأعمالها(١) .

وكانت غارات بيزنطة على الثغور الاسلامية لاتكاد تنقطع ، والحروب متصلة بين الأخشيديين والحمدانيين والفاطميين وبين الروم .

---

(١) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ٥/٥٥٣و ٥٥٤ .

وفى بغداد ، تولى الخلافة : المقتدر ، ثم القاهر ، ثم الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ ، ٩٣٣ — ٩٤٠ م) ثم المتقى ، ثم المستكفى ، الذى دخل فى أيامه بنو بويه بغداد عام ٣٣٤هـ/٩٤٥ م ، ثم المطيع ، ثم الطائع ، والقادر .

ولما دخل معز الدولة البويهى بغداد صار حاكمها المطلق ، وصارت بيده جميع أمور الخلافة ، وظل يحكم دولة الخلافة سنين طوالا (٣٣٤ - ٣٥٦هـ : ٩٤٥ - ٩٦٧ م) ، ثم خلفه عز الدولة (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ : ٩٦٧ - ٩٧٧م) ، ثم عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ : ٩٧٧ - ٩٨٢ م) ثم شرف الدولة (٣٧٢ - ٣٧٩) ، وبهاء الدولة (٣٧٩ - ٣٠٣ هـ) . واشتهر من وزراء بنى بويه : ابن العميد (٣٦٠ هـ) ، والصاحب بن عباد (١) (٣٢٦ - ٣٨٥ هـ) ، والوزير المهلبى ، وغيرهم ، وكان للأدب دولة ، وللأدباء جاه ، على أيدى هؤلاء الوزراء .

— ٢ —

وقد صار للعلم والثقافة فى هذا العصر ، وعلى الرغم مما أصاب العالم الإسلامى فيه من اضطراب ، سوق رائجة رابحة ، وكثر العلماء ، وعلت مكانتهم ، وازدادت ثقة الجماهير بهم ، وصاروا مرجع الناس فى شتى أمور الدين والدنيا . وأمور اللغة والأدب والشعر . . وعمت المكتبات الزاخرة بمختلف الكتب فى كل من القصور والدور ، وفى المساجد ، وفى المدارس والمعاهد والجامعات ، وفى كل مكان ، يستفيد منها العلماء والطلاب وجماهير الناس .

وانتشرت المدارس والمعاهد والجامعات فى أنحاء العالم الاسلامى ، فهناك المسجد الحرام والمسجد النبوى ، وهما جامعتان كبيرتان يلوذ بهما الناس من

(١) معجم الأدباء لياقوت ٢/٢٧٣ ومابعدها .

مختلف بلاد الدنيا ، وهناك مسجد البصرة الجامع ومسجد الكوفة الجامع ، والمسجد الأموى بدمشق ، وجامع الزيتونة ، وجامع عقبة بالقيروان ، والمسجد الجامع بقرطبة . والجامع الأزهر بالقاهرة ، وجامع الفسطاط بمصر ، وهو المسجد الجامع وقد أحصى المقدسى فيه فى وقت العشاء مائة وعشرة مجلساً من مجالس العلم(١) ، وكان جامع المنصور ببغداد ، وهو أقدم المساجد فى دار السلام مركزاً كبيراً من مراكز العلم والتعليم وكان كبار العلماء يجلسون فى حلقاته ، يفيدون طلابهم ، ويرشدون الناس ، ويعلمون الشباب .

ومع الضعف السياسى الذى ألم بالعالم الاسلامى فى هذا القرن ، فإن الثقافة والعلم قد ازدهرا ازدهاراً كبيراً ، لأن كل أمير فى إقليم صار حاكما له ، وشرع ينافس بغداد فى رعاية العلماء ، والانفاق على دور العلم وطلابها وتشجيع الآداب والفنون ، وقد زاد من خطر النهضة العلمية فى هذا القرن ومن علو شأنها أن الحركة الثقافية بدأت تؤتى أكلها ، وبدأ الناس يعنون بأمرها عناية تامة ، كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم . وفقيرهم ، صعلوكهم ووزيرهم وأميرهم ، ثم كانت كذلك حركة ترجمة العلوم والآداب من مختلف اللغات إلى اللغة العربية ، قد بدأت تظهر نتائجها الخطيرة فى هذا القرن ، فازدهرت النهضة العلمية ، وأثيرت قضايا الفكر والأدب واللغة ، وعلا صوت العلماء فى كل مكان .

وحدث ولا حرج عن دور الكتب التى انتشرت فى كل مكان ، وضخامتها وضخامة ما كانت تحتوى عليه من نفائس المخطوطات فى كل مدينة وكل عاصمة إسلامية ويروى أن الصاحب بن عباد الوزير كان فى أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملا من كتب الأدب ليطالع فيها ، ولما وصل إليه

---

(١) المقدسى ص ٢٠٥ .

كتاب الأغانى لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه استغناء به عنها(١) .

وكان لسيف الدولة الحمدانى مجلس يحضره العلماء كل ليلة ، فيتكلمون بحضرته(٢) ، ويقول الثعالبى إن حضرته ـ عاصمته حلب ـ كانت مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرحال ، وموسم الأدباء وحلبة الشعراء ، ويقال : إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر .

وقد زين محمود الغزنوى عاصمة ملكه بالمدارس والجامعات ، وجعلها محط رحال العلماء والأدباء والشعراء ، وفى كنفه عاش البيرونى والفردوسى صاحب الشاهنامة الفارسية ، وقد قدم الفردوسى الشاهنامة له فكافأة بستين ألف مثقال من الفضة بعدد أبياتها ، وكان قد وعده أن يعطيه على كل بيت مثقالا من ذهب . ويصف العتبى جامع غزنة الذى بناه السلطان محمود الغزنوى والمدرسة التى ألحقت به وقصور الأمراء والوزراء المحيطة به وصفا شائقاً(٣) .

وحدث عما بلغته عواصم العالم الإسلامى من حضارة ورخاء وترف فى فى هذا القرن ـ الرابع ـ مما لاتكاد تصدقه ، لولا أن ذلك مما أكده المؤرخون . وبحسبك قرطبة والقيروان . والقاهرة والفسطاط ودمشق وبغداد . والرى وأصفهان وشيراز وسواها .

وكانت مكتبة ابن العميد كبيرة . فيها من كل علم وكل نوع من أنواع الحكم

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ١ ص ٤٧٥ .

(٢) المرجع السابق ٥٢/١ .

(١) راجع الجزء الأول من كتاب العتبى ص٥٢و٥٣ طبع القاهرة ، وهو مطبوع على هامش شرحه المسمى « الفتح الوهبى على تاريخ العتبى » .

والآداب ، وكان مسكويه المؤرخ خازناً عليها(١) . وكان للعرب فى الأندلس سبعون مكتبة عامة ، وقد روى أن الخليفة الأموى الحكم (٣٥٠-٣٦٦هـ) كان فى مكتبته فى قرطبة ستمائة ألف كتاب وأن فهارس تلك الكتب كانت فى أربعة وأربعين مجلداً ، ويقول غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب »(٢) : وإنى أذكر هنا أن ملك فرنسا شارل الحكيم لم يستطع بعد أربعمائة سنة أن يجمع فى مكتبة فرنسا الملكية سوى تسعمائة مجلد ، وأن ثلث هذه المجلدات فقط هى التى كانت فى غير علم اللاهوت . ويقول سيديو(٣): « إن أهم ما اتصفت به الروح الجامعية فى بغداد منذ البداية هو روحها العلمية الصحيحة التى كانت سائدة فيها » . وحدث عن مكتبات القاهرة وبخاصة مكتبة دار الحكمة ولا حرج .

— ٣ —

وقد أثمرت النهضة العلمية نهضة نقدية وأدبية فى هذا القرن ، كان لها شأنها فى رقى الأدب ، وازدهار النقد ، واتساع حركة التأليف فى مختلف جوانب اللغة والأدب الشعر .

فى هذا القرن ألف كتاب العقد الفريد لابن عبدربه الأندلسى ، وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، وكتاب الأمالى لأبى على القالى ، وألف أبو حيان التوحيدى كتبه ، ومن بينها كتابه المشهور « الامتاع والمؤانسة » . وفيه أيضاً ألف نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، والموازنة للآمدى ، والوساطة للقاضى الجرجانى ، وإعجاز القرآن للباقلانى ، وكتاب الصناعتين لأبى هلال

---

(١) مسكويه ، تجارب الأمم ٦/٢٨٦ .
(٢) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ص ٤٦٢ .
(٣) حضارة العرب ص ٤٦١ .

العسكرى ، وفيه ألف ابن النديم كتاب الفهرست ، وألف الصولى كتابه الموشح ، وكتابه الأوراق ، وكتابيه : أخبار أبى تمام ، وأخبار البحترى : ولعل كتاب « يتيمة الدهر » لأبى منصور الثعالبى قد ألف فى أواخر هذا القرن أيضاً .

وشملت الآداب وحركة النقد نهضة لم يعرف لها نظير من قبل ولا من بعـــد .

وكان من عادة الوزير ابن العميد عميد الأدباء فى عصره ، أنه إذا ورد أحد من منتحلى العلم وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد وعن الجاحظ ، وكان ابن العميد يلقب الجاحظ الأخير(١) ، وكان التوحيدى يرفع من منزلة الجاحظ ، ويسلك مسلكه فى التصنيف ، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه(٢) .

وكانت رسائل الأدباء الأدبية فى هذا القرن تبلغ غاية اللطف والرقة والجمال ، وكان بعض الكتاب يحرصون فيها على السجع ، ومن بينهم الوزير على بن عيسى الذى كان يحلى كتبه بالسجع الكثير(٣) ، وكانت رسائل الصابى مسجوعة دائماً ، وكذلك كانت رسائل الصاحب بن عباد الوزير مسجوعة فى أكثر أحوالها. وكان التوحيدى يقتصد فى أسجاعه. أما البديع والخوارزمى فقد كان للسجع عليهما كل سلطان.

وفى هذا القرن ظهر فن المقامات على يدى « بديع الزمان الهمذانى » وغيره من أدباء العروبة . وقد جدد أبو العلاء المعرى (٣٦٣ - ٤٤٩)

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ج ٣ ص ٣.
(٢) ياقوت ، معجم الأدباء ج ٥ ص ٣٨٠ .
(١) معجم الأدباء لياقوت ٢٨٠/٦ ، كتاب الوزراء ص ٢٧٧ .

فى الأدب بما أنشأه من رسائل أدبية باللغة الأهمية ، ومن بينها « رسالة الغفران » وكذلك فعل غيره ، وعن أبى العلاء كتب الرحالة الفارسى ناصر خسرو يقول : إن فضلاء الشام والعراق والمغرب يقرون أنه لانظير له فى هذا العصر »(١) . وقد مزج الأدباء فى هذا القرن النثر بالقصص ، فامتلأت المكتبة الإسلامية بكتب النثر القصصى ، ومن بينها : الفرج بعد الشدة للتنوخى (٣٨٤هـ/٩٩٤ م) وكتاب « أنس الفريد »(٢) لمسكويه (٤٢٠هـ : ١٠٢٩م) وكتاب نشوار المحاضرة ، وقد عنى الجهشيارى صاحب كتاب « تاريخ الوزراء » بتأليف كتاب على نسق كتاب ألف ليلة وليلة ، وسار فيه شوطاً ومات قبل أن يتمه(٣) . وقصص كتاب الأغانى ، وكتاب العقد الفريد ، مشهورة ، وكثرت قصص العاشقين من العرب فى هذا القرن . وقد ذكر حمزة الأصفهانى المتوفى حوالى عام ٣٥٠هـ/٩٦١ م أنه كان فى عصره من كتب السمر التى يتداولها الناس مايقرب من سبعين كتاباً(٤) .

وفى الشعر زخرت القصائد بالمعانى الجديدة ، والأساليب المنمنمة العذبة الرقيقة ، وعنى الشعراء المحدثون بالبديع عناية كبيرة ، وقد ألف فى أواخر القرن الثالث ابن المعتز (المتوفى فى عام ٢٩٦هـ) كتابه « البديع » عام ٢٧٤ هـ ، ودافع فيه عن مذهب المحدثين فى إيثار البديع وملء كلامهم به دفاعاً حاداً .

ونهض فى هذا القرن شعر الطبيعة فوجدنا الصنوبرى (المتوفى عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م

---

(١) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ترجمة د . يحيى الخشاب ص ٣٦ .

(٢) وهو أحسن كتاب صنف فى الحكايات القصار والفوائد اللطاف كما يقول القفطى (تاريخ الحكماء ص ٣٣١ و ٣٣٢) .

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٠٤ .

(٤) حمزة الأصفهانى ، تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ٤١ و ٤٢ .

وكان أميناً على خزانة كتب سيف الدولة(١). وكذلك وجدنا كشاجم، يجيدان إجادة بالغة فى شعر الطبيعة حتى عـــدا شاعرى الطبيعة فى أدبنا، والصنوبرى ألمع شاعر من شعراء الطبيعية فى الأدب العربى، وقد أكثر من وصف النرجس فى قصائده، وكان ذا ولع شديد بالسماء والهواء والضياء فى شعره، مع التطلع إلى أسرار الطبيعية ومناجاتها (٢)، وكان كشاجم يلقب « بريحانة أهل الأدب » . والخالديان والسرى الرفاء وسواهم كانوا يسيرون فى طريق كشاجم وينهجون نهجه، ويحتذون حذوه فى الشعر .

وفى القرن الرابع كثر الشعر الساسانى الذى كان ينظم منه أبو دلف والأحنف العكبرى وغيرهما من الشعراء، وهو شعر الكدية، وقد أعجب به بديع الزمان الهمذانى، وملأ أدبه فى المقامات به .

أما الشعر الشعبى فقد كان من أعلامه فى هذا القرن ابن سكرة وابن الحجاج(٣) (- ٣٩١ هـ/١٠٠١ م) .

وقد نبغ فى الشعر فى هذا القرن أعلام مشهورون . فى مقدمتهم : أبو الطيب المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤هـ) ، وأبو فراس الحمدانى (- ٣٥٧هـ) ، والشريف الرضى (٣٦١ هـ - ٤٠٣ هـ)

— ٤ —

وبذلك وجدنا القرن الرابع عصر ازدهار أدبى، فى فن الشعر و النثر، وفى النقد، لا مثيل له .

---

(١) مطالع البدور للغزولى ٢/١٧٦ .

(٢) وكان الوزير المهلبى كثير الانشاد لشعر الصنوبرى : ونشر مذهبه الفنى فى الشعر فى بغداد (٢/١٢ يتيمة الدهر للثعالبى)، بل كان ينسج على منوال الصنوبرى فى الشعر (٢/ ٢ يتيمة الدهر) .

(٣) ٣/١٩٥ معجم البلدان لياقوت .

ووجدنا الفكر النقدى فى هذا القرن يبلغ قمة نشاطه ، ويقنن للأدب ، ويضع له الأصول ويرسم له المناهج ، ويرشده إلى طرائق القول ، ويباعد بينه وبين الخطأ ثم يأخذ الأدب طريقه فى ظلال تخطيط النقد والنقاد له ، وبتوجيههما اياه . . وينبغ من النقاد والأدباء أعلام كثيرون ، لا مثيل لهم ، ويخلد التاريخ ذكرهم فى صفحاته .

- ٥ -

وفى هذا الكتاب سأتحدث عن الفكر النقدى فى القرن الرابع ، ثم عن الفكر الأدبى فى هذا القرن كذلك ، لنستبين على ضوء هذه الدراسة مدى مابلغ النقد والأدب من مكانة فى هذا القرن . وبالله التوفيق ، وهو الهادى إلى أقوم طريق : عليه أتوكل وإليه أنيب ؟

المؤلف

القسم الأول

الفكر النقدى فى القرن الرابع

مشكلات النقد فى القرن الرابع

— ١ —

بلغ النقد الأدبى فى القرن الرابع حداً كبيراً من النضوج والقوة ، شأنه فى ذلك شأن الأدب والبيان وسائر ألوان العلوم والثقافات ، وذلك برغم ما كان يغشى الحياة الإسلامية إبان ذاك من ضعف سياسى بعيد الأثر فى مستقبل العالم الإسلامى .

وحين كانت رقعة الدولة الإسلامية تمزق اديمها الحوادث العاصفة ، وتتداولها أيدى الملوك الغاصبين ، والدول الصغيرة الناشئة : كالاخشيدية والفاطمية والحمدانية والبويهية وغيرها من مختلف الدويلات والعروش . كان رجال العلم والأدب واللغة جادين فى إقامة الحياة الإسلامية على أسس وطيدة من التفكير والإنتاج الصحيح والتجديد المستمر فى شتى ألوان الثقافة ومناحى الحياة، وكانت رعاية الملوك لهم ، وتشجيع قادة العالم الإسلامى إياهم ، سببا من أسباب استمرار هذه النهضة الفكرية والعلمية والأدبية ، كما كانت حركة البحث العقلى التى غذاها الرشيد والمأمون قد آتت أكلها ، وهضمتها عقول المسلمين، وأحالتها غذاء عقليا أنتج نتائجه العظيمة فى القرن الرابع الهجرى ، فكان أحفل عهد برجال الفكر والعلم والأدب والنقد والبيان، وأمجد عصر شهدته العربية وآدابها الرفيعة ، وذاعت فى آفاقه شهرة كثير من الأدباء والكتاب والشعراء وأئمة النقد وفحول البيان .

وظهرت فى خلاله مؤلفات كثيرة ناضجة فى علوم الدين والدنيا ، وفى علوم التفكير والفلسفة ، وفى علوم العربية وآدابها ، سواء فى اللغة أم فى الأدب أم فى النقد أم فى البيان ، وما زالت هذه المؤلفات من أعظم المصادر وأجلها فى الثقافة الإسلامية ، وما زلنا ننشد السير على آثارها فى الابتداع والتجديد والانتاج .

ولعل من أظهر خصائص الثقافة الإسلامية فى هذه الحقبة الرائعة بلوغ النقد الأدبى غاية قوته ، وكثرة ما ظهر فيه من مؤلفات ، تجمع بين سلامة الذوق ودقة الحكم وتحرى الانصاف وعمق التفكير ، وتحاول جاهدة أن تضع أسس النقد وأصول الموازنة على دعائم ثابتة ، تقوم مقام الحكومة العادلة والحكم المنصف كلما تشعبت الآراء واختلفت الأذواق، فى شعر أو منزلة أديب .

والنقد الأدبى بدأ بحوثه علماء اللغة والأدب ، واتجه أولا — فى عهود كانت فيها الملكات العربية ما تزال على سلامتها وصحتها — إلى البحث عن الأسلوب وسلامته من الخطأ فى اللغة أو الاعراب أو التصريف ، للحفاظ على العربية وكتابها الحكيم ، ودفع عادية الفساد ، الذى نجم على أيدى المستعربين من الموالى، ثم على أيدى من اختلط بهم من العرب . ولما فرغ النقد من هذه البحوث عاد إلى بحث الأسلوب نفسه وما يتصل به مما يمس صميم البيان والأداء ، تلافياً لأخطاء الملكات التى بدأ يدب إليها العى والقصور والعجز بسبب المستعربين والاختلاط بهم ، وأخذ علماء الأدب والنقد كابن سلام والجاحظ ، وابن قتيبة، وأضرابهم كأبى عبيد وسواه ، فى عرض المشكلات الأدبية والنقدية والتعليق عليها وإبداء آرائهم فيها .

ثم كان القرن الرابع فاتجه علماء الأدب فى مشرقه إلى الكتابة فى الأدب والنقد ، ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان ، ثم أفادوا من دراسات النقد فائدة جلى انتقلت بهم إلى البحث فى مظاهر البيان ومشكلات البلاغة ، فاتجه تأليفهم فى آخر هذا القرن إلى بحوث البيان نفسه .

— ٢ —

ونقاد الأدب والشعر فى القرن الرابع فريقان :

فريق كتب ونقد ووازن وحكم متأثرا بذوقه الأدبى وطبعة العربى

وثقافته الخالصة من شوائب الثقافات الأخرى التى جرت جداول إلى يم الثقافة الإسلامية الصميمة المتدفقة ، ومن هؤلاء الحاتمى ٣٨٣ هـ « صاحب الرسالة الحاتمية » فى نقد شعر المتنبى وبيان سرقاته من حكمة أرسطو الفيلسوف ، والحسن بن بشر الآمدى ٣٧١ هـ صاحب الموازنة بين الطائيين، وعلى بن عبد العزيز الجرجانى ٣٩٢ هـ صاحب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، وابن وكيع ٣٩٣ هـ صاحب « المنصف » فى سرقات المتنبى وأبو بكر الباقلانى ٤٠٣ هـ مؤلف « إعجاز القرآن » ، وقبلهم أبو بكر الصولى ٣٣٦ هـ صاحب « أخبار أبى تمام » ، وأبو الفرج الأصبهانى ٣٥٦ هـ مؤلف كتاب « الأغانى » .

وفريق آخر كتب بروح أدبى هذبت فكرته ووسمت أنقه الثقافات الأخرى التى هضمها القرن الرابع ، وأحالها غذاء عقليا لكل من توسع فى الدراسة والبحث العميق ، ومن هذا الفريق جعفر قدامة ٣١٩ هـ ، وقدامة ابن جعفر ٣٣٧ هـ صاحب (نقد الشعر) ، وابن العميد ٣٦٠ هـ ، والصاحب ابن عباد ٣٨٥ هـ صاحب رسالة « الكشف عن مساوىء شعر المتنبى » وأبو هلال العسكرى ٣٩٥ هـ صاحب « الصناعتين » و « ديوان المعانى » ، وهذا الفريق الأخير يختلف نقده قوة وضعفا بحسب تمكن الطبع العربى من نفوس رجاله وأعلامه ، وتتفاوت منازلهم فى الإجادة والإحسان بتفاوتهم فى الذوق الأدبى الذى يعتد به فى الحكومات الأدبية العادلة . ودعنا ممن نقدوا الأدب والشعر بدون تمكن الطبع الأدبى فى نفوسهم، من : النحويين علماء اللغة ، والمعنويين رجال العقل والفلسفة ، الذين جاء حكمهم بعيدا عن الذوق المطبوع والفطرة السليمة ، والذين نقدهم الجرجانى فى (الوساطة) نقدا لاذعا ، وطرح آراءهم فى النقد والبيان فلم يعتد بها ولم يعرها نصيبا من البحث والمناقشة ، اللهم إلا حيث أراد أن يبرد موقفه

منهم فذكر بعض أخطائهم فى النقد لتكون حجة له فى هذا الإهمال .

ومن الجدير بالالتفات أن كثيرا من نقاد القرن الرابع وجهوا عنايتهم الأولى إلى شعر شاعرين لهما أثرهما وخطرهما فى الشعر العربى :

فأبو بكر الصولى وابن بشر الآمدى اتجها إلى أبى تمام وشعره ، فدافع عنه الصولى دفاع المعتد به المعتز بقيمته ، وحشد كل مارآه سببا لقبول هذه الحكومة من : شعر الشاعر ، ونقد الناقد ، وحكومة من قبله من رجال الأدب والنقد ، ووازن الآمدى بينه وبين البحترى عارضا شعره وما عليه من مؤاخذات ترجع إلى سرقة المعانى أو الخروج عن النهج العربى فى أساليب التعبير والبيان ، متجها إلى تفضيل البحترى عليه لطبعه وقلة ما أخذ عليه من مؤاخذات . والحاتمى وابن عباد والجرجانى وابن وكيع كتبوا فى نقد المتنبى وشعره ، فندد به الحاتمى ، وأشاد بمساوىء شعره ابن عباد ، ووقف الجرجانى موقف القاضى النزيه يفهم ويشرح ويقرر ويحكم وينصف الشاعر من جور المتعصبين له وعليه معا . ولا نشك أن أبا تمام والمتنبى كان جديرين بكل مادار حول شعريهما من ضجة ، وما كان لهما من دوى فى حياة الشعر العربى ومذاهبه .

فأبو تمام صاحب مذهب جديد فى الشعر : حاول أن يرضى به عقله ، بالغوص على المعانى البعيدة ، والتؤدة فى طلبها ، والتعمق فيها . كما حاول أن يرضى به ذوقه وطبعه ، بإيثار الألفاظ القوية ، والأساليب الجزلة ، التى تحاكى أساليب العرب الاولى وجزالتهم ونهجهم فى الصياغة والاعراب ، ثم بطلب شتى ألوان الجمال فى الاداء والنظم من استعارة رائعة أو تشبيه بليغ أو حكمة عميقة أو مثل نادر أو طباق ساحر أو تجنيس جميل . وأبو الطيب المتنبى هو الشاعر الذى عصف فى حياته بخصومه وأقرانه

فى مصر والشام والعراق وإيران ، وذهب شعره فى أرجاء العالم العربى إذ ذاك ثائراً مدوياً :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق   وغرب حتى ليس للغرب مغرب

فردده الناس وشدت به الدنيا ، وتمثل به الرواة ، وكان أبو الطيب يفرغ من نفسه على شعره روح القوة والحرية والحياة ، مصوراً فيه خلجات نفسه ، وخفقات قلبه فى قوة شخصية ، وقوة تأثير ، راسما الحياة الإسلامية فى عصره ، داعيا إلى مذاهب جديدة ، فيها عزة النفس وكرامة الفرد ، وحرية الحياة . ثم لا تكاد تجد شاعراً اختلف النقاد فى منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء كأبى الطيب ، ولا شاعراً كثرت حول شعره الدراسات الأدبية كثرتها حول شعر المتنبى ، وحسبك أنه قد شرح ديوانه لفحول العلماء : كابن جنى سنه ٣٩٢ هـ ، ومحمد الهروى سنة ٤١٤ هـ ، والمعرى سنة ٤٤٩ هـ ، وابن الافليلى سنة ٤٤١ هـ ، والواحدى سنة ٤٨١ هـ ، وعبد القاهر الجرجانى سنة ٤٧١ هـ ، والتبريزى سنة ٥٠٢ هـ ، والعكبرى سنة ٦١٦ هـ ، ثم اليازجى ، والبرقوقى فى عصرنا الحديث . كما نقد شعره كثير من النقاد : كالحاتمى ، وابن عباد ، والجرجانى ، وكابن وكيع سنة ٣٦٣ هـ فى كتابه « المنصف » فى سرقات المتنبى الشعرية ، والثعالبى سنة ٤٢٩ هـ فى كتابه « يتيمة الدهر » ، والواحدى فى كتابه « الابانة عن سرقات المتنبى » وابن حسنون المصرى فى كتابه « نزهة الأديب فى سرقات المتنبى من حبيب » ، ومحمد بن أحمد المغربى راوية المتنبى فى كتابيه « الانتصار المنبى عن فضائل المتنبى » و « التنبيه المنبى عن رذائل المتنبى » إلى غير ذلك من الكثير فى نقد المتنبى وشعره ، وهذا فضلا عمن كتب عن حياة أبى الطيب أو عرض لشعره من الكثير من رجال الأدب والنقد والبيان .

— ٣ —

هذا هو شأن النقد الأدبى فى القرن الرابع ، ولا شك أن ظهور قدامة

فى أول هذا القرن ، ورجوعه بالبيان إلى مناهج جديدة يضع بها أسس النقد الأدبى ، جاعلا لألوان الزخرف فى الأداء التى تمس الفكرة وتؤثر فى المعنى حظا كبيراً فى النقد ، كان تطورا جديدا فى بحوث النقد والبيان ، وكان عقل قدامة المنطقى يغلب ذوقه الأدبى ، فزل أحيانا فى نقده ، من حيث قوم ذوق ابن العميد والصاحب بن عباد ، وأبى هلال العسكرى أحكام عقولهم فى النقد والحكومة الأدبية ، وإن تبعوا منهج قدامة ، وجروا فى فهم الشعر وتذوقه ونقده مجراه الذى أوضحه فى كتابه « نقد الشعر » ، والذى يرجع إلى البحث فى عناصر الشعر الاساسية من : اللفظ والوزن والقافية والمعنى .

وجاء الآمدى فرسم منهجا جديدا فى النقد ، فجعل الطبع والسليقة العربية ومذاهب العرب فى البيان هى الحكم فى كل مشكلة والفاصل فى كل شبهة . ونقد قدامة فى كثير من آرائه ، بل ألف كتابا بين فيه أخطاءه فى « نقد الشعر » وأهداه لابن العميد ، وبالرغم من ذلك كله فقد تأثر كرها ببعض آراء قدامة ، تأثر به فى عناصر ميزان النقد الأدبى التى حللها حين نقد أبا تمام والبحترى فيما يتصل باللفظ وسلامته والمعنى وصحته والغرض واستقامته والأسلوب وموامته لأسلوب العرب فى الأداء والوزن ، وملاءمته لموسيقى الشعر وأوزانه ، وتأثر به فى تنسيق بحوثه وموضوعاته ، عارضا للموضوعات التى أثارها ابن المعتز وقدامة ، كبحوثه فى الجناس والطباق والاستعارة والتقسيم ، مدليا برأيه ، مع رجوعه إلى العربية وحدها فى المناقشة والنقد والحكم .

وجاء بعد الآمدى الصاحب بن عباد ، فسار على ضوء أستاذه ابن العميد فى فهم النقد وعناصره وأصوله ، مما سنفصل الكلام فيه .

— ٤ —

ومن ثم نجد أن النقد الأدبى فى القرن الرابع :

١ ـ قد استحال إلى علم له أصوله وقواعده ومبادئه .

٢ ـ كثرت المؤلفات فيه إلى حد كبير .

٣ ـ كانت الموازنات الأدبيـة أظهر فروع النقـد فى هذا القرن، وأشهرها الموازنة للآمدى .

٤ ـ كثر النقاد فى هذا القرن وتعددت آراؤهم فى النقد .

٥ ـ كانت مشكلات النقد تثار غالبا عند الحديث عن م .له شاعر، أو الموازنة بين شاعر وآخر .

٦ ـ تطور النقد فبحث فى إعجاز القرآن وأسراره ، ثم أخذ يتحدث عن أصول البيان العربى ، حتى استحال بعد ذلك إلى علم البلاغة الذى وضع أصوله عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه : الأسرار والدلائل . .

عمود الشعر العربى

كما اصطلح عليه نقاد القرن الرابع

اصطلاح جديد ظهر فى أوائل العصر العباسى ، وتداولته ألسنة النقاد فى هذه الحقبة الحافلة بمختلف التيارات الأدبية والنقدية ، وأخذه عنهم من جاء بعدهم من النقاد حتى اليوم .

وكان أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى ٣٧١ هـ (٩٨٧ م) أشهر النقاد الذين احتفلوا بعمود الشعر ، ورجعوا إليه ، وحكموه فى قضايا النقد .

قال فى كتابه « الموازنة بين الطائيين » : سئل البحترى عن نفسه وعن أبى تمام ، فقال : « كان أغوص على المعانى منى ، وأنا أقوم بعمود الشعر » .

ولقد رجع الآمدى إلى شتى الأصول الأدبية والبيانية فى الشعر ، لجعلها كل شىء أو أهم شىء فى النقد ، فى حكمه على شاعرية أبى تمام والبحترى، سواء رجعت إلى النهج العربى والذوق الأدبى والأساليب العربية فى النظم والصياغة ، أم إلى الأفكار والمعانى والأخيلة ، أم إلى الوزن الشعرى ، أم إلى النهج الخاص فى المجاز ، والاستعارة ، والكناية ، والتشبيه ، والتمثيل ، والوصف ، والطباق ، والمقابلة ، والجناس ، وغيرها . ذلك لأنها كلها مما يجب على الشاعر أن يسترشد به ، وينظم شعره على مثاله ومنواله ، فى رأيه .

والنقاد يجعلون هذه الأصول كلها ، ومراعاتها فى الشعر : «عمود الشعر» وهو ، فى أبسط معناه ، كل التقاليد الفنية التى التزمها القدماء فى قصائدهم ، فى الأفكار ، والمعانى ، والأخيلة ، والأغراض ، والألفاظ ، والأساليب ، والصور ، وغيرها . فهذه التقاليد هى « عمود الشعر » الذى حتم الكثير من

النقاد فى القرن الرابع اتباعه والسير على منواله، وسموا ماجاء على نمطه من قصائد شعرية للقدماء وغيرهم « قصائد عمودية » ، وهى قصائد تلتزم عمود الشعر .

وكان اختلاف النقاد فى قضايا الشعر فى القرن الرابع الهجرى حافزا لهم إلى التحاكم إليه ، فضلا عن أنهم لم يجدوا شيئاً سوى « عمود الشعر » يرجعون إليه ، أو يحكمونه فى الخصومات النقدية ، وفيما أتى به المحدثون والمولدون من ذوى الثقافات الجديدة والشعر المحدث .

وحتى اليوم لانجد أصدق من تصويرنا لعمود الشعر ، الذى لانجد تعريفاً واضحاً له عند النقاد فى القديم والحـــديث . ولعل كلام « المرزوقى » عنه فى مقدمة شرحه لحماسة أبى تمام هو التعريف الوحيد له فى كتب الأدب العربى وفى كتب النقد جميعها ، مع مافيه من غموض وقصور . يقول المرزوقى متحدثا عن الشعراء القدماء: « كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته والاصابة فى الوصف : والمقاربة فى التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية . فهذه سبعة أبواب هى عمود الشعر » .

ولقد كانت القصيدة التى ورثها الشعراء العباسيون أو المحدثون عن أسلافهم من الجاهليين والاسلاميين ، تبدو فى أروع نماذجها ، وهو قصيدة المعلقات أو القصيدة العمودية . . فكل تراثنا الشعرى يتمثل فيها ، وتمتاز بالأخيلة البديعة ، والتشبيهات النادرة ، والمعانى المبتكرة ، والأغراض المنوعة ، والأساليب البليغة ، والموسيقى المأنوسة .. إلى ما تمتاز به من شتى المقومات والعناصر الفنية .

ولقد أصبحت هذه التقاليد الفنية كلها جزءا من كيان القصيدة ، وصارت تلك القيود الملتزمة لاتقوم القصيدة بدونها . بل صارت محببة إلى الشعراء

الأصلاء ، لأن الفن هو الفن ، ولا بد فيه من القيود ، والمثل الفرنسى يقول « لا يحيا الفن بدون قيود »، ومن خلالها تظهر عبقرية الشاعر وموهبته الأصيلة، وفطرته الشعرية المتميزة . . والحرية فى الفن هى استعمال الشاعر الموهوب أقصى عبقريته من خلال تلك القيود ، ومن ثم تبدو عظمة الفن ، إذ أنه ارستقراطى فى التزامه لمناهج خاصة . واتباعه لقيود شديدة ، لا يتاح لكثيرين النفوذ منها إلى صميم التعبير عن الحياة والفكر فى أبسط وأصدق صورهما ومضامينهما .

ولا يستثنى من الحرص على هذه القيود ، فى أغلب الأمر ، مذهب من مذاهب الشعر ، ولا جماعة من جماعاته ، محافظة أم مجددة . . ولا نعد ذلك استعبادا فنيا ، على ما كان يحاول الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، رائد مدرسة « أبولو » الشعرية ، أن يصوره به ، وتابعه فيه الثائرون على القصيدة العمودية وكان يذهب إلى أن الوزن التقليدى يجر الشاعر إلى استخدام أساليب وايقاعات تضرب بجذورها فى أعماق عقله الباطن، وتملى عليه الايقاع والمعجم والأسلوب ، وتغلبه على ابداعه وشخصيته ، وتجعله غير قادر على التعبير عن كل الموضوعات والحالات الشعورية .

إننا لا نتبع الذين يرمون الصياغة الكلاسيكية بأنها تغلب الشاعر على ابداعه وشخصيته . فى رأينا أنها لا تحول بينه وبين الابداع والشخصية والحرية الفنية ، وكان أبو شادى يكرر أنه يهدف إلى التحرر من قيود لا ضرورة لها ، لا إلى الخروج على القواعد الفنية جملة . على أن الشاعر الموهوب لا تعوقه أبدا قيود الوزن والقافية ، كما قال أبو شادى فى مقدمة ديوانه « الينبوع » .

ويجىء العصر العباسى فى أوج ازدهاره فى القرن الرابع ويظهر الشعراء ويأخذ المحدثون والمولدون فى التجديد وفى طرق أبوابه ، لأن ذلك جزء من حرية الشاعر الفنية ، ولا يتعارض فى رأيهم مع قيود الشعر الملتزمة .

نشأ المحدثون في ظلال حضارة العصر العباسي وثقافاته والامتزاج القوى الذى حدث فيه بين العرب والأمم الأجنبية . . ومن المحدثين ، ظهر المولدون من الشعراء ، الذين نشأوا من آباء عرب وأمهات أعجميات ، وبعضهم كانت أصولهم كلها أعجمية ، وإن أطلق لفظ المولدين على ماكان يطلق عليه لفظ المحدثين منشهود العصر العباسيوحضارته، ومن اتساع أفق الأفكار والخيال فيه .

وزاد المحدثون في معاني المتقدمين من الشعراء ، واهتدوا إلى معان جديدة ، وأتوا بأخيلة وتشبيهات مبتكرة ، في أغراض غير الأغراض القديمة في بعض الأحيان ، وزادوا من تسهيل الأسلوب وتطويع الوزن الشعرى . وصبغت الثقافات الجديدة المولدين بأفكارها في طرافة التفكير والتقسيم والمعاني والخيال ، وإن اهتموا في أحيان بالمعاني الغامضة ، والاستعارات البعيدة ، والتشبيهات المتنافرة ، والبديع المتكلف ، وخرجوا من عاطفة الشاعر وغنائيته إلى عقل المفكر ، وحكمه الحكيم ، فلج صالح ابن عبد القدوس ، وأبو العتاهية ، ومحمود الوراق ، في الحكمة والمثل ، وذهب شعر العتابي في البديع ، وعلى مـــثاله كان يقول جميع من يتكلفه من المولدين «كمسلم ومنصور النمرى . ومسلم أول من تكلفه من المولدين » ويشبه بزهير في صناعته الشعرية » وكانت هذه الموجه كلها خروجا على عمود الشعر في رأى كثير من النقاد .. وحول البديع قامت قضايا نقدية خطيرة في القرن الرابع الهجرى .

كان بشار بن برد ، هو أبا المحدثين وأستاذهم ، ويعجب الأصمعي الرواية الناقد بشعره ويشبهه بالأعشى والنابغة » ويذوه أبو عبيدة بفطنته وصحة قريحته وجودة نقده للشعر . وكان ابن الرومى يقدمه ، ويزعم أنه أشعر الشعـــراء .

ويرى الجاحظ أنه ما من مولد إلا وبشار أشعر منه ، وأن لا مولد بعد بشار أشعر من أبي نواس ، الذى عد ثاني بشار في منزعه لفظاً ومعنى ، وكان أسير المحدثين شعراً .

وجدنا الكثير من صور التجديد في القصيدة عند المحدثين والمولدين تجديد في الشكل والمضمون والمحتوى والثقافة والفكر ، وخروج على نمط الجاهليين في شتى عناصر القصيدة ، مما خالفوا فيه القدماء ، وأخلوا فيه بعمود الشعر .

ويتابع النقاد في أوائل العصر العباسي هذه الحركة الشعرية الجديدة ، ويبدون آراءهم في هذا الشعر المحدث ، الذى تحرر من عمود الشعر .

فأما أبو عمرو بن العلاء رائد المدرسة المحافظة فقد كان شديد التعصب على المحدثين ، لخروجهم على عمود الشعر ، بل كان كذلك يتعصب على الشعراء الاسلاميين ، ولا يرى الشعر إلا للجاهليين ، وكان أشد الناس تسليما لهم . . لا يعد الشعر إلا ما كان صادرا منهم .

وقد قال عن المولدين : « ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم » . وما سمع يحتج ببيت اسلامى ، فضلا عن أن يحتج بشعر المحدثين ، وقال : « لو أدرك الأخطل يوما واحداً من الجاهلية ماقدمت عليه أحدا .

وتابعه في الازراء بالمحدثين : ابن الاعرابي ، وأبو حاتم ، وأبو عبيدة . وكان المأمون يتعصب كذلك للأوائل من الشعراء ، ويقول : « انقضى الشعر مع ملك بنى أمية » . وكان اسحاق الموصلي شديد العصبية للقدماء ، فطعن على أبي نواس ، وأبي تمام ، وأبي العتاهية ، ولم يعتد ببشار ، وكذلك كان زعيم مدرسة تنكر تغيير الغناء القديم .

ومثل ذلك التعصب للآداب القديمة موجود فى الآداب الأوربية ، فقد كان « هوراس » يرى أن أشعار الشعراء الاغريق هى النماذج التى يجب أن تدرس ، وأن الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه . ونجد النقاد فى أوربا فى العصر الكلاسيكى ، جد مفتونين بالنماذج الاغريقية . وعصبية « أبى عمرو » ومدرسته على المحدثين والمولدين ظاهرة ، وسببها ميلهم إلى شعر الغريب والمعانى ، فى رأى الباقلانى ، أو حاجتهم إلى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ، فى رأى ابن رشيق وقد امتدت هذه العصبية إلى بعض نقاد القرن الرابع . .

وأما خلف الأحمر فينصف المحدثين ، ويفضل بعض نماذجهم على شعر الجاهليين ، فلامية مروان بن أبى حفصة أفضل عنده من لامية الأعشى. وكان لا يشق له غبار فى النقد ، ولا يجرى معه أحد فى حلبته. وتابعه فى إنصافه للمحدثين : الجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرد ، وابن المعتز ، وآراؤهم فى ذلك معروفة .

ثم يجىء المحدثون من الشعراء من ذوى الثقافات الجديدة ، كأبى تمام وابن الرومى ، ويخرج شعرهم على عمود الشعر خروجا واضحاً ، ويلتف حولهم شعراء الطبقة الثانية من المحدثين ، وقد تتلمذوا على شعراء الطبقة الأولى : كبشار ، وأبى نواس ، وأبى العتاهية .

ويختلف النقاد فى القرن الرابع فيهم اختلافا بينا : فرمى أبو تمام بالخروج على عمود الشعر العربى من حيث رفع كثير من النقاد فى هذا القرن من منزلة ابن الرومى الذى أعجب به المعاصرون كثيرا ، كطه حسين ، والعقاد ، والمازنى ، وطرحه وغض من شعره نقاد آخرون ، كالقاضى الجرجانى صاحب كتاب « الوساطة » وأهمله أبو الفرج فى كتابه « الأغانى » ولم يترجم له .

وعند هذا الحد يتضح لنا عمود الشعر ، وموقف النقاد فى القرن الرابع

الهجرى منه ، من بين متعصب على شعر المحدثين لخروجهم عليه ، ومنصف فى حكمه ، على شعرهم لأنهم وإن استجابوا لمقياس العمود الشعرى ، يفهمونه على نحو أوسع .

ويجىء المعاصرون ، ويخرجون على الكلاسيكية القديمة والجديدة ، متحررين من الأوزان الموروثة مؤثرين الشعر الحر والمرسل ، ممعنين فى الخروج على عمود الشعر العربى ونبذه واسقاطه ، فلعمود الشعر والقصيدة العمودية عندهم معنى آخر غير المعنى الذى قصده أرباب الشعر من الأقدمين .

من أجل نظرية جديدة فى النقد

عند نقاد القرن الرابع

حاول النقاد العرب القدماء فى القرن الرابع تقديم نظرية نقدية لتفسير العمل الأدبى والحكم عليه . . وكانت محاولاتهم من أرفع ما بذلوه من جهود فكرية وأدبية ولغوية وإنسانية ، على طول العصور . فى القديم ابتكروا ووضعوا الأصول والأسس والمناهج..وجئنا فى الحديث من بعدهم لنضيف وننظم ونحتذى . : فما تفسير ذلك ، وما الخطوات التى سار أسلافنا فيها ، وسرنا من بعدهم فى تأثرهم؟ . .

سنحاول الجواب عن سير حركة إيجاد نظرية جديدة فى النقد العربى القديم ، ونترك التفاصيل لبحث آخر ، ونعقب على ذلك فيما بعد بتوضيح الخطوط العامة لسير حركة النقد العربى حتى اليوم .

نعلم أن جماعات النقاد الأولين ، من مثل : حماد ، وأبى عمرو بن العلاء ، وخلف الأحمر ، وأبى زيد والأصمعى ، وابن سلام ، حاولت ربط النقد الأدبى بحكم الذوق الذاتى التأثرى ، فوفقت فى خطواتها الدائبة نحو إيجاد منهج نقدى أصيل توفيقا مذكورا ومشكورا .

وجاء الجاحظ ، ليقدم لنا — فى إطار هذا المنهج التأثرى الخاضع لأحكام الذوق — أفكارا جديدة ، تدور حول فلسفة البيان وأصوله ، ووجوب مطابقته لمقتضى الحال ، وتحقيقه لحاجات الفكر والأدب والمجتمع الملحة ، والضرورات اللغوية والفنية التى لابد من احتواء أى منهج أصيل عليها .

وعلى أهم عناصر الجمال الأدبى التى يرشد إليها الذوق ، ونالت نظرية الجاحظ النقدية ذيوعا واهتماما كبيرين من كل النقاد بعده .

ثم جاء ابن المعتز ليقدم لنا نظرية نقدية أخرى ، تدور حول فكرته البديعية الجديدة ، إذ رأى أن البديع يجب أن يكون هو المقياس النقدى الجديد الذى يخضع العمل الأدبى لأحكامه من ناحية ، ويسعى النقد لتفسير النص على ضوئه من ناحية ثانية ، وألف ابن المعتز كتابه المشهور « البديع » ، وقد ضمنه كل أصول مذهبه ، وعرض فيه للتشبيه والاستعارة والكناية ، والطباق والجناس والمذهب الكلامى وغيرها من صور البيان ، أو قل من صور البديع . . ولقيت تلك النظرية فى البديع عناية واهتماما شديدين ، وأصبحت مناط تفسيرات كثيرة ، وشروح واسعة ، ومن البدهى أن قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) فى منهجه النقدى الموضوعى ، الذى بسطه فى كتابه « نقد الشعر » لم يخرج عن أصول هذه النظرية إلا فى القليل .

وأصبحت تفسيرات الآمدى (٣٧١ هـ) فى كتابه المشهور « الموازنة » والقاضى الجرجانى (٣٩٢ هـ) فى كتابه « الوساطة » ، للعمل النقدى ومناهجه ، تحفل بكثير من آثار نظرية البديع ، مع رجوع شديد إلى حكم الذوق ، من حيث حكم أبو هلال العسكرى (نحو ٣٩٥ هـ) فى كتابه المشهور « الصناعتين » العقل أكثر مما حكم الذوق .

وحيال هذه الأفكار والنظريات النقدية الكثيرة ، التى لم تخل من أخطاء ولم يتركها الباحثون دون تعليق ونقد ، جاء ابن جنى ثم من بعده عبد القاهر الجرجانى صاحب كتابى : « دلائل الاعجاز » ، و « أسرار البلاغة » ، فقدما لنا على أساس ضوء النظريات النقدية السابقة ، نظرية جديدة ، سمياها « نظرية النظم » و أضاف إليها عبد القاهر كثيرا من التطبيقات النقدية — الرفيعة ، وبناها على

فلسفة بيانية ذات أصول عربية تخالف الأسس التى بنيت عليها النظريات العديدة السابقة ، وللذوق مكانه فى هذه النظرية حكماً وحارسا للحكم الأدبى الأصيل ، الذى يقصد به اثراء الفكر ، واغناء اللغة ، والتجديد فى فهم البيان الأدبى ، وإرواء ظمأ المعرفة الانسانية للبحث والكشف عن مقومات جديدة ، وقد وضح عبد القاهر فى كتابه « دلائل الاعجاز » مدى الحاجة الماسة إلى تقديم نظريته هذه فى النظم ، فأبان أنه لابد منها كمنهج نقدى جديد ، للكشف بها عن أصول عظمة البلاغة العربية من جانب ، وعظمة بلاغة القرآن الكريم واعجازه من جانب آخر وهو فى ذلك يساير آراء ابن جنى فى « الخصائص » والقاضى عبد الجبار فى كتابه « المغنى » .

أكد عبدالقاهر ضرورة محاولته للتجديد فى فهم أصول البيان العربى والبلاغة الأدبية ، كما أكد أهمية ما وصل إليه فى هذا المضمار من أفكار ومناهج .

وعبد القاهر فى هذه النظرية مبتكر حقا ، ومجدد أصيل ، وواضع لأهم نظرية فى النقد وأصول البيان .

وعنده لافصل بين الألفاظ ومعناها ، ولا بين الصورة والمحتوى ، ولا بين الشكل والمضمون فى النص الأدبى .

والبلاغة عنده فى النظم ، لا فى الكلمة مفردة ، ولا فى مجرد المعانى ، والنظم فى مذهبه مجموعة من العلاقات اللغوية ، بتعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض ، حيث يقتفى فيها آثار المعانى وترتيبها حسب ترتيب المعانى فى النفس ، لأن الفكر لايتعلق بمعانى الكلمة المفردة مجردة عن معانى الأسلوب وتوخيها فيها .

ويجمع اللغويون وكبار النقاد فى كل اللغات على ذلك ، وعلى أن الكلمة رمز لمعناها ، رمز للفكرة أو التجربة أو العاطفة أو المعنى ، وقيمتها فيما ترمز إليه ، وليست البلاغة فيها وحدها ، وهذه هى نظرية رمزية اللغة التى بحثها « فنت » الألمانى بعد عبد القاهر بقرون طوال . وعبد القاهر يتلاقى

معه فى ذلك كل النقاد العالميين ، من القدامى والمحدثين ، فإذا قال أفلاطون من قبل ، « إن الكلمة إنما تعنى الفكرة ذاتها وحقيقتها الخارجية المتمثلة فى صورة كلية على السواء » فإن الكلمة عنده معناها الفكرة ، اطلاقا وحين تعرض من الخارج ، فكل فكرة لا يمكن التعبير عنها تعبيراً دقيقاً إلا بكلمة واحدة ، فحيث إن كل كلمة لها ارتباطات خارجية تختلف حتى مع مرادفها اختلافا ما فإنه يتبع ذلك أن استعمال سوى الكلمة التى ترتبط بفكرك يعد خطأ ، وتغير الكلمة معناه تغير فى الفكرة(١) فكذلك نجد أرسطو يقول : « إن عملية النطق مستلزمة ضرورة للتفكير ، وإن الكلمات رموز للمعانى » (٢) ويقول عبد القاهر : « إنك تطلب المعنى وإذا ظفرت به فاللفظ معك وازاء ناظرك(٣) . ويقول « برجسون » بعده بزمن طويل : « إنما نفكر بالألفاظ » . ويقول « لاسل آبركرومبى » أستاذ النقد الانجليزى فى جامعة لندن(٤) : « على الأديب أن يجعل ألفاظه محاكية لتجاربه ورمزا لتلك التجارب ، وعليه أن يجمع بين مقدرته على التعبير عما فى نفسه بذلك الرمز وبين مقدرة ذلك الرمز نفسه على نقل تجاربه إلى القراء ، فما وظيفة الألفاظ فى الأدب إلا أن تكون رمزا » . ويقول ميخائيل نعيمة فى الغربال : « لا قيمة للغة فى ذاتها ونفسها ، بل قيمتها فيما ترمز إليه من فكر وعاطفة . وقال متى بن يونس (٣٦٨ هـ) من قبل للسيرافى (٣٦٩ هـ) : « المعانى المدركة لا يتوصل إليها إلا باللغة » كما يروى التوحيدى فى كتابه « الامتاع والمؤانسة » .

---

(١) الأدب وفنونه ، عز الدين إسماعيل .

(٢) « الخطابة » لأرسطو .

(٣) دلائل الاعجاز .

(٤) قواعد النقد الأدبى ترجمة محمد عوض .

وآراء « فردينانددى سوسير » ، رائد علم اللسان الحديث ، و (أنطوان ميسيه » هى آراء عبدالقاهر ونظريته فى العلاقات أو النظم ، فإنه من مجموع العلاقات بين الألفاظ فى النص الأدبى تتكون الصورة ، وفيها تظهر البلاغة أو الجمالية ويقول « سوسير » السويسرى : « إن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ ، بل هى مجموعة من العلاقات » . واللغة عند عبد القاهر ومجموعة النقاد العالميين المحدثين لا تصبح لغة شعرية إلا حين يستعملها الشاعر ، لا لأنها فى ذاتها لها هذه الخاصية ، ولكن لأنها خضعت للتجربة الشعرية فى نفس الشاعر ، ولمقتضيات التعبير عن هذه التجربة .

ويذهب الناقد الايطالى « كروتشيه » (- ١٩٥٢) إلى أن الحقيقة الجمالية لا تظهر فى المضمون ، بل فى الشكل الأدبى ، ومن ثم فقد اعتد بالصورة ، وهو فى هذا يتلاقى مع عبد القاهر الذى يعظم من شأن الصورة تعظيما شديدا . ويحدد « كروتشيه » المضمون بأنه الأحاسيس أو الناحية الانفعالية قبل صقلها صقلا جماليا ، أما الشكل عنده فهو صقلها وابرازها فى تعبير عن طريق النشاط الفكرى ، ولا قيمة عنده فى الشكل للكلمات المفردة من حيث هى مادة التعبير ، ولا من حيث الجرس والصوت منفصلين عن الفن والصورة . وهذا كله هو صميم رأى عبد القاهر فى كتابه « دلائل الاعجاز » .

ويفصل النقاد العرب قبل عبد القاهر ، من مثل ابن قتيبة ، وقدامة ، والعسكرى ، وغيرهم ، بين اللفظ والمعنى ، وبين الشكل والمضمون ، وبين الصورة والمحتوى ، فهما عندهم عنصران مستقلان تمام الاستقلال ، ويؤكد « ابن رشيق » — مخالفا لهم — أن اللفظ جسم وروحه المعنى ، فلا يمكن الفصل بينهما ، فهما عنده متلازمان ، وكأن رأيه قريب من مذهب أرسطو فى العلاقة بين اللفظ ، والمعنى ، وقد ربط عبد القاهر بين اللفظ والمعنى فى النص ربطا شديدا ، فالصورة والمضمون عنده هما وجها النموذج الأدبى ، والفصل بينهما غير ممكن ، إذ ليس هناك صورة ومضمون ، بل هما شيء

واحد ، فمادة العمل الأدبي وصورته لا يفترقان ، وهذه هي فلسفة الجماليين ، من حيث ذهب الـكلاسيكيون إلى دفع شأن اللفظ ، واهتم الرومانسيون بالمعنى ، وحرر دعاة الفن للفن النص الأدبي من كل قيود المضمون مادام النص يغذي الحاسة الجمالية في القارىء . ودعا الرمزيون إلى الاهتمام بالنغم وما توحيه الصور والألفاظ من رموز ومجازات عن طريق موسيقاها وأصواتها ، وأكد الواقعيون اهتمامهم بالمضمون ومحتواه الاجتماعي . وهكذا قرر عبد القاهر في جرأة نقدية كبيرة وحدة العمل الأدبي ، وربط بين مضامينه وأشكاله برباط وثيق ، فاللفظ عنده يستمد بلاغته من أنه ظل للمعنى ، والمعنى يستمد مزيته من حيث إنه المادة الغفل التي يصوغها اللفظ(١) . وإذا كان الشعر صياغة عند الجاحظ ، ويؤكده عبد القاهر ، فإن « مالارميه » الفرنسي لا يخرج عن ذلك حين يقول : « الشعر لا يصنع من الأفكار ولـكنه يصنع من الألفاظ »(٢) .

ولا يغفل عبد القاهر – بعد تأكيده لعلاقات النص، ولرمزية اللغة وللجانب الجمالي في الصياغة – أهمية المعاني الثانوية في النص ودلالاتها الجمالية ، فهي التي تعطي الأساوب دلالته البلاغية ، وتمنحه قيمه الجمالية ، وكثير من المهارة الأدبية هو في إطلاق تلك المعاني الثانوية لتؤثر تأثيرها في الخيال وعبد القاهر يتلاقى معه في ذلك كل النقاد في مختلف الآداب . يقول « كرومبي » : « المعنى الذي نجده في معاجم اللغة للـكلمة ماهو إلا النواة التي يتجمع حولها طائفة من المعاني الثانوية ، وكثير من المهارة الأدبية عبارة عن اطلاق تلك المعاني الثانوية ، لتؤثر تأثيرها في الخيال »(٣) ، وهذه المعاني الثانوية ذات

---

(١) « النقد الأدبي » للدكتور شوقي ضيف .
(٢) « الأدب وفنونه » لعز الدين اسماعيل .
(٣) « قواعد النقد الأدبي » .

أصالة كبيرة فى الصورة الأدبية » (١) .

ومن كل هذه القيم صاغ عبد القاهر نظريته النقدية الجديدة ، أو فلسفته البلاغية والجمالية ، ونعجب عندما نتأمل كيف رد عبد القاهر المعانى إلى النظم بناء على مذهبه فى رمزية اللغة ، وكيف نهج فى نقد النصوص نهجا تأثريا موضوعياً لينتهى إلى الذوق الذى يدرك الحقائق ويحس بالفروق ووجوه الكلام وأسراره ، فالأدب عند عبد القاهر فن لغوى ، واخضاع الفكرة أو الاحساس للفظ هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون .(٢)

وهذه النظرية الجديدة عند عبد القاهر ، بما اشتملت عليه من تطبيقات وشروح لم يعرض لها أحد قبله بمثل هذه النظرة العميقة ، والفهم النقدى الأصيل ،وبعض الباحثين يرجعون هذه النظرية إلى الجاحظ أو إلى الواسطى (٣٠٦ هـ) صاحب كتاب « اعجاز القرآن فى نظمه » ، أو إلى « متى بن يونس » فى مناظرته « للسيرافى » التى رواها التوحيدى فى كتابه « الامتاع والمؤانسة » ، وآخرون يرجعونها إلى أرسطو ، ولاشك أنهم أشد ظلما للحقيقة وللمكانة عبد القاهر ونظريته فى مناهج النقد العربى والعالمى .

وإن كان عبد القاهر يسير فى ظل ابن جنى والقاضى عبد الجبار فى كتابيهما : الخصائص ، والمغنى .

---

(١) « الشعر المعاصر » للسحرتى .
(٢) « الميزان الجديد » لمندور .

عيـــار الشعر

لابن طباطبـــا

— ١ —

ابن طباطبا محمد بن أحمد العلوى الاصبهانى من أشهر نقاد اواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجرى ، ومن أعلام الأدب والشعر ، وكتابه « عيار الشعر » من أهم كتبنا التراثية فى النقد ، وهو مصدر جليل فى الدراسات النقدية والبلاغية والأدبية .

ولابن طباطبا كتاب آخر مفقود يذكره فى كتابه « عيار الشعر » ، واسمه « تهذيب الطبع » وهو مختارات شعرية لأعلام الشعراء ، جمعها لتكون نبراسا لشباب الشعراء ، يهديهم إلى روائع الشعر ، ومناهج نظمه ، ومذاهب الشعراء فى معانيه وأساليبه .

وله كتاب آخر فى العروض يذكره ياقوت فى « معجم الأدباء (١) ويقول : إنه لم يسبق إليه .

ومن « عيار الشعر » نسخة مخطوطة فى الاسكوريال ، يرجع تاريخ نسخها إلى عام ٧٧٠ ﻫ . وقد قام معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية فى القاهرة بتصويرها . وعن هذه المصورة نشر الكتاب عام ١٩٥٦ ﻫ الدكتوران طه الحاجرى ومحمد زغلول سلام ، وأصدرته المكتبة التجارية بالقــاهرة .

---

(١) ١٧ : ١٥٠ معجم الأدباء نشر فريد رفاعى ـ القاهرة .

- ٢ -

وقد ولد ونشأ وعاش ابن طباطبا فى أصبهان بعيدا عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية .

وكانت أصبهان من مراكز الثقافة والحضارة الاسلامية فى إيران آنذاك (١) وفيها نشأ أبو الفرج الأصبهانى (٣٥٦ هـ) صاحب كتاب « الأغانى » وفى رحابها عاش الراغب الاصفهانى صاحب كتاب « محاضرات الأدباء » ، وأبو نعيم الاصبهانى صاحب كتاب « حلية الأولياء » . ومن علمائها : أبو عبد الله حمزة بن الحسن الاصبهانى صاحب كتاب أصبهان ، وعلى بن حمزة الأصبهانى ، وسوى هؤلاء الأعلام من الأدباء والشعراء والكتاب والمؤلفين .

ويرجع نسب ابن طبا طبا إلى الحسن بن على رضى الله عنهما . وقد نشأ بأصبهان ولم يفارقها قط ، وأخذ عن علمائها ، ونبغ فى الكتابة والأدب والشعر والتأليف ، وكان بينه وبين أدباء عصره صلات أدبية وثيقة ، ومن

---

(١) أصبهان مدينة الحضارات والفنون فى إيران الاسلامية ، وتبعد عن طهران بمقدار ٤٢٠ك م ، وفيها كثير من الآثار الإسلامية القديمة . ولموقعها الجغرافى الممتاز فى وسط إيران وجوها المعتدل ، اختارها السلاجقة عاصمة لهم فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، وفى القرنين العاشر والحادى عشر اتخذها الصفويون عاصمة لدولتهم ، فازدادت سعة وانتشارا وعمرانا وازدهارا ، وقد زارها الرحالة العرب القدامى ، ومنهم ابن بطوطة ووصفوها بأنها مدينة عامرة تحيط بها البساتين والمروج . وسكانها اليوم نحو السبعمائة ألف ، وتشتهر بالفنون وبعض الصناعات التقليدية . وفيها اليوم جامعة حديثة تعرف باسمها ..

بينهم ابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) وكان ابن المعتز لهجا بذكره ، مقدما له على سائر أهله « من العلويين الشعراء » ، ويقول : ليس فى ولد الحسن من يشبهه ، وكان ابن طباطبا طول أيامه مشتاقا إلى ابن المعتز ، متمنيا أن يلقاه ، أو يرى شعره . فأما لقاؤه فلم يتفق له لأنه لم يفارق أصبهان ، وأما ظفره بشعره ، فانه اتفق له آخر أيامه كما يقول ياقوت فى معجم الأدباء (١) .

وكان ابن طباطبا يعد من مشاهير أعلام أصبهان وشعرائها كما ذكره حمزة الاصبهانى فى كتابه ونقله عنه الثعالبى فى « يتيمة الدهر » (٢) .

ويقول ياقوت عنه فى « معجم الأدباء » : إنه « شاعر مفلق ، وعالم محقق ، شائع الشعر ، نبيه الذكر » .

- ٣ -

أما كتاب « عيار الشعر » فهو من أوائل الكتب التى ألفت فى النقد ، ومنها : فحول الشعراء للاصمعى (٢١٦ هـ) ، وطبقات الشعراء لابن سلام (٢٣١ هـ) ، الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، والرسالة العذراء لابن المدبر (٢٧٩ هـ) وقواعد الشعر لثعلب (٢٩١ هـ) ، والبديع لابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) ، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر (٢٦٠ - ٣٣٧ هـ) .

وفى « عيار الشعر » صلات مشابهة بينه وبين مقدمة « الشعر والشعراء » لابن قتيبة . ويقول ابن طباطبا فى فاتحة الكتاب .

« فهمت - حاطك الله - ماسألت أن أصفه لك من علم الشعر ، والسبب

---

(١) ١٧ : ١٥٠ وما بعدها - المرجع السابق .
(٢) ٣ : ٢٦٧ يتيمة الدهر للثعالبى نشر الصاوى - ١٩٣٤ القاهرة .

الذى يتوصل به إلى نظمه ، وتقريب ذلك على فهمك ، والتأنى لتيسير ما عسر منه عليك ، وأنا مبين ما سألت عنه ، وفاتح ما يستغلق عليك منه » (١) .

— ٤ —

وفى الكتاب تناول ابن طباطبا قضايا أدبية وبلاغية ونقدية كثيرة .

فى القضايا الأدبية التى أثارها ابن طباطبا :

١ — تناول ضرورة الوزن « الموسيقى » للشعر ، وأن الطبع والذوق يغنيان فى ذلك عن العروض ، وأما من اضطرب عليه الذوق فهو لا يستغنى عنه (٢) .

٢ — ويرى أن الشعر إن عرى من معنى بديع فلا يصح أن يعرى من حسن الديباجة ، وأن ما خالف هذا — أى خلا منهما معا — ليس بشعر (٣) فللشعر جسد وروح ، فجسده النطق ، أى اللفظ ، وروحه المعنى (٤) وهذا هو أساس نظرية ابن رشيق فى الصلة بين اللفظ والمعنى .

٣ — وتحدث عن أدوات الشعر : من التوسع فى اللغة والنحو ، والرواية لفنون الآداب ، والمعرفة بالأيام والأنساب ، والوقوف على مذاهب العرب فى الشعر ، ومناهجهم فى نظمه وأسلوبه ، وفى الصياغة ، والبلاغة ، لتكون القصيدة بعد نظمها عملا فنيا جيدا ، ولتكون كالسبيكة المفرغة ، والوشى المنمنم ، والعقد المنظم ، فتسابق معانيها ألفاظها ، وألفاظها معانيها . وتكون الألفاظ منقادة لما يراد له ، وغير مستكرهة ، وتكون القوافى كالقوالب للمعانى فيكون ماقبلها مسوقا لها ، ولا تكون هى مسوقة إليه (٥) .

---

(١) ص ٣ عيار الشعر (٢) ص ١٧ المرجع نفسه
(٣) ص ١٢١ المرجع نفسه (٤) ٤ و٥ عيار الشعر
(٥) ٥ و٦ المرجع نفسه .

٤ – وتكلم عن صناعة القصيدة وطريقة بنائها، وأن الشاعر فى نظمها يجب أن يكون كالنساج الحاذق، وكالنقاش الرفيق، وكناظم الجواهر الذى يؤلف بين النفيس والثمين منها، ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها فى نظمها وتنسيقها (١). ويستطرد إلى ذلك أيضاً فى آخر الكتاب، حيث يتحدث عن تأليف الشعر (٢)، كما تحدث فى أول الكتاب عن «صناعة الشعر»، وهنا يحتم على الشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها، لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه (٣). ويحتم أن تكون القصيدة كلها كأنها مفرغة إفراغا واحدا، فلا تناقض فى معانيها، ولا تفرق فى مبانيها، ولا تكلف فى نسجها، بل تقتضى كل كلمة ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها (٤).

أو ليس ذلك شبيها بما نعنيه الآن بوحدة القصيدة، أو الوحدة العضوية للقصيدة ؟.

٥ — ويتحدث ابن طباطبا فى كتابه عن شعراء المولدين وأنهم أتوا فيه بعجائب استفادوها ممن تقدمهم، ولطفوا فى تناول أصولها منهم (٥) لأن المتقدمين قد سبقوهم إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح وخلابة ساحرة (٦) وحتم عليهم ألا يظهروا شعرهم إلا بعد الثقة بجودته (٧)، وبأنه صار كالسبيكة المفرغة التى جمع فيها صاحبها كل بلاغات القدماء والمحدثين ومعانيهم الرائعة (٨).

٦ — ويقسم ابن طباطبا الشعر أقساما :

---

(١) ص ١٢٤ المرجع نفسه
(٢) ١٢٤ عيار الشعر
(٣) ١٢٦ و١٢٧ المرجع نفسه
(٤) ص ٨ المرجع نفسه
(٥) ص ٩ المرجع نفسه
(٦) ص ٩ عيار الشعر
(٧) ص ١٠ المرجع نفسه
(٨) ص ٧ المرجع نفسه

أ — فمنه شعر محكم متقن أنيق اللفظ حكيم المعنى عجيب التأليف (١)، ويمثل لذلك الشعر (٢). ويذكره فى موضع آخر بأنه المعنى البارع الذى برز فى أحسن معرض وأرق لفظ (٣).

ب — شعر — إذا انتقد — مبهرج المعنى، مزيف اللفظ، ليس له حلاوة (٤)، فهو مستكره الالفاظ متفاوت النظم قبيح العبارة (٥) سواء بتعقيد ألفاظه (٦) أم بالاغراق فى المعنى (٧)، ويمثل له بقصيدة كاملة للاعشى الشاعر الجاهلى المشهور، تبلغ ستة وسبعين بيتا، ويقول أولا إنه لا يسلم منها خمسة أبيات (٨)، ثم يقول بعد أن ذكرها كلها: إن التكلف فيها ظاهر إلا فى ستة أبيات يذكرها(٩)، ثم يأتى بجزء من قصيدة أخرى للاعشى مثالا آخر لهذا اللون من الشعر (١٠). ويذكر قصيدة أخرى عكس هذا اللون(١١) أى أنها من القسم الأول السابق.

جـ — شعر حسن اللفظ واهى المعنى (١٢).

د — شعر رث الصياغة صحيح المعنى (١٣).

---

(١) ٤٩ - ٦٧ المرجع نفسه
(٢) ٨٩ من المرجع نفسه
(٣) ص ٧ المرجع نفسه.
(٤) ص ٤٠ المرجع نفسه
(٥) ص ٤٠ وما بعدها - المرجع نفسه
(٦) ص ٤٠ وما بعدها - المرجع نفسه
(٧) ص ٤٥ المرجع
(٨) ٦٧ - ٧٤ المرجع
(٩) ص ٧٤ المرجع
(١٠) ٧٤ و ٧٥ عيار الشعر
(١١) ص ٧٥ المرجع نفسه
(١٢) ص ٨٣ - ٨٧ المرجع نفسه
(١٣) ٨٧ - ٨٩ المرجع نفسه

هـ ـ شعر لم يراع فيه المقام ، بل زادت فيه قريحة الشاعر ـ أي ملكته الشعرية ـ على عقله (١)

وذلك كله قريب إلى ما ذكره ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » ، من أن من الشعر ما حسن لفظه وجاد معناه ، ومنه ما قبح لفظه ومعناه ، ومنه ما قبح لفظه وحسن معناه ، وما حسن لفظه وقبح معناه .

وكلام ابن طباطبا هنا فى أقسام الشعر لا يجمعه موضع واحد ، بل هو مفرق فى جميع فصول الكتاب . ولكنا هنا وقد جمعناه من مواضعه المتفرقة نستطيع أن نعرف مدى قربه من كلام ابن قتيبة وتأثره به .

— ٤ —

ومن القضايا البلاغية التى أثارها ابن طباطبا فى كتابه « عيار الشعر » :

١ ـ قضية اللفظ والمعنى حيث عرض لها فى إيجاز شديد ، ورأى أن للمعانى ألفاظا تشاكلها فتحسن فيها وتقبح فى غيرها (٢)

كما حتم العناية باللفظ وبلاغته ، وبالمعنى وروعته وجدته ، ورأى أن الشعر لا يكون شعرا إلا إذا استكمل كل ذلك كما سبق .

٢ ـ وتناول بلاغة التشبيه وروائعه وصوره وأقسامه بالتفصيل (٣)

٣ ـ وتحدث عن حسن التخلص (٤) .

---

(١) ص ٩١ ـ ٩٥ المرجع نفسه ـ ويذكر نماذج للشعر المعيب لفظا ومعنى (ص ٩٦) . وللشعر المستكره الألفاظ القلق القوافى الردىء النسج (١٠٢) ، ولما كان عكسه (١٠٥ عيار الشعر) ، أى جاء سهلا سلسا ومثلا للشعر البعيد الاشارات ، أى المجازات والاستعارات والكنايات البعيدة (ص ١٢٠) .

(٢) ص ٨ عيار الشعر (٣) ص ١٧ ـ ٣١ المرجع نفسه

(٤) ص ١١١ ـ ١١٩ المرجع نفسه .

٤ - وعن مطلع القصيدة أو ما يسميه البلاغيون « حسن الابتداء » (١).

٥ - كما أشار فى كتابه إلى مراعاة المقام ، أو ما نسميه مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فى مواضع كثيرة ، سبق أن أشرنا إلى بعضها .

٦ - كما أشار إلى الافراط فى المعنى أو الغلو أو المبالغة فى مواضع كثيرة وذلك كله يجعل كتاب « عيار الشعر » من الكتب الرائدة فى بحوث البلاغة العربية . وأنه كان من المصادر الأولى للبلاغيين العرب الذين اهتدوا فى القرنين الرابع والخامس الهجرى بآراء من سبقوهم فى البلاغة العربية وقواعدها ، وبخاصة بما كتبه ابن طباطبا فى « عيار الشعر » .

— ٥ —

ومن القضايا النقدية التى أثارها ابن طباطبا فى كتابه « عيار الشعر » ما يلى :

١ - قضية السرقات الشعرية التى تحدث عنها ابن طباطبا حديثا جيدا ، حيث رأى أن الشاعر إذا تناول المعانى التى قد سبق إليها ، فأبرزها فى أحسن من الكسوة التى عليها لم يعب ، بل وجب له فضل إحسانه ، ويمثل ابن طباطبا للسرقات الشعرية بمثل كثيرة (٢) . وينصح من يأخذ معنى لغيره بأن يتلطف فى الحيلة ، ويدقق النظر فى تناول المعنى واستعارته حتى يخفى على النقاد ، ويعدد طرق هذا الاخفاء ، وأهمها أن ينقله من الغرض الذى قاله فيه الشاعر الذى سبقه إلى غرض آخر بعيد عنه (٣) .

---

(١) ص ١٢٢ - ١٢٤ المرجع نفسه (٢) ٧٦ - ٨٣ عيار الشعر
(٣) ص ١٤ عيار الشعر

٢ ـ وفى الكتاب فى مختلف فصوله نقد للشعر وللشعراء يدل على ذوق مرهف، وملكة نقدية محكمة .

٣ ـ ويتحدث ابن طباطبا عن « عيار الشعر » أى ميزانه الذى يوزن به فيرى أنه الذوق قبل كل شىء فما قبله واصطفاه فهو جيد ، وما عابه ونفاه فهو معيب (١) .

ويعلل لسر قبول الذوق للشعر الجيد بأن النفس تسكن إلى كل ما وافق هواها ، وتقلق مما يخالفه (٢) ، وبأن هذا الشعر الجيد موافق للحال والمقام (٣) .

ويرى أنه إذا اجتمع للفهم ـ أى للذوق ـ اعتدال الوزن ، وصواب المعنى ، وحسن الالفاظ ، تم قبوله لهذا الشعر . وإن نقص جزء من أجزائه ، كان انكار الفهم ـ أى الذوق ـ له على قدر نقصان أجزائه (٤) .

وهذا الميزان شبيه إلى حد محدود بالميزان الذى وضعه قدامة حيث رأى أن عناصر الشعر أربعة وهى بما تركب منها ثمانية . وحدد قدامة عناصر الجودة فى كل عنصر من عناصر الشعر ، اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، وما تركب منها ، فرأى أن الشعر إذا كان محتويا عليها كان شعرا جيدا ، وإذا كان فى عناصر الشعر ما يناقض أسباب الجودة التى ذكرها كان رديئا .

إن الاحتكام إلى منهج فى النقد صار محددا عند ابن طباطبا ، وهو عند

---

(١) ص ١٤ عيار الشعر
(٢) ص ١٥ عيار الشعر
(٣) ص ١٦ عيار الشعر
(٤) ص ١٥ عيار الشعر

قدامة أكثر وضوحا ودقة وتحديداً ، مع اختلاف عناصر هذا المنهج عند ناقدينا الكبيرين .

٤ ـ ويتحدث ابن طباطبا فى كتابه عن ضرورة ملاءمة معانى الشعر لمبانيه ، أى لألفاظه (١) .

إلى غير ذلك من قضايا النقد التى أثارها ، ويبدو فيها أنه كان يحاول فى أوائل القرن الرابع الهجرى فى أصبهان أو أصفهان وضع منهج نقدى للشعر ، فى الوقت الذى كان قدامة يحاول فيه ذلك فى البصرة ، وكان الناشىء الأكبر (٢٩٣ هـ) يحاول ذلك أيضاً فى الفسطاط فى مصر .

- ٦ -

وبعد فان كتاب « عيار الشعر » خطوة فى طريق الاهتداء إلى منهج نقدى ثابت لنقد الشعر ، وهو بما يحتوى عليه من آراء السابقين فى الشعر ونقده وصناعته ثروة نقدية ذات أهمية كبيرة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وإن كان السابقون لابن طباطبا قد نجحوا فى السير بالنقد خطوات واسعة فى طريق التقعيد والتأصيل له ، ووضع أصول يرتكز عليها .

فالأصمعى وضع مقياسا لفحول الشعر وطبقه ، وابن سلام وضع أساسا لطبقات الشعراء وأجاد تطبيقه ، وابن المعتز وضع أساسا لنظرية البديع فى النقد العربى ، وقدامة وضع أساساً للمنهج الموضوعى فى النقد العربى ، وطبق ذلك فى كتابه ، وابن طباطبا وضع أساسا للنقد التأثرى وطبق ذلك المنهج على الشعر والشعراء ، وجاء النقاد العرب الكبار ، فوضعوا نظرية عمود الشعر العربى وطبقوا هذه النظرية على شعراء كثيرين ، وفى

---

(١) ص ١٢٠ عيار الشعر

مقدمتهم أبو تمام (٢٣١ هـ) والبحترى (٢٨٤ هـ) ، وكان من أشهر من طبقوا هذه النظرية بعد ابن طباطبا أبو الحسن الآمدى (٣٧١ هـ) صاحب كتاب « الموازنة » بين الطائيين ». ولا ننسى جهود الجاحظ من قبل فى وضع أساس نظرية النظم وتطبيقها فى النقد العربى ، حتى جاء عبد القاهر الجرجانى (٤٧١ هـ) فتوسع فى دراسة النظرية وفى تطبيقاتها ، وصارت نظرية نقدية وبلاغية سيرة ، كانت الركيزة الأولى فى وضع قواعد البلاغة العربية

هؤلاء علماؤنا ، وهذا تراثنا العظيم ، فى النقد الذى تحول منذ القرن الثانى الهجرى إلى نظريات ومذاهب أثرى بها الفكر العربى فى قديمنا الخالد ، من حيث وقف هذا الفكر بعدهم يتلمس الطريق إلى التجديد ، حتى أتاح له الاتصال بالغرب أن يأخذ عنه ويتتلمذ عليه فى مذاهب النقد، وشتان بين شخصيتنا القديمة الواضحة المستقلة فى النقد وبين تبعيتنا الحاضرة المقلدة التى لا تهتدى إلى حقيقة جديدة فى النقد ، بل تأخذ عن الغرب وتنقل عنه وتقلده فى مذاهبه وأصوله ومدارسه .

وانى لأرجو أن تكون لنا مناهج مستقلة فى النقد ، وأن تكون لنا شخصيتنا الواضحة فيه ، وما ذلك علينا وعلى الله ببعيد .

نقــــد الشعــــر

لقدامــــة بن جعفر

— ١ —

قدامة بن جعفر « ٢٧٦ - ٣٢٧ هـ : ٨٨٩ - ٩٤٨ م » من أشهر النقاد العرب ، الذين أثروا حركة النقد الأدبى فى اللغة العربية ، ودفعوا بها إلى الأمام دفعات قوية ، ووجهوا النقد والنقاد وجهة جديدة استمر صداها على طول العصور . وكتابه « نقد الشعر » صار أصلا لجميع الدراسات النقدية العربية ، لأنه استحدث مذهبا جديداً فيها صار قدامة صاحبه ، وله فضل الكشف عنه .

وكان لآراء قدامة فى نقد الشعر صدى كبير عند النقاد القدماء ، بل بل لقد أحدثت ضجة كبيرة فى وسطهم ، فالآمدى « - ٣٧١ هـ » ألف كتابا فى تبيين غلط قدامة فى كتابه « نقد الشعر » وألف عبد اللطيف البغدادى « - ٦٢٩ هـ » كتابا فى شرح نقد الشعر لقدامة ، وكتابا بعنوان « كشف الظلامة عن قدامة » .

وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء كما يقول مؤرخوه ونسب إليه كتاب « نقد النثر » الذى حققه الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادى . وقد وجدت نسخة خطية كاملة من الكتاب نفسه فى مكتبة تشستر بيتى برقم ٧٦٧ تحت عنوان « كتاب البرهان فى وجوه البيان » ، لأبى الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، فصحت نسبة الكتاب لابن وهب المعاصر لقدامة بعد ما ثار جدل كبير حول صحة نسبة كتاب « نقد النثر » إلى قدامة ، وكان الذى ظهر من الكتاب ، اعتماداً على نسخة الاسكوريال باسم « نقد النثر » وبتحقيق الدكتورين طه حسين والعبادى هو نحو ثلث الكتاب . وقد نشر الكتاب كاملا أخيراً الدكتور أحمد مطلوب فى بغداد .

ولقدامة كتب كثيرة من مثل: «سر البلاغة في الكتابة، وصنعة الكتابة»، وكتاب الألفاظ، وكتاب الخراج، وغيرها، وله كتاب آخر أشار إليه ياقوت في «معجم الأدباء»، وهو الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام.

— ٢ —

وقدامة في مقدمة كتابه «نقد الشعر» يرى أن كتابه أول كتاب يؤلف في النقد، فيقول في مقدمته: «ولما وجدت الأمر على ذلك، وتبينت أن الكلام في هذا الأمر - أي النقد - أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخر، وأن الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه رأيت أن أتكلم في ذلك بما يبلغه الوسع».

وقدامة يغفل جهود العلماء السابقين في تأصيل قواعد للنقد من مثل: الأصمعي في كتابه «فحولة الشعراء»، وابن سلام في كتابه «طبقات الشعراء»، والجاحظ فيما كتبه عن النقد في كتابيه «البيان والتبيين»، والحيوان وغيرهما، وابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء». والمبرد في كتابه «قواعد الشعر»، وثعلب في كتابه له بعنوان «قواعد الشعر» أيضا، وقد حققته وظهر مطبوعا عام ١٩٤٨، وابن المعتز في كتابه «البديع»، وسوى هؤلاء الأعلام الخالدين في تراثنا العربي والنقدي.

وقد فصل قدامة في كتاب «نقد الشعر» مذهبه في النقد: فقسم الشعر إلى عناصره الأولى المفردة من اللفظ والمعنى والوزن والقافية، وإلى عناصر أربعة أخرى مركبة من هذه العناصر، ويذكر أن الشعر قد يكون جيدا أو رديئا أو بين الأمرين وأنه صنعة ككل الصناعات يقصد إلى طرفها الأعلى، ويقول: إنه يذكر صفات الشعر التي تبلغ به غاية الجودة، فإن وجد بضد هذه الحال كان شعرا في غاية الرداءة، وإلا فهو بين بين أي بين طرفي الجودة والرداءة، بحسب مدى قربه من أي الطرفين أو توسطيته بينهما.

— ٣ —

فعناصر الشعر عنده هى : اللفظ ـ المعنى ـ الوزن ـ القافية . ويتألف من هذه العناصر أربعة عناصر أخرى هى :

١ ـ ائتلاف اللفظ مع المعنى .

٢ ـ ائتلاف اللفظ مع الوزن .

٣ ـ ائتلاف المعنى مع الوزن .

٤ ـ ائتلاف المعنى مع القافية .

وصفات اللفظ الجيد عنده هى : سماحة اللفظ ـ سهولة مخارج الحروف ـ الخلو من البشاعة ـ الفصاحة .

وصفات الوزن الجيد هى : سهولة العروض ـ الترجيع .

وصفات القوافى الجيدة هى : عذوبة حرف القافية ـ سهولة مخرجها ـ التصريع فى المطلع .

وصفات المعنى الجيد هى : الوفاء بالغرض المقصود . أما الغلو فى المعنى فيؤثره قدامة على الاقتصار على الحد الوسط ، ويقول : إنه عنده أجود المذهبين ، وإنه هو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما وحديثا حتى قال بعضهم : « أعذب الشعر أكذبه » وإنه مذهب فلاسفة اليونان فى الشعر على مذهب لغتهم ، ويقصد بهم أرسطو صاحب أقدم مدرسة نقدية فى التراث النقدى الاوربى . ويؤكد قدامة أن الغلو يعد من باب الخروج عن الموجود والدخول فى باب المعدوم فالمراد به المثل وبلوغ النهاية فى النعت . ولما كانت المعانى عند قدامة لا نهاية لها فقد عدد نعوت الشعر فى أغراض الشعراء من مدح وهجاء وفخر ورثاء : ووصف الخ .

فنعت المدح الجيد عنده هو الصدق ، ويقسم الفضائل الانسانية إلى التقسيم الفلسفى المشهور ، العفة والشجاعة والعدل والعقل ، ويقول .

إن المدح الجيد يكون بهذه الصفات أو بعضها ، إن كان ذلك بعد قصورا . وقد يصف الشاعر الممدوحين ببلوغ الغاية فى هذه الصفات من باب الغلو والمبالغة .

والهجاء ضد المدح فى رأيه . وصفاته مضادة لصفات المدح . ويقرر أنه ليس بين المدحة والمرثية فرق إلا فى اللفظ دون المعنى .. ومواجهة غرضه هو أن يجرى الأمر فيه على سبيل المدح ـ ولعل عبد الصمد بن المعذل « ـ ٢٣٠ هـ » ، هو أول من قال بهذا الرأى حيث روى عنه ابن رشيق فى « العمدة » ـ جـ١ ص ١٠٣ ـ إذا رثيت قلت : كنت » ـ ولانوافقه على ذلك كلـــه . .

ثم يذكر قدامة نعوت الوصف الجيد ، ويتحدث من أجل ذلك عن التشبيه ، والغزل ويقول : إن هذه هى نعوت أغراض الشعر التى نحتها الشعراء من المعانى . فأما ما يعم جميع المعانى من نعوت الشعر فهى : صحة التقسيم ـ صحة المقابلة ـ صحة التفسير ـ التتميم ـ المبالغة ـ التكافؤ الالتفات ـ الاستغراب أو الطرافة .

ويستقصى قدامة نعوت ائتلاف اللفظ مع المعنى ، من : مساواة ـ ارداف « كناية » ـ إشارة ـ تمثيل ـ مطابق ومجانس .

ويذكر نعوت ائتلاف اللفظ مع الوزن ، وائتلاف المعنى مع الوزن ، ومع القافية من التوشيح والايغال .

ويذكر عيوب الشعر فى اللفظ ، والمعنى ، والوزن ، والقافية ، وعيوب ائتلاف اللفظ مع المعنى ، ومع الوزن ، وعيوب ائتلاف المعنى مع الوزن ، ومع القافية ، وهى كلها يعكس ما ذكره فى صفات الجودة ..

يكون هذا المنهج العقلى المحض فى النقد مذهب قدامة النقدى ، الذى صار حديث النقاد فى عصره إلى اليوم .

فقدامة يحكم عقله المنطقى فى النقد إلى أبعد حد ، فالمديح الجيد عنده بذكر الفضائل الانسانية ، وإذا كان المدح بشرف الآباء كان معيبا ، لأنه ليس مدحا بالفضائل . والهجاء بنفى الحسب والنسب معيب ، ويقرر أنه ضد المدح ، والمرثية فى رأيه هى المدح مع جعل الأسلوب ماضيا . وهذا خطأ فى إغفال العاطفة والتجربة الشعرية ، وإغفال جوهر الموضوع الشعرى نفسه . وحين يرى قدامة أن المبالغة أجود ، يعود فيقيدها بمنهج العرب ومألوفهم ، ثم يقيدها بألا تخرج إلى حد الممتنع الذى لا يكون . وقدامة مع تفضيلة للمبالغة يرى أن الشاعر كثير عزة فى قوله لعبد الملك بن مروان :

على أبى العاصى دلاص حصينة

أبلغ وأجود من الأعشى الشاعر الجاهلى فى قوله :

كنت المقدم غير لابس جنة

أى كنت المقدم فى الحرب دون أن تكون لابسا دروعا وحديدا والضرب . وقدامة ينسى أن العرب قد تصف الرجل بالشجاعة ، وقد تصفة بالحذر والاحتراس من المخاطر بلبس الدروع ، وذلك أسلوبان من أساليب العرب فى المدح .

ويجعل قدامة طرافة المعنى واختراعه ليست نعتا للشعر بل للشاعر . وذلك غريب فى الفهم ، وقد يستجيد أبياتا ويعيب أخرى دون سبب

معروف ، ومخالفا لأذواق النقاد . بل يجعل بيت ابن هرمة الشاعر المشهور في المدح بالكرم :

تراه إذا ما أبصر الضيف كلبه
يكلمه من حبه وهو أعجم

تناقضا معيبا ، إذا كيف يكلم الكلب الضيف مع قوله « وهو أعجم » ويعيب كذلك قول الشاعر في المدح :

كالغيث في كل ساعة يكف

لأنه - كما يقول - ليس في المعهود أن يهطل المطر كل ساعة . ويعيب بيت زهير بدعوى التناقض :

قف بالديار التي لم يعفها القدم
بلى وغيرها الأرواح والديم

- ٥ -

لقد تأثر قدامة في كتابه بالثقافات العقلية التي كانت سائدة في البصرة في عصره ، والتي تتلمذ عليها ، وأخذ منها . في القرن الثالث ، الذي عاش قدامة في آخره ، وفي البصرة بالذات ، التقت الثقافات العربية الاسلامية والمترجمة الدخيلة التقاء فكريا على نحو رائع، ونشأت طبقة من المثقفين الذين تثقفوا على هذا الفكر الانساني ، وكان في مقدمتهم المعتزلة ، الذين رجعوا إلى المنطق اليوناني ، وقرأوا فلسفة أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان ، وترجموا آراء الأمم الأخرى في البيان ومناهجه . وترجموا - فيما ترجموه - كتابي الخطابة والشعر لارسطو إلى العربية ، فالخطابة ترجمه اسحق بن حنين « - ٢٩٨ هـ » ، وكتاب الشعر اختصره الكندي « - ٢٥٣ هـ » .

وأخذت هذه الطبقة تؤلف فى صناعة الشعر ، وألف الكندى أول الفلاسفة العرب رسالة فى صناعة الشعر ، ولأبى زيد البلخى كذلك كتاب بهذا العنوان أيضاً ، وكذلك لأبى هفان المهزلى راوية شعر أبى نواس كتاب بالعنوان نفسه .

وكان متكلمو المعتزلة بتضلعهم من الثقافة اليونانية أصحاب آراء كثيرة فى النقد والبيان .

ومن البدهى أن يقرأ قدامة كل هذه الثقافات وأن يستفيد منها ويتأثر بها ، وقد استفاد قدامة من كتابى أرسطو : الخطابة ، والشعر ، وإن كان الدكتور طه حسين يرى إنه كان يجهل كتاب الشعر ، على أن تشريح الفلسفة للادب يظهر فى رأى الدكتور طه لأول مرة فى كتاب « نقد الشعر »

ونظرية الفضائل وقيامها على أربع صفات ، وحديثه عن المقاربة فى الاستعارة ، وعن الاستعارة اللفظية ، هى صورة مأخوذة من فلسفة أفلاطون وآراء أرسطو .

وقدامة بذلك يباين فى منهجه منهج النقاد العرب الاصلاء ، من مثل الأصمعى وابن الأعرابى وابن سلام والجاحظ وابن المعتز وابن قتيبة وغيرهم .

وإن كان نهج قدامة العقلى يعد أكبر وأجرأ خطوة نحو تدوين البلاغة العربية وأصول النقد والبيان .

وحسبنا أن ثلاثة من كبار النقاد العرب قد أولوا منهج قدامة فى نقد الشعر عناية جلى ، وتأثروا به تأثراً عميقاً ، وهم :

١ ـ أبو هلال العسكرى « ـ ٣٩٥ هـ » فى كتابه « الصناعتين » ،

٢ ـ ابن سنان الخفاجى « ـ ٤٦٦ هـ » فى كتابه « سر الفصاحة »

٣ ـ ابن رشيق القيروانى « ٤٦٠ هـ » فى كتابه « العمدة » .

كما تأثر علماء البلاغة والبديع تأثراً شديداً بقدامة وآرائه فى نقد الشعر.

ومن البدهى أن يستفيد قدامة من ابن المعتز « ٢٩٦ هـ » ومن كتابه « البديع » فائدة كبيرة، فكثير من أسباب الجودة عند قدامة هى مما ذكره ابن المعتز فى البديع على أنها من صنعة الشعر ومحسناته الفنية.

وبلاغة التجنيس عند قدامة، ونظرية قرب الشبه فى الاستعارة، والاستعارة من الضد، وابتناء الشعر على التخييل أى المحاكاة، هى كلها مما قرره قدامة وأفاد منه عبد القاهر الجرجانى « ٤٧١ هـ » وغيره من النقاد والبلاغيين العرب من بعده.

- ٦ -

هذا هو منهج قدامة فى النقد، ولكن إلى أى مدى يمكن أن نقول: إن هذا المنهج تأثرى أو موضوعى، وإلى أى الجانبين كان ينحاز قدامة ؟

لقد كان منهج قدامة النقدى يتفق وموضوعية النقد، فهو يعتمد على مناهج موضوعية يحكم النقاد على أساسها. والنقد الموضوعى مر بأطوار كثيرة خلال عصور التاريخ الأدبى العالمى:

- من نقد أرسطو الذى بناه على أصول فصلها فى كتابيه « الشعر » و« الخطابة ».

- إلى نقد قدامة المبنى على قواعد ونظرية محددة.

- إلى نقد المدارس الحديثة التى ربطت النقد بعلوم النفس والجمال والاجتماع.

ورفض الكثير من النقاد موضوعية النقد، حيث ثاروا على قواعد أرسطو، كما ثار النقاد العرب على قواعد قدامة، وثار المحدثون على

آراء المدارس الحديثة التى تؤمن بموضوعية النقد ، ومن بينهم طه حسين ومندور والزيات .

ووقف جمهور من النقاد موقفا وسطاً فدعوا إلى التخفيف من إخضاع النقد للعلوم الحديثة ، ومنهم الدكتور النويهى وغيره .

وفى نقد نظرية إخضاع النقد للعلوم الحديثة يقول مندور : إن معنى هذه النظرية الانصراف عن الأدب وتذوقه وفهمه إلى نظريات عامة لافائدة منها لأحد ، ورأى وجوب قصر المشتغلين بالنقد جهدهم على دراسة النص الأدبى ، ويصرح لانسون عميد النقاد فى فرنسا بأن التجربة قد حكمت بفشل تلك المحاولات .

وقد جهد مندور فى تقرير أن النقد ذاتى تأثرى ويجب أن يظل كذلك تأثريا يخضع للذوق وحده « ١١٦ - ١٢٩ فى الميزان الجديد لمندور » .

ويعتد ابن سلام والآمدى والقاضى الجرجانى بالذوق ، وكان عبد القاهر الجرجانى شيخ النقاد العرب يرى أن النقد الأدبى يجب أن يكون فنا طليقا لا يخضع إلا لحكم الذوق الأدبى السليم ، وقد سبق عبد القاهر بمذهبه فى النقد مدرسة الرومانتيكيين فى فرنسا ، التى حاربت نظرة الكلاسيكين إلى النقد كعلم له أصوله وقواعده ومناهجه ، ورجعت إلى الشعور والعاطفة . وإلى هذا نادى سانت بيف فى قوله : « ليس هناك قواعد تخلق الكاتب الكلاسيكى » ، وقوله : ، وقوله : « النقد لا يمكن أن يصبح علما موضوعيا ، وسيبقى دائما فنا دقيقا فى يد من يحاولون استخدامه » ويقول جول ليمتر : « إننا نحكم بالجودة على ما نحب ، أى أننا نرى حسنا ما نحب » وقد فطن الجاحظ والبحترى والصاحب بن عباد إلى أن النقد شىء مستقل عن كل علم آخر ، وأن قوامه الذوق(١)

(١) النقد العربى الحديث ومذاهبه للخفاجى .

— ٧ —

ويجب أن نلاحظ أن الدكتور محمد مندور يرى أن « نقد الشعر » كتاب بلاغة لا كتاب نقد (١) .

أما طه إبراهيم فيرى أن الكتاب دلالته الأولى أن قدامة أول ناقد أخذ الأدب بالتحكم النظرى الفلسفى .

وقد ابتكر قدامة بعض الفنون البلاغية بعد ابن المعتز، مما جعل الدارسين يجعلونه عالما فى البلاغة لا ناقداً (٢) .

ويجعل أحمد أمين الكتاب أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد (٣) .

وذهب د . بدوى طبانة إلى أن قدامة يجمع بين النقد والبلاغة (٤) .

وفى رأيى أن من يقرأ الكتاب قراءة عميقة يجزم بأن قدامة ناقد ، وأن كتابه مؤلف نقدى جليل .

وقد أشاد بنقد قدامة د . إبراهيم سلامة وتحدث عن أثره فى نقل النقد من النزعة الذاتية إلى النزعة الموضوعية (٥) .

ولا شك أن قدامة كان ذا ثقافة عربية واسعة وكتابه كذلك يحمل آثاراً من الفكر اليونانى ، فالكتاب مؤلف على طريقة المنطقيين لا على طريقة الذوقيين .

---

(١) ٦٤ النقد المنهجى لمندور .

(٢) ١٣٨ و ١٣٩ تاريخ النقد الأدبى عند العرب .

(٣) ٤٤٥ النقد الأدبى لأحمد أمين .

(٤) قدامة بن جعفر والنقد الأدبى لبدوى طبانة ، ص ٣٦١ .

(٥) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٢٢٤ .

ويقول د. شكرى عياد : إن قدامة أول ناقد عربى حاول أن ينتفع بكتاب الشعر لأرسطو ، وهو وإن كان لم يدخل المحاكاة فى تعريف الشعر فقد طبق الأصل الفلسفى العام فى المادة والصوت على مسألة كانت ذات أهمية خاصة عند الباحثين فى البلاغة فى عصره وهى صلة الشعر بالأخلاق فهل المعنى الشريف يرفع من قيمة الشعر ويخفض المعنى الخسيس من قيمته كذلك ؟ ولكن يبدو أن قدامة ، عند كلامه على نعت الوصف قد كان ينوه بالمحاكاة من حيث دلالتها على تصوير الشيء المحاكى وتمثيله .

ويقول قدامة عند كلامة على الغلو : وكذلك يرى فلاسفة اليونانيين فى الشعر على مذهب لغتهم ، وهو يريد أرسطو (١).

وعلى أية حال فإن قدامة لم يستفد من أرسطو مادته النقدية بمقدار ما استفاد من المنهج(٢) .

— ٨ —

وبعد ، فلقد أحدث قدامة بمنهجه النقدى — الذى صورناه لك — فى كتابه « نقد الشعر » ، ثورة فكرية عميقة ، ظهر صداها فى تراثنا النقدى والبلاغى والبيانى ، وفيما ألف من كتب بعده فى البديع .

وصار قدامة حديث العلماء والنقاد فى عصره وبعد عصره ، ولا يزال صداه وفكره النقدى قويا وسائدا ومستمرا فى تراثنا حتى اليوم .

ومن الجدير بالذكر أن معاصره الناقد « الناشيء الأكبر » « — ٢٩٣ هـ » ينسب إليه كثير من الدارسين أولية النقد ، وينسب آخرون هذه الأولية

---

(١) ص ٢٥٧ كتاب الشعر لأرسطو تحقيق د. شكرى عياد .

(٢) راجع ٣١٣ قدامة والنقد الأدبى .

إلى قدامة ، ومن حيث يشيد بعض القدماء بالناشىء ، يشيد آخرون بقدامة ، ومن بينهم « التوحيدى » فى بعض كتبه فقد ذكر للناشىء كتابا بعنوان « نقد الشعر » وهو مفقود . ويقول التوحيدى عن الناشى : ما أصبت أحدا تكلم فى نقد الشعر وشرحه أحسن مما أتى به الناشىء المتكلم وإن كلامه ليزيد على كلام قدامة وغيره . ولا مجال هنا للمقارنة بين الناشىء وقدامة لأن تراث الناشىء النقدى مفقود .

ويحاول بعض الباحثين أن يأخذ مما ذكره ابن رشيق فى كتابه « العمدة » من بعض الآراء المفرقة ما يضىء سبيل البحث عن منهج نقدى للناشىء . ولكنه الضوء الخافت الذى يمكن أن يكشف عن بعض الآثار القليلة لنقد الناشىء ، ولا يوصل إلى شىء .

وعلى الجملة فلا يزال قدامة وكتابه « نقد الشعر » ومنهج هذا الكتاب هو صاحب المقام الكبير فى تراث العربية النقدى حتى الآن .

المراجـــع

(١) راجع ١٢٥ الموازنة للآمدى ، طبعة صبيح ، ومعجم الأدباء فى ترجمة الآمدى وقد أهـداه الآمدى لابن العميد وقرأ عليه عام ٣٦٥ هـ .

(٢) ٧/٢ فوات الوفيات لابن شاكر . ولعبد اللطيف البغدادى كتاب « قوانين البلاغة واختصر كتاب الصناعتين للعسكرى » ٧/٢ و ٨ فوات » — ويروى صاحب « كشف الظنون » إن للبغدادى كتابا اسمه « تكملة الصلة فى شرح نقد الشعر لقدامة » ٢٤٦/١ كشف الظنون » ، وكتابا آخر اسمه « كشف الظلامة عن قدامة » ، ٤٠٠/٢ كشف الظنون » . ولعل الكتاب الأول هو الاسم الكامل لشرح البغدادى لنقد الشعر . وينسب لابن رشيق القيروانى كتاب بعنوان « تزييف نقد قدامة » ، « ٨٨ تحرير التحبير لابن أبى الأصبع المصرى — ٦٥٤ هـ » . ويرجح أنه ليس لابن رشيق صاحب « العمدة » .

(٣) ٤٠٠/٢ كشف الظنون لحاجى خليفة .

(٤) ٣٠٣/٦ — ٢٠٥ معجم الأدباء لياقوت ، ١٨٨ الفهرست لابن النديم ٣٤/٣ كشف الظنون ، تاريخ بغداد فى ترجمة قدامة — قدامة بن جعفر والنقد الأدبى للدكتور بدوى طبانة ، الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو المصرية — فى النقد الأدبى للدكتور شوقى ضيف .

(٥) نقد النثر بالاسكوريال مخطوط رقم ٢٤٣ .

(٦) ٢٠٤/٦ معجم الأدباء لياقوت

(٧) طبع نقد الشعر لقدامة طبعات عديدة : فقـــد نشره س . ا . بونيباكر بمطبعة بريل فى ليدن عام ١٩٥٦ ، ومن قبل طبع فى الجوائب

عام ١٣٠٢ ﻫ وطبع في القاهرة طبعة أخرى عام ١٩٣٤ بشرح لمحمد عيسى منون وبشرح آخر لـكمال مصطفى وظهر عن مكتبة الخانجي

(٨) يرى الكثير من الباحثين أن طبقات الشعراء، أول مؤلف عربي في النقد، راجع: النقد المنهجي لمندور، ٧٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطه إبراهيم، ٢/١٠٨ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان، .

(٩) ١٣ نقد الشعر لقدامة طبعة ١٩٣٤ بالقاهرة

(١٠) راجع ٣٢٨ - ٣٣١ الوساطة للقاضي الجرجاني - طبعة صبيح .

(١١) ٣٥٩ الفهرست لابن النديم .

(١٢) ص ٧ مقدمة نقد النثر .

(١٣) راجع: ٤١٧ - ٤١٨ طبقات الشعراء لابن المعتز، ١٧١ الفهرست لابن النديم، ١٢/١٠ تاريخ بغداد، ٢/٢٧٧ وفيات الأعيان . ٨٥ مراتب النحويين، ٢/٢٢٨ انباه الرواة، ١٤٠/٩ حسن المحاضرة، تاريخ النقد الأدبي عند العرب لاحسان عباس .

(١٤) ٢/٢٧٣ و ٢/٦١٩ البصائر والذخائر للتوحيدي، ١٤٧ أصول النقد.

(١٥) ٢/١١٧ البصائر والذخائر .

(١٦) د. يوسف حسين بكار - مجلة الأديب اللبنانية عدد يونيو ١٩٧٤.

منهج الآمدى فى النقد

— ١ —

أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحى الآمدى الأصل ، البصرى النشأة ، المتوفى عام ٣٧١ هـ ، وصاحب كتاب « الموازنة » بين أبى تمام والبحترى ، من أعظم النقاد العرب ، وأضخمهم أثرا فى النقد الأدبى ، وأكبرهم توجيها لحركة النقد والنقاد .

ولقد ولد بالبصرة ، واختلف إلى حلقاتها العلمية ، ولما بلغ سن الشباب توجه إلى بغداد ، وتردد على مجالس العلماء ، يتلقى عنهم اللغة والنحو والشعر والأدب . ثم عاد بعد حين إلى البصرة كاتبا للقضاة من بنى عبد الواحد ، وبرز فى الأدب ، وطارت شهرته فى النقد ، وانتهت إليه رواية الشعر القديم والاخبار فى آخر عمره ، وترك تراثا كبيرا فى اللغة والنقد . وكان فوق ذلك شاعرا مجيدا ، وتوفى بالبصرة عام ٣٧١ هـ (١) . ومن كتبه : الموازنة ، المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء ، تفضيل امرىء القيس على الجاهليين ، معانى شعر البحترى ، الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام ، فرق مابين الخاص والمشترك من معانى الشعر ، تبيين غلط قدامة فى كتابه « نقد الشعر » ، كتاب مافى « عيار الشعر » لابن طباطبا من الخطأ .

كان الآمدى ذا ثقافة أدبية واسعة ، وكان يميل إلى الطبع والذوق . الشعر عنده صحة تأليف ، وعذوبة لفظ ، وسماحة عبارة ، والبلاغة عنده

---

(١) راجع ص ٧٥ - ٩٣ / ٨ معجم الادباء لياقوت ، وقد ترجم له السيوطى بايجاز فى كتابه بغية الوعاة .

في جمال اللفظ والأسلوب ، وموافقتهما للنهج العربي في صحة التأليف وجودته ، أما المعاني وسموها والحكمة وروعتها والخيال وجدته ، فهي ترف زائد عن الحاجة ، ولها نصيب من حسن الصنعة وبهائها ، ولكن لا تتوقف عليها البلاغة ، وكان يسير في طريق الجاحظ في ذلك كله ، فمن قبل كان الجاحظ والنقاد يقولون : « عليك أن تجتنب السوقي والوحشي ، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني ، وفي الاقتصاد بلاغ (١) من حيث كان قدامة بن جعفر ينادي بضرورة العناية بالمعنى بمقدار العناية باللفظ ، لأن اللفظ والمعنى عنده عنصران من عناصر الأدب ، وكان يجاهر بأن البلاغة في شيئين : معنى مبتدع ، ونظم ساحر ، وهو لذلك يجعل مادة الشعر المعاني(٢) ، بعكس الآمدي الذي جعل مادة الشعر هي اللفظ . وكان الآمدي حريصاً على تحكيم النهج العربي في النقد ، أي تحكيم عمود الشعر ، الذي هو في أبسط صورة : كل القيم الفنية التي تتحكم في بناء القصيدة ومن ثم نستطيع أن نقول : إن الآمدي هو أعظم النقاد العرب الذي احتكموا إلى عمود الشعر ، وجعلوه هو الأساس الأول للنقد والموازنة في الأدب العربي .

— ٢ —

وكتاب « الموازنة » أثر ضخم خالد في صرح ثقافتنا النقدية وقد ألفه الآمدي في فترات متقطعة فهو يذكر في آخر كل فصل أنه سيضيف إلى ما كتب ما سيعثر عليه من أخطاء أو سرقات ، وسيلحقه بما كتب ، وهو يقرر في أول كتابه أنه سيوازن بين شعر الشاعرين فيما يتفقان فيه في الموضوع

---

(١) ١٨٢ و١٨٣ الموازنة ـ طبع صبيح .
(٢) ص ١٤ سطر ١٦ نقد الشعر لقدامة .

والوزن والقافية واعرابها(١)، ثم يعرد فيجعل الموضوع وحده هو أساس الموازنة(٢).

والموازنة من أمهات كتب النقد الأدبى وأصوله، وهى مصدر من أهم مصادر البيان العربى، ويعتمد عليها علماء البلاغة اعتمادا كثيراً، وإذا كانت هى مصدراً من مصادر البيان، فليس ذلك معناه أنها كتاب بلاغة كما زعم ابن الأثير فى كتابه «المثل السائر» حيث أخطأ فى ذلك، ثم بنى على هذا الخطأ نقده للموازنة بأنها أغفلت كثيرا من مباحث علم البيان(٣).

والكتاب مقسم إلى خمسة أقسام أو خمسة أبواب:

١ — فالقسم الأول يورد فيه الآمدى آراء النقاد فى شعر أبى تمام والبحترى، ويستقصى رأى المتعصبين لهذا أو لذاك:

٢ — والقسم الثانى يذكر فيه الآمدى أخطاء أبى تمام فى اللفظ والأسلوب والمعنى.

٣ — القسم الثالث يذكر فيه استعارات أبى تمام المستهجنة، وما جاء فى شعره من طباق مستكره ومن سوء نظم، وتعقيد تركيب، ووحشى ألفاظ. وما وقع فيه من كثرة زحافات، مما جعل دعبلا، يقول فيه: «إن كلامه بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر الموزون».

٤ — والقسم الرابع يحلل فيه بايجاز عيوب شعر البحترى.

---

(١) ص ٢٣ الموازنة.

(٢) ص ١٨٤ الموازنة.

(٦) ص ٢ المثل السائر لابن الأثير.

٥ — والقسم الخامس يوازن فيه بين الشاعرين موازنات جادة فى المعانى التى اتفق موضوعها فى شعرهما . ويبدأ الموازنة بكلمة يبين فيها صعوبة نقد الشعر ، وأن لهذا الميدان رجاله ممن عنوا بكثرة النظر فى الشعر وطول الملابسة له ، وأنه يجب أن يكون لهؤلاء المرجع فى نقد الشعر وصناعته .

ويذكر رأيه فى بلاغة الشعر وأنها لا تكون إلا فى نظمه وأسلوبه وصحة طبعه . ويقول : إن الذين قدموا البحترى إنما قدموه لأن له من ذلك ماليس لسواه وإن كانوا لا ينكرون على أبى تمام إجادته فى المعانى ، وكثرة استنباطه لها ، واغرابه فيها ، ولا ينكرون كذلك مكانه البارز فى حومتها .

ولكنهم يقولون . إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقديم ألفاظه مع كثرة غرامة بالجناس والطباق والاستعارة والمقابلة وسواها من ألوان البديع ، مما ذهب بماء شعره ، فصار غير متشابه الأطراف ، ولا متآلف الروح . فهم يسلمون له كما يسلم له أنصاره لطف المعانى وعمقها وتنوعها ، وبديع الوصف ، وجودة التشبيه والتمثيل ، وسمو الحكمة ، واغراق الخيال . وهى ضالة الشعراء جميعا ، والتى قدم بها امرؤ القيس فى الجاهلية : ولكن خصوم أبى تمام يستكثرون عليه من أجل ذلك أن يسمى شاعرا ، ويقولون له : فلتكن أن شئت حكيما أو فيلسوفا ، أما الشاعر فالبحترى . ويشرح مذهب البحترى فى الشعر ، مقررا أنه ليس الشعر ولا البلاغة إلا نظما وأسلوبا ، وأن أبرز عناصرهما النظم والأسلوب . ثم ينتقل بعد ذلك إلى الموازنة بين الشاعرين فى بكاء الديار ووصف الاطلال وفى موضوعات أخرى ، وكثيراً مايقف بجانب البحترى منوها بشعره وبشاعريته إلى نهاية الكتاب .

— ٣ —

إن الآمدى فى معظم ما كتب كان ناقداً محيطا بكل أسرار اللغة ودقائق

البيان .. ولياقوت رأى فى كتابه « الموازنة » ، فهو يقول : « كتاب الموازنة فى عشرة أجزاء ، وهو كتاب حسن وإن كان قد عيب عليه فى مواضع منه ، ونسب إلى الميل مع البحترى فيما أورده ، والتعصب على أبى تمام فيما ذكره ، والناس فيه على فرقتين : فرقة قالت برأيه فى البحترى وغلبة حبهم لشعره ، وفرقة أسرفت فى التقبيح لتعصبه ، وأنه جد فى طمس محاسن أبى تمام ، وتزيين مرذول شعر البحترى ، ولعمرى إن الأمر كذلك .. وقد يكون ياقوت مصيباً فى رأيه هذا إلى حد كبير .

فالآمدى يرجع إلى ذوقه ، فنقده تأثرى لا موضوعى ، وهو يحكم عمود الشعر فى النقد ، فيرجع إلى مناهج القدماء فى الأداء ويجعلها الحكم فى تفضيل الشعراء .

ومع تأثره بآراء النقاد قبله : كالجاحظ وابن سلام وابن قتيبة والاصمعى وابن الأعرابى وخلف وأبى عمرو بن العلاء وسواهم ، فإن له شخصيته المستقلة فى النقد ، ونهجه المعروف فى الموازنة .

وأصول الكتاب ترجع إلى آراء نقاد القرن الثالث كما يقول طه إبراهيم فى كتابه « تاريخ النقد الأدبى عند العرب » ، وقد صرح الآمدى بذلك فى الموازنة ، ولكن له فضل التنسيق والاضافة والمنهج والتطبيق والشرح والتحليل والموازنة والحكم . وقد كانت اتجاهات النقاد فى القرن الثالث تحكم النهج العربى فى النص ، فهم يميزون جيد الشعر من رديئه بعرضه على ميزان الطبع وعلى عمود الشعر ، وكذلك فعل الآمدى ، فاللغة عنده هى كل شىء فى النقد ، وللعرب طريق خاص فيما ينطقون من أساليب ، وفيما ينظمون عليه شعرهم من أوزان ، ولهم نهج خاص فى مجازاتهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وتمثيلاتهم وفى ألوان البديع التى يلمون بها فى كلامهم من مقابلة وطباق وجناس ، وما إلى ذلك كله . وذلك النهج هو مايجب على الشاعر أن

يلتفت إليه ، ويتنبه له ، ويأتى بشعره على طريقه ، ويحتذى فى أسلوبه حذوه وعلى مثاله ، وهذه هو ماسمى بعمود الشعر ، وهو ميزان النقد وأساسه عند صاحب « الموازنة » . ومن حيث حكم قدامة فى نقده عقله حكم الآمدى ذوقه ، والنقد عند قدامة موضوعى وعند الآمدى تأثرى والعقل أساس النقد عند قدامة ، أما الآمدى فأساسه عنده هو العمودية التى ترجع إلى الذوق لتستمد منه حكمه عند التطبيق .

— ٤ —

ولقد كانت قضية النقد الأولى فى القرن الرابع هى الموازنة بين الطائيين : أبى تمام والبحترى ، والحكم كذلك على شاعرية أبى الطيب المتنبى وشعره ، ومن أشهر نقاد هذا القرن : قدامة بن جعفر صاحب كتاب « نقد الشعر » ، وقد توفى قدامة عام ٣٣٧ هـ ، والقاضى الجرجانى صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » وقد توفى الجرجانى عام ٣٩٢ هـ على ما أرجحه ، والحاتمى صاحب « الرسالة الحاتمية » فى نقد شعر المتنبى » ، وقد توفى عام ٣٧٣ هـ ، وابن وكيع التنيسى (٣٩٣ هـ) صاحب كتاب « المنصف فى سرقات المتنبى » ، وأبو بكر الباقلانى (٤٠٣ هـ) صاحب كتاب « اعجاز القرآن » . وممن لهم قدم راسخة فى النقد فى هذا القرن : أبو بكر الصولى (٣٢٦ هـ) مؤلف كتاب « أخبار أبى تمام » وكتاب « أخبار البحترى » ، وأبو الفرج الاصفهانى (٣٥٦ هـ) مؤلف كتاب « الاغانى » ، والصاحب بن عباد الوزير (٣٨٥ هـ) صاحب رسالة « الكشف عن مساوىء شعر المتنبى » .

وهكذا نرى أن فريقا من نقاد هذا القرن عنوا بقضية الموازنة بين الطائيين ، وفريقا آخر عنوا بقضية شاعرية المتنبى ومنزلته فى الشعر . ولا شك أن أبا تمام والبحترى والمتنبى هم أئمة الشعر العربى وأشهر أعلامه فى القديم . وحول المتنبى ألفت كتب كثيرة ، وشرح ديوانه فحول العلماء .

والنقاد : كابن جنى والمعرى ومحمد الهروى ، وابن الافليلى ، والواحدى، وعبد القاهر الجرجانى ، والتبريزى ، والعكبرى ثم اليازجى والبرقوقى فى عصرنا الحديث ، وللشاعر العوضى الوكيل شروح على ديوان المتنبى وقد صدر جزء منها .

وقد عرض الثعالبى فى الجزء الأول من كتابه « يتيمة الدهر » للمتنبى وشعره بالدراسة والتحليل . ولمحمد بن أحمد المعتزلى راوية المتنبى كتابان عنه هما : « الانتصار المنبى عن فضائل المتنبى » ، « التنبيه المنبى عن رذائل المتنبى » ولابن حسنون المصرى كتاب « نزهة الأديب فى سرقات المتنبى من حبيب » وليوسف البديعى المصرى كتاب « الصبح المنبى عن حيثية المتنبى » الذى نشره المرحوم الأستاذ محمود مصطفى .

— ٥ —

ومهما كان الأمر فإن الآمدى والقاضى الجرجانى يحتلان فى النقد فى القرن الرابع مكانة علمية لاتدانيها مكانة أحد ، بكتابيهما : الموازنة ، والوساطة .

ويجعل القاضى الجرجانى الذوق الأدبى هو الحكم فى جميع مشكلات النقد والبيان وقضاياهما ، ويرد إلى عمود الشعر كل ما اختلف النقاد عليه من مسائل النقد ومشكلاته . وقد جعل القاضى الجرجانى وساطته حوارا بين أنصار المتنبى وخصومه ، كما جعل الآمدى موازنته حوارا بين أنصار أبى تمام وأنصار البحترى ، ويصطبغ الحوار عند الآمدى بصبغة عقلية ، كما يصطبغ الحوار عند الجرجانى بصبغة الذوق ، والغرض الأول عند الجرجانى هو إنصاف المتنبى من خصومه ومن أجل ذلك حتم فى أول كتابه تجريد الحكم الأدبى على الشاعر وشعره من كل الاعتبارات الشخصية .

ولقد كلل الآمدى والقاضى الجرجانى هامة النقد الأدبى فى القرن الرابع الهجرى بأكاليل المجد والعظمة ، وعبقرية الرجلين جعلت آراءهما فى النقد ذات خطر كبير ، وأثر بعيد فى تطوره ونهضته وازدهاره ، كما كانت أقوالهما النقدية بمثابة الحجة للنقاد عند احتصامهم فى قضايا الأدب والشعر والبيان .

وإن التراث العربى ليعتز كل الاعتزاز بهذين العلمين والرائدين الجليلين اللذين سارا بالنقد شوطا بعيدا فى طريق نهضته .

ويحفل كتاب الموازنة ، كما يحمل كتاب الوساطة بالكثير والجديد من النظريات المبتكرة فى الادب والشعر والبيان والنقد . . وذلك مما يرتفع بأهمية الكتابين فى تراثنا النقدى إلى منزلة عالية .

فالموازنة من أجل الكتب التى ظهرت فى النقد فى القرن الرابع . وكذلك فى الموازنة الأدبية وقد وضع هذا الكتاب أساساً قويا لنقد الشعر وللموازنة بين الشعراء . ويعد بحق من أمهات كتب النقد الأدبى وأصوله . وهو كذلك مصدر من مصادر البيان والبلاغة فى تراثنا الأدبى . ونحن حين نقول « إنه مصدر من مصادر البيان والبلاغة » لانعنى أنه كتاب بيان وبلاغة كما زعم ابن الاثير ذلك فى كتابه المشهور « المثل السائر » ، فأخطأ ، ثم بنى على هذا الخطأ نقده للكتاب بأن صاحبه قد أهمل كثيراً من مباحث علم البيان لم يستوف بحثها أو لم يذكرها أصلا(١) .

ويؤكد الآمدى وكتابه أنه لايرى بلاغة الشعر إلا فى نظمه وأسلوبه وصحة طبعه . مقرراً أن الذين قدموا البحترى إنما قدموه لأن له من ذلك ما ليس لسواه ، وإن كانوا لاينكرون على أبى تمام إجادته فى المعانى وكثرة

---

(١) ٢ المثل السائر .

استنباطه لها واغرابه فيها، ولكنهم يقولون : إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقديم ألفاظه ، مع كثرة غرامه بالجناس والطباق والاستعارة والمقابلة وسواها من ألوان البديع ، مما ذهب بماء شعره ، فصار غير متشابه الأطراف، فهم يسلمون له ضالة الشعراء جميعاً من لطف المعانى وعمقها وتنوعها ، وبديع الوصف ، وجودة التشبيه والتمثيل ، وسمو الحكمة ، واغراق الخيال ، وهى التى قدم بها امرؤ القيس فى الجاهلية .

ولكن خصوم أبى تمام يستكثرون عليه من أجل ذلك أن يسمى شاعراً ، ويقولون له : فلتكن إن شئت حكيما ، ولندعك أن أردت فيلسوفا، أما الشاعر فالبحترى، وما دام الشعر عند الآمدى نظماً وأسلوبا فلابد أن يكون البحترى هو المقدم عنده . وهو الشاعر الأثير لديه .

والآمدى مع بلاغة اللفظ والأسلوب والنظم فالبلاغة عنده وقف على ذلك أما المعانى والحكم والأخيلة فذلك الترف الزائد عن الحاجة ، والذى إن ألم به الشاعر أو الخطيب فقد زاد فى حسن صنعته وبهائها ، وإلا فالصنعة باقية قائمة بنفسها ومستغنية عما سواها ، كما يقول الآمدى فى الموازنة . وهو فى هذا متأثر بالجاحظ ومذهبه ، وكان الجاحظ يقول : « عليك أن تجتنب السوقى والوحشى ، ولا تجعل همك فى تهذيب الألفاظ ، وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى ، وفى الاقتصاد بلاغ[1] » ، ولكنه يباين قدامة ومنهجه الذى كان ينادى بضرورة العناية بالمعنى كما نعنى باللفظ ، ويجاهر بأن البلاغة فى شيئين : معنى مبتدع ، ونظم بليغ .

وكان ابن قتيبة يشرك كلا من اللفظ والمعنى فى البلاغة ، ويجعلهما

---

(١) ١٧٩ / ١ البيان والتبيين للجاحظ — تعليق السندوبى — طبع التجارية بالقاهرة .

عنصرين مستقلين استقلالا تاما ، من حيث مال قدامة إلى أن بلاغة كل منهما ضرورية فى بلاغة النموذج الأدبى ، وجاء ابن طباطبا فى « عيار الشعر » فذهب إلى أن للشعر جسدا وروحا فجسده النطق ـ أى اللفظ ، وروحه المعنى(١) ، وهو ما ذهب إليه ابن رشيق فى كتابه « العمدة » ، فليس اللفظ عندهما بمفصول عن المعنى ، ولا المعنى بمفصول عن اللفظ ، فبينهما وحدة ما فى النص الأدبى ، وجاء عبد القاهر الجرجانى بعد فأكد أن اللفظ والمعنى هما وجهان لنموذج واحد . فلا يفهم اللفظ بدون معنى ، ولا يفهم المعنى بدون لفظ ، فبينهما وحدة عضوية كاملة ، وذلك ما شرحه شرحا واسعا فى نظرية النظم التى أفاض فى شرحها فى كتابه « دلائل الاعجاز » .

إن الآمدى يطبق فى النقد نظرية عمود الشعر العربى تطبيقاً كاملا ، فالبحترى عنده هو الشاعر لأنه يحرص على كل القيم الرفيعة التى شرعها وحرص عليها الشعراء القدماء ، من امرىء القيس إلى ابن هرمة وبشار ، فى اللفظ والمعنى والأسلوب والخيال ، وفى اللغة والوزن والصورة الشعرية ، وغير ذلك ، لايخرج عليها ، ولا يبعد عنها ، مع صحة الطبع ، وجودة السبك ، وقوة الملكة .

وفى موازنة الآمدى بين الشاعرين أبى تمام ، والبحترى ، يطبق أبو القاسم الآمدى نظريته هذه (العمودية ، أو عمود الشعر) تطبيقاً واسعا وجريئاً وثريا على شعر الشاعرين ، فيرى البحترى يسير مع القدماء فى أدائهم وأساليبهم وأخيلتهم ومعانيهم وصورهم ، ويرى أبا تمام يبعد عن القدماء فى ذلك جله بعداً كثيراً ، وهو فى كل ذلك خاضع لمنهج ، ومتأثر بنظرية ، ومطبق لمذهب ، ومن أجل ذلك اثنى على البحترى ، وقسا على أبى تمام ،

---

(١) ٤ و ٥ عيار الشعر لابن طباطبا .

حتى لقد رمى بسببه بالتعصب على أبي تمام والانتصار للبحترى .

يقول الآمدى فى مطلع موازنته : « أكثر من شاهدته ورأيته من رواة أشعار المتأخرين يزعمون أن شعر أبي تمام ، حبيب بن أوس الطائى ، لا يتعلق بجيده جيد أمثاله ، ورديئه مطرح مرذول ، فلهذا كان مختلفاً لا يتشابه ، وأن شعر الوليد بن عبيد البحترى صحيح السبك ، حسن الديباجة ، وليس فيه سفساف ولا ردىء ولا مطروح ، ولهذا صار مستويا ، يشبه بعضه بعضاً » .

ثم يقول بعد ذلك :

« ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندى لتباين الناس فى العلم ، واختلاف مذاهبهم فى الشعر . ولا أرى أن يفعل ذلك ، فيستهدف لذم أحد الفريقين ، لأن الناس لم يتفقوا على أى الأربعة أشعر : لا فى امرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى ، ولا فى جرير والفرزدق والأخطل ، ولا فى بشار ومروان والسيد(١) ، ولا فى أبي نواس وأبي العتاهية ومسلم والعباس بن الأحنف : فإن كنت ـ أدام الله سلامتك ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبك ، وحسن العبارة ، وحلو اللفظ ، وكثرة الماء والرونق ، فالبحترى أشعر عندك ضرورة ، وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة ، فأبو تمام عندك أشعر لا محالة . فأما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ، ولكن أوازن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية ، وبين معنى

---

(١) هنا نقص ، والكلام صحته : والراعى ، ولا فى بشار ومروان والسيد وابن هرمة لأن الأربعة من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين والمولدين جميعاً فلابد أن يكون هنا أربعة شعراء من كل طبقة من هؤلاء .

ومعنى، ثم أقول : بهما أشعر فى تلك القصيدة وفى ذلك المعنى ، ثم احكم أنت حينئذ إن شئت على جملة ما لكل واحد منهما ، إذا أحطت علما بالجيد والردىء»(١) .

ويؤكد ذلك أيضاً فيقول :

« وأنا ابتدىء بذكر مساوىء هذين الشاعرين ، لأختم بذكر محاسنهما ، واذكر طرفا من سرقات أبى تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره ، ومساوىء البحترى فى أخذ ما أخذه من معانى أبى تمام ، وغير ذلك من غلطه فى بعض معانيه ثم أوازن من شعريهما بين قصيدة وقصيدة ، إذا اتفقا فى الوزن والقافية واعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى ، فإن محاسنهما تظهر فى تضاعيف ذلك ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما ، فجوده ، من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه . وأفرد بابا لما وقع فى شعريهما من التشبيه ، وبابا للأمثال ، أختم بهما الرسالة . ثم أتبع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما »(٢) .

ومذهب الآمدى فى الميل إلى بلاغة اللفظ وجودة السبك وصحة النظم جعله يرى أن الشاعر البحترى ، وأن أبا تمام والمتنبى واضرابهما حكماء . على أن الآمدى فيما سار عليه من مناهج فى النقد والموازنة متأثر بآراء النقاد قبله فلم يكن نقدهم إلا تحكيما للعمودية وللنهج العربى السليم فيما ينقدون ، فأبو عمرو بن العلاء وحماد وخلف والأصمعى وابن الاعرابى وسواهم ، كانوا يعرضون ما ينقدونه على ميزان الطبع ويحكمون نهج العرب فى بلاغتهم فى الموازنة . وكذلك فعل الآمدى ، برجوعه إلى مناهج العرب فى الأداء والأسلوب والنظم ، فيرد ما ترده ، ويقبل ما تقبله ، فللعرب طريق خاص فيما ينطقون به من أساليب ونظم ، ومن أفكار ومعان وأخيلة وصور

---

(١) ٥ ، ٦ ح ١ الموازنة .
(٢) ٧ ح ١ الموازنة .

وأوزان . وذلك النهج العربى الخاص هو ما يجب على الشاعر أن يلتفت إليه ويسترشد به ، ويحتذى حذوه ، وينظم شعره على مثاله ، ثم هو ميزان النقد ، وهو عمود الشعر فالناقد يرجع إليه فى الحكم على الشعر ، وفى كل مشكلات الأسلوب والمعانى والأخيلة والصور الشعرية . ولا شك فى تأثر الآمدى بآراء النقاد قبله ، فهو يعتمد على آرائهم، ويستدل بحكومتهم فى النقد ، حتى لقد قيل : إن كتاب « الموازنة » صورة لآراء النقاد قبل عصر الآمدى، وأن أصول كتاب الموازنة ترجع إلى نقاد القرن الثالث ومؤلفيه(١) ، وقد صرح الامدى بما يدل على ذلك فى أكثر من موضع من كتابه ، وفضل الآمدى إنما هو فى تدوين هذه الاراء وتنسيقها وإضافة آراء معاصريه إليها .

وإذا كانت موازنات الآمدى بين الشاعرين الخالدين، أبى تمام والبحترى ، قد وضعت للموازنة وللنقد أصولا جليلة ، اهتدى بها النقاد على طول العصور ، فانها كذلك وضعت أصولا أخذها البلاغيون فى القرن الخامس الهجرى .

ولقد تأثر القاضى الجرجانى فى كتابه « الوساطة » بمنهج الآمدى فى كتابه « الموازنة » تأثرا كبيراً ، ولقد كانا متعاصرين ، إذ توفى القاضى الجرجانى على ما نرجح فى عام ٣٩٢ ﻫ ، وفى رواية فى عام ٣٦٦ ﻫ ، وكان القاضى الجرجانى يعيش فى جرجان ، بينما كان الآمدى فى البصرة ، ولقد حكم القاضى الذوق فى نقده كما حكمه الآمدى ، ومآل الحكم فى النهاية عند الرجلين هو « عمود الشعر » ويجعل القاضى الجرجانى كتاب « الوساطة » حوارا أدبيا بين أنصار المتنبى وخصومه ، كما جعل الآمدى « الموازنة » حجاجا علميا بين أنصار أبى تمام وأنصار البحترى . ويقدر هذان الناقدان

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب لطه إبراهيم .

مبدأ كبير الأهمية ، وهو أن الشاعر الجاهلى ، فضلا عن الإسلامى والمحدث، يخطىء فى شعره .

كما نهجا منهجا واحداً فى بحث السرقات الشعرية وبعض ألوان البديع .

وقد وفى الآمدى الموازنة حقها ، ففصل أخطاء الطائيين ، ومظاهر إجادتهما ، ووازن بينهما فى بسط وطول أناة ، وكان فى ذلك اكثر بلوغا للغاية من صاحب الوساطة .

ولا يزال « مذهب عمود الشعر » عند الآمدى فى النقد جديداً أو كالجديد كما كانت نظرية البديع فى النقد عند ابن المعتز ، ونظرية النظم عند عبد القاهر وبذورها عند الجاحظ جديدة كل الجدة كذلك . ومنذ القرن الثانى الهجرى عرف الأصمعى بمقياسه فى فحولة الشاعر وابن سلام بمقياسه فى طبقة الشاعر ، وقدامة بمذهبه فى النقد الموضوعى، وابن طباطبا بمنهجه فى النقد التأثرى .. فإذا كان كل هؤلاء النقاد الكبار قد أسهموا فى وضع موازين علمية للنقد القرن الرابع الهجرى ، أثرى بها الأدب ونقده والبيان والبلاغة ، ثراء وأسعا : فإن الآمدى ونظريته النقدية فى عمود الشعر لا يزالان يكتسيانِ بالجدة والابتكار والعبقرية .

والآمدى من الأعلام الخالدين ، فى تراثنا النقدى الأصيل ، ويقول فيه الأستاذ السيد أحمد صقر محقق كتاب « الموازنة : « إنه أعظم نقاد الأدب العربى ، وإنه أمامهم الذى لا يضارع ، وإنه فى تاريخ النقد أمة وحده ، فى دقة منهجه ، وعمق فكره ، وحسن عرضه ، ونصاعة أسلوبه (١) .

ويعتد نقادنا المعاصرون من أمثال: الدكتور شوقى ضيف ، والدكتور

---

(١) ٢ جـ ١ الموازنة .

محمد مندور ، والدكتور بدوى طبانة ، والمرحوم الأستاذ طه إبراهيم فى كتابه «تاريخ النقد الأدبى عند العرب» وأحمد أمين فى كتابه فى تاريخ النقد الأدبى ، وسواهم ، بالآمدى وبكتابه «الموازنة» ـ اعتداداً كبيراً ..

وكان الآمدى من أظهر النقاد الذين توسعوا فى دراسة نظرية عمود الشعر العربى ، وتطبيقها تطبيقاً كاملا على الشاعرين أبى تمام والبحترى ، وذلك فى «الموازنة» . وكانت هذه النظرية بذرة صغيرة ألقى بها بعض الأدباء والنقاد فى فى القرن الثالث ، ومن بينهم الشاعر البحترى الذى أثر عنه قوله حين سئل عن نفسه وعن أبى تمام : «كان أغوص على المعانى منى ، وأنا أقوم بعمود الشعر (١) .

---

(١) ١٢ جـ ١ الموازنة .

القاضى الجرجانى وتراثه فى النقد

— ١ —

عاش القاضى أبو الحسن الجرجانى، على بن عبد العزيز، فى القرن الرابع الهجرى، فى ظلال دولة بنى بويه، وفى عصر ابن العميد، والصاحب ابن عباد، والخوارزمى، وبديع الزمان الهمذانى، وأبى حيان التوحيدى، والشريف الرضى، وأبى الطيب المتنبى. وأبى فراس الحمدانى وأبى دلف الخزرجى مسعر بن مهلهل. وغيرهم من اعلام الفكر الإسلامى والأدب العربى ... ولد فى جرجان، وهى موطن خالد من مواطن الثقافة الإسلامية فى إيران، وسلك السبيل التى كان يسلكها الشباب آنذاك فى مثل هذه البيئة العلمية الحافلة، فأخذ فى دراسة علوم الدين واللغة والأدب، وتنقل بين جرجان والرى وبغداد والشام، حتى نضجت ثقافته وعقليته، ووطد العلم والأدب الصلات الفكرية بينه وبين الصاحب بن عباد الوزير، فاشتد اختصاصه به، وحل منه محلا بعيداً فى رفعته، كما يقول الثعالبى فى اليتيمة. ومدح الجرجانى صديقه الوزير بقصائد بليغة، وقلده الصاحب قضاء جرجان، ثم رفعه إلى منصب قاضى القضاة بالرى عاصمة الملك الذى يسوسه ابن عباد، واستمر فى القيام بأعبائه حتى بعد وفاة الصاحب عام ٣٨٥ هـ .. وتوفى الجرجانى عام ٣٩٢ هـ ويذكر الشيرازى فى كتابه « طبقات الشافعية » مؤلفات عدة له فى الفقه.

وينم شعر القاضى عن اعتزازه بنفسه، واعتداده بشخصيته، يقول فيما يقول:

وقالوا: توصل بالخضوع إلى الغنى
وما علموا أن الخضوع هو الفقر

وبينى وبين المال بابان حرما
على الغنى : نفسى الأبية والدهر

إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه
مواقف خير من وقوفى بها العسر

إذا قدموا بالخير قدمت دونهم
بنفس فقير كل أخلاقه وفر

كما ينم عن نبيل عواطفه ، وجمال طبعه ، وسعة ثقافته فى الأدب .
ترك البداوة التقليدية فى الشعر ، وأنس إلى رقة الأسلوب وعذوبته .
وله ديوان ذكره الشيرازى فى « طبقات الشافعية » ، وابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ، ويقول الثعالبى فى القاضى الجرجانى : « كان يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى .

وعاصر الجرجانى حركة النقد التى قامت آنذاك حول شعر المتنبى .
ولما ظهرت رسالة الصاحب بن عباد « الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره » رأى فيها جورا على الحق ، واسرافا فى الخصومة ، وشططا فى النقد ، فألف كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ينصف فيه المتنبى من خصومة الصاحب وهذا الكتاب يعد سجلا أدبيا هاما لحركة النقد فى القرن الرابع ، ولا يزال كما كان مصدرا من مصادر الثقافة الأدبية ...

— ٢ —

« الوساطة » أصل من كتب الأدب ، وكان لظهور هذا الكتاب دوى شديد فى الأدب والشعر والنقد ، وحسبنا رأى الثعالبى وابن خلكان فيه .. ويعده الباحثون من القدامى والمعاصرين من أروع المؤلفات فى

النقـد . . وهو يدل على فهم عميق للشعر ، وإلمـام واسع بـكل ثقافات النقد والأدب .

يجعل الجرجانى الذوق الأدبى هو الحـكم فى مشكلات النقد والبيـان ، ويحدد عناصر منهجه النقدى فيقول : « وإنما تفاضل العرب بين الشعراء فى الجودة والحسن ، بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه ـ أى فى الشعر ـ لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله ، وشوارد أبياته .

ويرجع الجرجانى فى النقد إلى مذاهب الجاحظ والآمدى وأصحاب الثقافات الأدبية الخالصة ، مؤثراً أحـكام الفطرة والذوق الخالصين ، دون اعتداد بمنهج قدامة فى النقد ومناهج المقلدين لقدامة

وفى الموازنة يعرض الجرجانى كل ما أجاد أو زل فيه الشاعر ، ثم يوازن ويفاضل ، مع الرجوع إلى حكم الذوق الذى ثقفه المران والبحث ، وذلك ماسار عليه أئمة النقد والبيان ، فما النقد ـ فى أهم مذاهبه ـ إلا دراسة الأشياء وتفسيرها ، وتحليلها وموازنتها بما يشابها أو يقابلها ، ثم الحـكم عليها ببيان درجتها وقيمتها ، والنقد الأدبى عند المحدثين هو التقدير الصحيح لأى أثر أدبى وبيان قيمته ودرجته بالنسبة إلى سواه .

سلك الجرجانى فى الوساطة مسلك الآمدى فى « الموازنة » فجعلها حوارا بين خصوم المتنبى وأنصاره ، كما جعل الآمدى كتابه « الموازنة » حوارا بين أصحاب الطائيين ـ أبى تمام والبحترى ـ والغرض الأول للجرجانى فى الوساطة انصاف المتنبى من خصومه ، لذلك حتم فى أول كتابه تجريد الحـكم الأدبى على الشاعر من الاعتبارات الخاصة .

وكما اعتد الآمدى فى الموازنة ، بعمود الشعر وحكمه فى مسائل النقد ،

واستفتاه فى معرض الموازنة ، صنع مثل ذلك أيضاً القاضى الجرجانى فى « الوساطة » .

ويذكر الجرجانى المتعصبين للمتنبى وعليه ، وعقوق الفريقين له أو للادب فيه ، ويوجب الاعتراف بالفضل لذويه ، معذراً للشعراء عما يقعون فيه من أخطاء ، فأى شاعر كان بمنجاة من الخطأ ؟ وهل سلم منه شاعر من الجاهليين أو الإسلاميين ؟ وما دام الشعر علما من علوم العربية قوامه الإحسان فيه ، من الطبع والرواية والمران والذكاء ، فأى مانع من تفاوت ملكات الشعراء ، وتباين منازلهم فيه؟ أيا كانوا ، وفى أى عصر يعيشون . وإن كان للبيئات الأدبية العامة والخاصة أثرها فى تلوين الشعر بالوان تختلف جزالة ورقة ، فالشعر الجاهلى فى قوته وجزالته . وشعر المحدثين فى رقته وعذوبته ، يخضع كل منهما لما يخضع له الآخر من تأثر بعوامل البيئة والزمن . وما الرقة التى نراها أحيانا فى الشعر الجاهلى إلا صورة لاختلاف الأخلاق والطباع والأذواق وتركيب الخلق ولون المعيشة ، وهى أكثر ماتأتيك من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ، ويدعو الجرجانى المحدثين إلى الرقة والعذوبة ، وإلى تنزيل الجزالة والرقة منازلهما بحسب المعانى والأغراض والموضوعات ، كما يدعوهم إلى ترك التكلف ، والاسترسال مع الطبع . ويشيد بشعر البحترى وطبعه ، وبما يشاكله من نسيب جرير فى الاسلاميين وامرىء القيس فى الجاهليين . ويطرح الجرجانى الاعتداد بالبديع . أو جعله أساسا لجودة الشاعر فى شعره ، فهو لا يبالى بالبديع ، ولا يحتفل بالصنعة ، التى ألم بها القدامى ، وطلبها المحدثون ، ويناقش الجرجانى خصوم المتنبى . ثم يوازن بينه وبين سواه من المحدثين : كابن الرومى وأبى نواس وأبى تمام ، موازنات رائعة جميلة . ويتحدث عن السرقات الشعرية . وعما ينكره خصوم المتنبى عليه فى المعانى والألفاظ والأساليب ، وفى مذاهب الشعر : أحاديث رائعة عميقة ساحرة .

— ٣ —

وموقف الجرجانى من السرقات الشعرية ، التى رمى بها المتنبى خصومه والحاقدون عليه ، من أنها لا تغض من شعر المحدثين ، لسبق المتقدمين إلى المعانى ، ولكثرة ما تتوارد خواطرهم مع خواطر السابقين ، ولا خفائهم أمر السرقة بشتى الأساليب لزيادتهم عليهم فى أحيان كثيرة ، بما يأتون به من زيادة وتأكيد وتعريض وتصريح واحتجاج وتعليل ، موقف جميل ويرى وجوب الأناة فى رمى شاعر بالسرقة ، حتى لا يخرج الناقد عن مجال الأنصاف .

وموقفه مما ينكره خصوم المتنبى عليه من أخطاء فى المعانى والألفاظ والأساليب ، وفى مذاهب الشعر وأغراضه ، موقف الناقد المعتدل ، الذى يبحث ويتأنى ، ويدقق ويعرض ، وينصف الشاعر من خصومه وأنصاره على السواء .

ناقش خصوم المتنبى فيما رموه به من التقصير واستهلاك المعنى ، وغموض المراد ، مما يرجع إلى بعد الاستعارة والأفراط فى الصنعة ، ورأى أنه لن يكون أكثر من الفرزدق تعقيداً وغموضا .

وناقشهم فيما رموه به من المبالغة والأفراط ، ورأى أن ذلك مذهب عام فى المحدثين ، فهذا الأفراط عيب مشترك ، وذنب مقتسم ، وموقع أبى الطيب منه موقع أى رجل من المحدثين .

وناقشهم كذلك فيما اتهموه به من إبعاد الاستعارة ، والاغراب فيها ، ورأى أن عذر المتنبى فى ذلك هو عذر سواه من الشعراء ، الذين أبعدوا فى الاستعارة إبعاده ، وعلينا أن نحمل ما يجىء من كلامه وكلام المحدثين على وجوه تقربهم من الأصابه ، وأن نلتمس لهم شتى المعاذير .

وناقش الجرجاني خصوم أبي الطيب فيما عابوه به من أخطاء أخرى مناقشة نقدية عميقة بالغة غاية الروعة والجمال .

فمما أنكروه عليه قوله :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه
فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

قالوا : إن « ما » ليست للتشبيه ، وقد سئل أبو الطيب في ذلك فذكر أن « ما » تأتي لتحقيق التشبيه ، نحو ما هو إلا الأسد .. ويرد صاحب الوساطة على أبي الطيب فيقول : إن التشبيه بما محال ، و « ما » لم تتعد موضعها من النفي ، وليست للتشبيه ولا لتأكيده .

وقد ينكرون على أبي الطيب قوله : « فما أحد فوقي ولا أحد مثلي » ، ولكن هذا يدل على شعور المتنبي بالعظمة ، البالغة ، وهو يعبر عن تجربته هذه خير تعبير .

وينكرون على أبي الطيب قوله في كافور :

يفضح الشمس كلما ذرت الشمس
بشمس منيرة سوداء

لأن الشمس لا تكون سوداء ، والإنارة تضاد السواد ، فيرد عليهم الجرجاني بأنه لم يجعله شمساً في لونه حتى يستحيل عليه السواد ، وقد يكون شبهه بالشمس في العلو والرفعة ونباهة الشأن ، أو في النفع والجلالة .. ثم يقول في انصاف : غير أن في الأسلوب بشاعة وبعداً عن القبول .

وهكذا يناقش القاضي الجرجاني وينقد ويحكم .

هذا هو القاضى الجرجانى ، ناقداً امتد أثره فى كل ما ظهر بعده من كتب فى النقد والبيان ، واديبا ارتفع بذوقه إلى منزلة عالية فى الأدب ، وكان مناراً للادباء من بعده .

إن لكتابه « الوساطة » الكثير من المزايا التى لا توجد فى كتاب آخر

فنى كتاب الوساطة تصوير جيد لوجوه التفاوت بين القدامى والمحدثين ، وعرض لكثير من مشكلات الأدب والبيان ، وحديث جيد عن النقد ومذاهبه ومناهجه وتياراته .

عرض الجرجانى فى الكتاب للجزالة والرقة متأثراً فى ذلك بالجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » كل التأثر .

وعرض للبديع وشعرائه وألوانه ، وللسرقات الشعرية وألوانها .

وأفاض فى الكلام على المبالغة والاغراق ، وبخاصة فى شعر المحدثين. ورأى أن الغلو مذهب عام للمحدثين ، وأنهم لا يؤاخذون به ، وذلك جنوح إلى رأى قدامة فى نقد الشعر الذى يستحسن الغلو ويفضله .

ويذكر الغموض فى الشعر ، ويأخذ الفرزدق وأبا تمام والمتنبى به ، ويشرح أسبابه ، ويفرق بينه وبين ما ينشأ عن غرابة الكلام وتوحش اللفظ من غموض .

ويذكر أسلوب الالتفات ، والحشو ، والفصل بين الكلام ، وأسلوب القلب ، كما تحدث عن التكلف والتعقيد اللفظى حديثا ممتعا . ويندد بعصبية الرواة على المحدثين ، ويشيد بمكانتهم فى الشعر ، إلى غير ذلك من مختلف مسائل النقد والبيان ، التى عرض لها ، وتحدث فيها ، وناقش مختلف الآراء حولها . وحديثه عن السرقات الشعرية حديث رائع عميق .

وفى الوساطة تحامل على أبى نواس وأبى تمام وابن الرومى .. ومحاولة لانصاف أبى الطيب من جور خصومه وعصبية أنصاره .

وإذا كان القاضى الجرجانى قد نقد بيت أبى الطيب :

ما بقــومى شرفت بل شرفوا بى
وبنفسى فخــرت لا بجــدودى

ذاكرا أنه هجاء لا مدح، فإن ذلك الرأى بحاجة إلى المعاودة والمراجعة، ولعل القاضى الجرجانى لو أعاد النظر إلى البيت لأدرك مدى جماله وسر روعته ووثيق صلته بطموح الشاعر وشعوره بالعظمة فى نفسه .

ولا ريب أن مصادر كتاب الوساطة تعود فى مجملها وأهمها إلى كتاب « البيان والتبيين لأبى عثمان الجاحظ » ، وإلى «الموازنة » التى ألفها الآمدى والتى تأثر بها القاضى الجرجانى تأثراً شديداً ، وإن كانت «الوساطة » تغلب عليها صبغة البيان ، و « الموازنة» تغلب عليها صبغة النقد، على أن «الموازنة » تمتاز بموضوعيتها وتمام المنهج النقدى فيها . أما الوساطة فهى لم تستوف بحوث النقد التى كان يجب أن يلم بها فى معرض الحكم على المتنبى وشعره ..

على أن القاضى الجرجانى لم يغفل مصدراً من مصادر الأدب والنقد والشعر ، فقد رجع إلى كل كتاب سبقه ، وأفاد منه .

وبعد ، فإن القاضى الجرجانى من أعلام النقد العربى ، ومن قممه السامقة ، وهو حرى بأن يعرف له مكانه فى النقد ، ومنزلته فى الأدب . وحسبه فخراً أن كتابه أصبح مصدراً أصيلا من مصادر الموازنة والنقد والبيان والأدب .

مراجـــع

(١) ٣ : ٢٨٣ يتيمة الدهر للثعالبي - تحقيق محمد محي الدين

(٢) ١٧١ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لأحمد ضيف .

(٣) ٩٠ - ١٠٠ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

(٤) الوساطة « طبعة صبيح » .

(٥) أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب .

(٦) ٣٥ - ٣٨ نقد الشعر لقدامة تحقيق « مندور » .

(٧) ٢٧٧ الوساطة .

(٨) النقد المنهجي لمندور .

(٩) أصول النقد للمؤلف .

(١٠) حكومة القاضي الجرجاني في النقد للمؤلف .

إعجاز القرآن للباقلانى

— ١ —

من أصول كتب النقد التى ألفت فى القرن الرابع الهجرى ، هذا الكتاب القيم « اعجاز القرآن » ، الذى ألفه أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى ، المتوفى عام ٤٠٣ هـ : ١٠١٣ م فى بغداد دار السلام .

ويقول مصطفى صادق الرافعى فى الكتاب : إنه استبد بهذا الفرع من التصنيف فى الاعجاز ، واحتمل المؤونة فيه بجملتها من الكلام والعربية والنقد ، حتى عدوه الكتاب وحده لا يشرك العلماء معه كتابا أخر فى خطره ومنزلته وبعد غوره وإحكام ترتيبه وقوة حجته وبسط عبارته وتوثيق سرده(١) .

ويجعل الدكتور زكى مبارك الكتاب صورة للحياة الأدبية فى أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع الهجرى(٢) .

ولقد كان للباقلانى مذهب فى النقد يرجع إلى فهم الأثر الأدبى جملة ، وتحليل خصائصه ، والموازنة بينه وبين غيره من الآثار الأدبية ، وبيان منزلته البيانية والأدبية والفكرية مما يظهر بوضوح فى كتابه « إعجاز القرآن » ، الذى ترك آثاراً كبيرة فى النقد الأدبى ، ولا زال معدودا من مصادر النقد وأصوله ، وبخاصة منهجه فى نقد الشعراء فى قصائدهم الطوال ، حيث لا ينقد بيتا أو أبياتا من قصيدة ، ولكنه ينقد القصيدة كاملة ، ويبين

---

(١) ٢٠٠ اعجاز القرآن للرافعى .

(٢) راجع ١٥ وما بعدها جـ ٢ النثر الفنى لزكى مبارك .

بوضوح رأيه فيها وفى شاعرية صاحبها ، وبخاصة القصائد الأولى المتفق على رفعة محلها ، وصحة نظمها . وجودة معانيها ، وسحر بلاغتها ، وابداع صاحبها فيها ، مع كونه من الموصوفين بالتقدم فى الصناعة ، والمعروفين بالحذق والبراعة والتفوق فى البلاغة . . وقد سار على هذا النهج فى نقده لشعر امرىء القيس ، والأعشى وأبى نواس والبحترى .

— ٢ —

والباقلانى من أعلام القرن الرابع الهجرى ، ويقول عنه الحافظ البغدادى فى كتابه « تاريخ بغداد » : إنه كان أحسن الناس خاطرا ، وأجودهم لسانا وأوضحهم بيانا ، وأصحهم عبارة(١) .

ويقول عنه ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » : كان فى علمه أوحد زمانه ، وانتهت إليه الرياسة فى مذهبه وكان موصوفا بجب الاستنباط ، وسرعة الجواب (٢) .

وقال عنه معاصره الملك عضد الدولة البويهى المتوفى عام ٣٧٢ هـ : مافى مملكتى مثله ، ولا للمسلمين فى عصره مثله . . وكان الصاحب بن عباد الوزير البويهى المشهور المتوفى عام ٣٨٥ هـ يصفه بأنه بحر معرق .

ووصفه الذهبى فى كتابه « سير أعلام النبلاء » بالإمام العلامة ، ووصفه ابن العماد فى « شذرات الذهب »(٣) بأنه مجدد الدين على رأس المائة

---

(١) ٥ / ٢٧٩ تاريخ بغداد .
(٢) ٢ / ٢٧٨ وفيات الأعيان طبعة ١٣٩٩ هـ .
(٣) ٣ / ١٦٨ شذرات الذهب .

الرابعة . وكتب عنه ابن تيمية(١) بأنه أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعرى ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده .

وقال عنه ابن خلدون فى المقدمة(٢) تصدر للإمامة فى طريقتهم — طريقة الأشاعرة — وهذبها . ووضح المقدمات العقلية ، التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار ، وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ، وأنه لا يبقى زمانين .

ولقد ولد الباقلانى فى البصرة ، وانتقل منها شاباً إلى بغداد حيث أقام فى الكرخ ، وصارت له حلقة علمية كبيرة يجلس فيها تلاميذه والمستفيدون من فضله وعلمه وأدبه ، وما أكثرهم . . ثم ألف الكتب الجليلة ، وتصدر مجالس العلم وحلقاته وطلبه الملك البويهى عضد الدولة فقصده فى شيراز عاصمة الملك ، وناظر المعتزلة فى مجلس عضد الدولة وأفحمهم ، فعلت منزلته عند الملك البويهى ، وبعث به عام ٣٧١ هـ إلى ملك الروم باسيليوس الثانى . الذى تولى الملك مدة طويلة وذلك فى سفارة سياسية .

وتوفى عضد الدولة فى شوال عام ٣٧٢ هـ ، وقام بالأمر بعده ابنه صمصام الدولة ، وكان الباقلانى أستاذاً من أساتذته ، وألف له كتاب « التمهيد » فعلت منزلته فى البلاط البويهى ، وكان من فقهاء المذهب المالكى وإليه انتهت رياسته ، وعظمت منزلته فى عصره ، حتى توفاه الله إلى رحمته(٣)

---

(١) ص ٧٦ رسالة الفتوى الحموية الكبرى .

(٢) ص ٤٦٥ المقدمة — فصل علم الكلام .

(٣) راجع فى ترجمته أيضاً : روضات الجنات ج ٤ ص ٦١٦ - الديباج لابن فرحون ص ٢٦٧ - عيون التواريخ لابن شاكر ج ١٢ ص ٢٦٣ . الملل والنحل للشهرستانى (٢ ص ١٢٩) طبقات الشافعية للسبكى ج ٢ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ — وراجع مقدمة إعجاز القرآن بتحقيقى — ومقدمته بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر .

ولقد ألف فى نظم القرآن : الجاحظ ، وأبو بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى(١) .

وألف أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطى كتاباً عنوانه « إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه » كما ألف فى الاعجاز الرومانى والخطابى .

وتجمعت فى القرن الرابع آراء ومذاهب كثيرة فى إعجاز القرآن الكريم ، بعضها يذهب إلى أن الاعجاز يكمن فى البلاغة العالية التى جاء عليها نظم القرآن الكريم ، وبعضها الآخر يذهب إلى أن سببه الصرفة ، وهى صرف الهمم عن معارضة كتاب الله ، وبعضها يذهب إلى أن سببه ما تضمنه الكتاب الحكيم من الأخبار عن أحداث الزمان التى تقع فى المستقبل ، أو من الأخبار عن أحداث وقعت فى الماضى السحيق أو غير ذلك .

والباقلانى فى كتابه لايخرج فى قضية الاعجاز القرآنى وأسبابها عن ذلك ، ولا يأتى فيها بأمر جديد ، بعد إضافة ظاهرة .

فهو فى كتابه يتحدث عن وجوه إعجاز القرآن الكريم ، ويركز الكلام على بلاغة القرآن ، فيذكر مظاهر هذه البلاغة ووجوهها وينفى أن تكون معرفة الإعجاز بسبب من البديع ، ويوازن بين بلاغة القرآن وبلاغة رسول الله ﷺ .

ثم يوازن بين بلاغة مختارات من الشعر العربى وبلاغة كتاب الله . .

---

(١) هو ابن صاحب « سنن أبى داود » سليمان أبى داود السجستانى الإمام (٢٠٣ — ٢٧٥ هـ) أحد تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل (راجع ١٧٥ — ١٧٧ جـ ١) المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الإمام أحمد — مطبعة المدنى بمصر .

وفى هذه الموازنات الرائعة التى يبلغ فيها الباقلانى الغاية فى سمو المنهج النقدى ، نلمس عمق الفهم لكل مايتصل بالنقد من أحكام وموازين ومناهج فهو ينقد معلقة امرىء القيس :

قفـانبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخـــول فحومل

كلها نقداً دقيقاً يقول : إن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بيناً فى الجودة والرداءة ، والسلامة والانعقاد ، والسلامة والانحلال والتمكن والاستصعاب . والتمهل والاسترسال ، والتوحش والاستحراء ، وله شركاء فى نظائرها ، ومنازعون فى محاسنها ، ومعارضون فى بدائعها ، ولا سواء كلام ينحت من الصخرة تارة ، ويذوب تارة ، وقول يجرى فى سبكه على نظام ، وفى رصفه على منهاج ، مختلفة مؤتلف ، ومؤتلفة متحد ومتباعدة ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد(١) .

ثم يقول(٢) : وكنا أردنا أن نتصرف فى قصائد مشهورة ، فنتكلم عليها ، وندل على معانيها ومحاسنها . . ثم رأينا هذا خارجاً عن غرض كتابنا ، والكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعياره ، ولذلك كتب وإن لم تكن مستوفاة ، وتصانيف وإن لم تكن مستقصاة . . ولم نحب أن ننسخ لك ماسطره الأدباء فى خطأ امرىء القيس فى العروض والنحو والمعانى وما عابوه عليه فى أشعاره وتكلموا به على ديوانه (٣) .

---

(١) ص ٢٠٩ إعجاز القرآن بتحقيق صاحب هذا البحث — طبع القاهرة ١٩٥١ .

(٢) ٢٠٩ ، ٢١٠ المرجع نفسه .

(٣) ٢١٠ المرجع السابق .

وينقد شعر امرىء القيس والنابغة والأعشى وغيرهم نقداً لاذعا .. ثم ينتقل إلى البحترى فيقول : (١) انت تعلم أن من يقول بتقدم البحترى فى الصنعة به من الشغل فى تفضيله على ابن الرومى ، أو تسوية ما بينهما مالا يطمع معه فى تقديمه على امرىء القيس ومن فى طبقته ، وكذلك أبو نواس ، . إنما يعدل شعره بشعر أشكاله ، ويقابل كلامه بكلام أضرابه . من أهل عصره ، وإنما يقع بينهم التباين اليسير ، والتفاوت القليل .

ويقول عن امرىء القيس (٢) : وهو كبيرهم ـ أى كبير الشعراء ـ الذى يقرون بتقدمه ، وشيخهم الذى يعترفون بفضله ، وقائدهم ـ الذى يأتمون به ، وإمامهم الذى يرجعون إليه .

ويقول عن البحترى (٣) : وأنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام ، ويقدمون رأيه فى البلاغة على كل رأى .

وعن أبى نواس (٤) : وكذلك نجد لأبى نواس من بهجة اللفظ ، ودقيق المعنى ، ما يتحير فيه أهل اللفظ ، ويقدمه الشطار والظراف على كل شاعر ويرونها لنظم غيره .

ويعرض الباقلانى للموازنة بين قول ابن الضحاك :

كأنه ـ نصب كأسه ـ قمر × يكرع فى بعض أنجم الفلك

وقول أبى نواس :

إذا عب فيها شارب القوم خلته
يقبل فى داج من الليل كوكبا

---

(١) ص ٢٤١ المرجع نفسه .
(٢) ٢٤١ المرجع نفسه .
(٣) ٢٤٠ المرجع نفسه .
(٤) ٢٤٠ المرجع نفسه .

فيذهب إلى أن الخليع ـ الحسين بن الضحاك ـ أبدع فى المعنى ، فأما العبارات فانها ليست على ما ظنه . لأن لفظ (يكرع) عنده ليس بصحيح ، وفيه ثقل بين « وتفاوت » وفيه إحالة لأن القمر لا يصح تصور أن يكرع فى نجم .

وأما قول أبى نواس « إذا عب فيها » فكلمة قد قصد فيها المتانه ، وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشراب ، ولو فعل ذلك كان أملح ، وقوله « شارب القوم » فيه ضرب من التكلف الذى لابد له منه ، أو من مثله ، لاقامة الوزن ، ثم قوله « خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا » تشبيه بحالة واحدة من أحواله وهى أن يشرب حيث لا ضوء هناك ، وإنما تناوله ليلاً ، فليس بتشبيه مستوفى ، وقد قال ابن الرومى ما هو أوقع منه وأملح وأبدع :

أبصرته والكأس بين فم
منه وبين أنامل خمس

وكأنها وكأن شاربها
قمر يقبل عارض الشمس (١)

ويعرض الباقلانى لقصيدة البحترى المشهورة « أهلا بذالكم الخيال المقبل » ، وهى التى كان يقول ابن العميد فيها :

إنها أجود شعر البحترى ، وكان البحترى يسمى بعض أبياتها : عروق الذهب . . فينقدها الباقلانى نقداً شديداً (٢) .

---

(١) ٢٤٢ و ٢٤٣ إعجاز القرآن .
(٢) ٢٤٢ - ٢٦٤ المرجع نفسه .

ويفضل البحترى على أبى تمام وابن الرومى بديباجة شعره ، وتقدمه بحسن عبارته ، وسلاسة كلامه ، وعذوبة ألفاظه ، وقلة تعقد قوله (١) .

ويستجيد من شعر ابن المعتز الفخر (٢) ويرفع من منزلته فيه حتى ليقول : فانظر فى القصيدة كلها ، ثم فى جميع شعره ، تعلم أنه ملك الشعر ، وأنه يليق به من الفخر خاصة ، ثم مما يتبعه مما يتعاطاه ، ما لا يليق بغيره . بل ينفر عن سواه .

ويميز شعر المتنبى فى الشجاعة وأبى فراس فى الفخر ، وأبى نواس فى الشطارة (٣) ، وذى الرمة فى وصف المهامه والبوادى (٤) .

— ٤ —

وكتاب « إعجاز القرآن » يحتوى على الكثير من آراء النقاد فى الحكم على الشعر والشعراء .

والحديث فى الاعجاز يستتبع الحديث فى النقد فى أغلب الأمر ، إذ يضطر المتحدث إلى عرض النماذج من البلاغة المعجزة فى القرآن الكريم وبلاغة الشعراء فى الشعر العربى ، وكثيراً ما تضطره المناسبة إلى الموازنة بين شعر وشعر وشاعر وشاعر ، إلى غير ذلك من الأحكام النقدية ، التى يسوقه الحديث إليها ، والكلام فيها .

والكتاب يعد من أصول كتب الأدب والنقد ، وما أروع حديثه

---

(١) ٢٦٥ - ٢٦٦ المرجع نفسه .
(٢) ٢٩١ ، ٢٩٢ المرجع نفسه .
(٣) ٢٩٢ المرجع نفسه .
(٤) ٢٩١ - ٢٩٣ المرجع .

عن الفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الشعر . والباقلانى دقيق الفطنة بالشعر ، والبصر ببلاغته .

والباقلانى ينقد أسلوب الجاحظ ، ويراه خلوا من الروعة ، ويكاد يفضل ابن العميد عليه ، وهو فى ذلك يجانب الصواب ، ويبتعد عن المحجة ، ويقع فى الخطأ .

وقد حكم الباقلانى فى كتابه فى كثير من القضايا الأدبية والبيانية ، كما حكم فى قضايا نقدية كبيرة .

وآراؤه فى البلاغة ، وفى البديع ، وفى السجع ، وفى الأسلوب .. كلها تنبع من ذوق مرهف ، دقيق الحس ببلاغة الكلام ، وبما يحتوى عليه من خصائص فى الصياغة والسبك .

ونقول أخيراً : إن هذا الكتاب ثمرة ذوق رفيع ، وموهبة عالية ، وثقافة واسعة ، واطلاع عميق .

أبو هلال العسكرى

وكتابه الصناعتين

— ١ —

كتاب الصناعتين من أشهر مؤلفات أبى هلال، وأكثرها ذيوعا وشهرة. وهو من أهم مصادر كتب الأدب والنقد والبلاغة، ويجمع العلماء والنقاد على فضله، وعظيم أثره على الثقافة الأدبية، منذ ألف الكتاب حتى اليوم.

وقد طبع الكتاب عدة طبعات، فى الجوائب، وفى القاهرة، حيث نشرته مكتبة صبيح، وأخيراً مكتبة دار إحياء الكتب العربية..

ويقول أبو هلال فى صدر الكتاب: إن أحق العلوم بالتعلم علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذى به يعرف إعجاز كتاب الله.

ثم يسترسل فى بيان أهمية علم البلاغة إلى أن يقول: وقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة، وأشهرها «البيان والتبيين» لأبى عثمان الجاحظ، فهو كثير الفوائد لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والأخبار الرائعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء إلا أن الابانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة، مبثوثة فى تضاعيفه، فرأيت أن أعمل كتابى هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه فى صنعة الكلام، نثره ونظمه، وأجعله عشرة أبواب، مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا.

فالباب الأول: فى الإبانة عن موضوع البلاغة.

والثانى: فى تمييز الكلام جيده من رديئه.

والثالث : فى معرفة صناعة الكلام .

والرابع : فى حسن السبك .

والخامس : فى الايجاز والأطناب .

والسادس : فى جودة الأخذ ورداءته .

والسابع : فى التشبيه .

والثامن : فى السجع والازدواج .

والتاسع : فى البديع

والعاشر : فى مقاطع الكلام ومباديه .

والبلاغة عند أبى هلال : هى كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع ، فتمكنه فى نفسه ، لتمكنه فى نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن .

ويؤكد أبو هلال فى الكتاب أن مذهبه فى البلاغة والأدب مذهب الأدباء من شعراء وكتاب ، لا مذهب المتكلمين — ص ١١ الصناعتين — طبعة صبيح —

ومما ذكره أبو هلال يتضح لنا أن كتاب الصناعتين يبحث عن موازين النقد والبلاغة ، التى يحكمها النقاد والبلاغيون فى الأسلوب . ليمكنهم الحكم على كلام البلغاء ، وأساليب الأدباء ، بالجودة أو الرداءة .

— ٢ —

وقد نشأ أبو هلال فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، وهو عصر نضج الثقافة الأدبية فى الشرق الإسلامى .

وتتلمذ على كثير من رجال الفكر والأدب فى عصره ، وكان أظهر أساتذته خاله أبو أحمد العسكرى (المتوفى عام ٣٨٢ هـ) ، وينقل عنه كثيراً من شتى الروايات فى الأدب والبيان .

واتصل أبو هلال برجال الفكر والأدب فى عصره ، وفى مقدمة من أتصل بهم : الصاحب بن عباد الوزير (المتوفى عام ٣٨٥ هـ) وبتأثيره سام رأى أبى هلال فى المتنبى ، حيث عاب شعره وذمه فى مواضع كثيرة من الكتاب .

وأبو هلال كثير الاشادة بالصاحب بن عباد فى كتابه ، وهو يستجيد أدبه وله قصائد فى مدحه ، وكان مجلس الصاحب يجمع أدباء العصر من شعراء وكتاب ، ولياليه كانت ندوات أدبية رائعة ازدان بها العصر البويهى .

وكان من معاصريه القاضى الجرجانى صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » . . وقد اتصل أبو هلال بالقاضى الجرجانى فى مجلس الصاحب بن عباد . . وعاشا أصدقاء ، ومع ذلك اختلف موقفهما الأدبى اختلافا شديداً .

أبو هلال ساخط على المتنبى ، ناقد له ، مبغض لشعره .. والقاضى الجرجانى يجعل كتابه « الوساطة » حكومة أدبية حول شعر المتنبى ، وروح كتابه الدفاع عن المتنبى ، والانتصار له ..

كتاب الصناعتين ألف عام ٣٩٤ هـ كما ذكر أبو هلال فى كتابه ـ ص٤٤٥ طبعة صبيح ـ أما « الوساطة » فأرجح أن تكون قد ألفت بعد وفاة الصاحب الوزير أى بعد عام ٣٨٥ هـ ، كما أرجح أن تكون وفاة القاضى الجرجانى عام ٣٩٢ هـ ، لا عام ٣٦٦ هـ الذى يذكره كثير من المؤرخين له .

أبو هلال متأثراً بقدامة وابن العميد والصاحب تأثراً شديداً ، ومذهبه الأدبى هو مذهبهم ، من حيث العناية بالمعنى .. والقاضى الجرجانى يرجع إلى الأسلوب العربى البليغ ، ويحكم عمود الشعر ، ويختار البلاغة القديمة أساساً للحكم على الشعراء ويجعلها ميزانا للكلام .

ولكن المنافسة بين الرجلين كان لها أثرها عليهما ، حتى إن أبا هلال لم يشر فى كتابه « الصناعتين » أية إشارة إلى كتاب الوساطة مع أهميته فى البحث حول النقد والبلاغة اللذين هما محور كتاب « الصناعتين » . بل إن أبا هلال سخر فى كتابه بالوساطة وبمؤلفها على سبيل الرمز والتلميح ، لا النص والتصريح ، مع أن أبا هلال استجاد كثيراً من شعر القاضى الجرجانى ونوه به فى كتابه « ديوان المعانى » .

ومع ذلك فنحن نجد فى الصناعتين هذا النص الذى يجب أن نقف عنده يقول أبو هلال وهو يعدد أنواع البديع :

هذه أنواع البديع ، التى ادعى من لا رواية له ، ولا دراية عنده ، أن المحدثين ابتكروها ، وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين .

فهذه النظرية التى يشير إليها أبو هلال هى نظرية القاضى الجرجانى فى كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » .

فالجرجانى هو الذى نوه فى وساطته بالمحدثين ، وأشاد بهم ، وذهب إلى أن وقوعهم فى الخطأ لا يحط من منزلتهم .. وهو الذى يرى أن المحدثين فطنوا لجمال ألوان البديع ، وهم اللذين مهدوا سبيلها .

ولكن أبا هلال تحامل فى كلمته هذه على القاضى الجرجانى بعد وفاته تحاملا شديداً ، فاسرف فى رمية إياه بانه لا رواية له ولا دراية عنده ، وفهم من إعجاب الجرجانى بالمحدثين أن ذلك تعصب لهم ، كما فهم من كلام الجرجانى عن البديع وفضل المحدثين فى الفطنة إليه أنه يرى أن القدماء لم يعرفوه .

وأبو هلال إذن كان يتتبع حياة القاضى الجرجانى وإنتاجه ، وينظر

إليه بعين المنافسة ، قد قرأ « الوساطة » ، ولكنه لم يعول عليها ، ولم يتخذها أحد المصادر فى كتابه « الصناعتين » ، ولذلك لا نجد لها ظلا ولا ذكراً فى الكتاب ، حتى البحوث المشتركة فى الكتابين نجد فوارق كبيرة فى طريقة تناولها ، فميزان النقد عند أبى هلال مخالف له عند الجرجانى ، وآراء أبى هلال فى الاستعارة والتشبيه ليس فيها أى أثر للوساطة ، وكذلك بحوثه فى السرقات الأدبية ليس فيها أثر خاص لآراء الجرجانى .

— ٣ —

إن كتاب « الصناعتين » يدل على عقلية صاحبه الأدبية الكبيرة ، وعلى علمه الغزير وفقهه الواسع باللغة والأدب وهو كتاب تطبيقى على قواعد البيان ، يمتاز بكثرة شواهده مع الحرص على جودة الاختيار ، وسلامة الطبع ، مما يرشد إلى لون من ثقافة أبى هلال ، حتى لقد حار الكثير من الأدباء فى كتابه : هل هو كتاب أدب أو كتاب نقد ، أو كتاب بلاغة وبيان .

إن الآراء التى جمعت فى الكتاب حول النقد هى خلاصة ثقافات علماء الأدب والشعر حتى وسط القرن الرابع ومادة الكتاب مادة غزيرة ينتفع بها كل باحث ودارس للادب والنقد والبيان .

وقد نحا فيه أبو هلال منحى جديداً ، فتكلم على البلاغة ، ورسم المذاهب الأدبية والبيانية فى عصره ، مما تأثر فيه بالجاحظ ومذهبه الأدبى فى العناية بالأسلوب ونظمه وبلاغته عناية شديدة .

على أن علماء الأدب القرن الرابع كانوا يكتبون فى مطلع هذا القرن فى الأدب والنقد والبيان ، كما فعل قدامة فى نقد الشعر ، .. والصولى فى كتاب « أخبار أبى تمام » ، ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان ، كما فعل الآمدى فى

« الموازنة » ، والجرجانى فى كتاب « الوساطة » ثم أفادوا من ذلك كله فى بحوث البيان وأصول البلاغة ، فظهر أول كتاب كامل فى موضوع البيان ، ووافٍ فى بحوث البلاغة ، مع الايجاز وقرب الفكرة ووضوح الرؤية النقدية وهو كتاب « الصناعتين » .

- ٤ -

ومصادر « الصناعتين » كثيرة ، وفى مقدمتها كتب الجاحظ : « البيان والتبيين » ، والحيوان ، وكتاب « البديع » لابن المعتز ، ونقد الشعر لقدامة ابن جعفر . . إلى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، وكتب أخرى كثيرة .

ومن مصادر أبى هلال نعرف أن ما وصل إليه البيان حتى عصر أبى هلال هو بحوث موجزة ، تتصل بمشكلات البيان اتصالا وثيقا.. وكذلك كان النقد فى هذا العصر ..

والبديع عند أبى هلال ألوان طريفة مستحسنة تزيد الكلام حسنا ، وقد ابتكر أبو هلال منها ثمانية عشر لونا ذكرها فى كتابه ، إلى الألوان الأخرى التى ذكرها النقاد كقدامة ، ومن قبله .

- ٥ -

وغلو أبى هلال فى المتنبى معروف ومما قاله فيه فى كتابه « الصناعتين » :

« ولا أعرف أحداً كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث ، إلا المتنبى ، فانه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ، ما عدم شيئاً منها ، حتى تخطى إلى هذا النوع فقال :

ويسعدنى فى غمرة بعد غمرة
سبوح لهـا منهـا عليها شواهد

فأتى من الاستكراه بما لا يطاق غرابة ـ ص ١٥٣ الصناعتين ـ صبيح .

وهكذا يذكر أبو هلال أبا الطيب فى كتابه ، ذكر اسمه فى أربعة مواضع فقط منها هذا الموضع ، وذكر شعراً للمتنبى عابه وازدى عليه فى خمسة مواضع دون أن يصرح باسمه ، وكل ذلك كان من إلهام الصاحب بن عباد لأبى هلال ، رحمهم الله .

وبعد فكتاب الصناعتين ، يمثل تيارا فى الأدب فى عصر أبى هلال ، ويمثل اختلاف الكتاب حول الأسلوب ، وبلاغته ، وهل ترجع البلاغة إلى اللفظ أم إلى المعنى ، وأيهما أولى بالعناية ، ويمثل كذلك الاختلاف حول قضايا الأدب الكبرى وآراء النقاد فى تلك القضايا .. إلى غير ذلك كله من مشكلات الأدب والنقد والبيان . ومن ثم فالحرص على قراءة الكتاب ، والعناية بفهمه وتدبره ، ضروريان لمن يريد فقها فى النقد ، وفهما لأصول الأدب ، ولمن يريد أن ينمى ملكة الأدب فى نفسه وبحسبنا أنه من أمهات كتب الأدب ومصادره ، وأنه ركن ركين للثقافة الأدبية اللازمة لأجيال الشباب ومن هم وراء الشباب .

القسم الثاني

الفكر الأدبي في القرن الرابع

تمهيـــد

يمثل الفكر الأدبي في القرن الرابع تيارات صاخبة قامت حول شاعرية أعلام شعراء هذا العصر ، ومدارس شعرية قوية قامت في مصر والشام والعراق والرى كما قامت في القيروان فاس وقرطبة واشبيلية .

في الشام مدرسة شعرية ازدهرت برعاية سيف الدولة الحمداني ، الذى كان صاحب همة عالية في تشجيع الأدب والشعر والثقافة ، ورغبة قوية في تجديد آداب العربية وعلومها وثقافاتها ، ومع قصر مدة حكمه ، وأن أيامه كلها مضت في حروب متصلة بينه وبين الروم الذين كانوا يشنون الحروب كلما سنحت لهم الفرصة على الثغور الاسلامية ، ومن بينها على الخصوص ثغور الشام ومع أن موارد دولته المالية كانت كلها أو جلها موجهة للدفاع عن الإسلام ولنفقات الحروب الطاحنة التي خاضها إلا أن عهده ازدان بنهضة أدبية رفيعة كادت تعيد مجد الأدب والشعر أيام هارون الرشيد ، وابنه المأمون ، فجمع بساطه كوكبه من أعلام الأدباء والشعراء من بينهم المتنبي ، الذى عاش في ظلال سيف الدولة تسع سنين ، وتصدر سدة الشعر في هذا القرن وكذلك كان من بينهم أبو فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة ، وصاحب القصائد الروميات المشهورة ، وكذلك السرى الرفاء أشعر الوصافين في عصره ، وأبو العباس الناشي وأبو الفرج الببغاء ، وابن نباتة السعدى ، والشاعران الخالديان والوأواء الدمشقي ، وغيرهم . .

وممن اتصل بسيف الدولة : أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب «الأغاني» وقد أهدى إليه الكتاب ، فوصله بألف دينار ، وكذلك المعلم الثاني أبو نصر الفارابي الفيلسوف ، وابن خالويه اللغوى .

ولقد كان أبو الطيب عاصفة هبت على الشعر في القرن الرابع الهجرى ،

وكان مجدوداً فى شعره ، لم يسعد شاعر بما سعد به من عناية النقاد واهتمام الدارسين ، واحتفاء المتذوقين ، ومن عكوف أئمة الأدب والشعر والنقد على شعره نقداً وشرحاً ودراسة . وظهر المتنبى فى عصر كان فيه ومن أعلامه : أبو فراس والشريف الرضى ومهيار ، والسرى الرفاء ، والخالديان ، والوأواء الدمشقى ، وابن هانى ، وتميم بن المعز وأضرابهم .

وكان المتنبى يحظى بنبوغ شعرى نادر ، وبعبقرية موهوبة عزت علىّ سواه ، فله الملكة القادرة ، والموهبة النادرة والأصالة الشعرية القاهرة ، وله الموسيقى الحلوة الآسرة ، التى لا يجاريه فيها أحد .

وكانت إجادته للمديح ، ولوصف المعارك الحربية ، ولشتى المشاعر النفسية الذاتية ، وللفخر والحكمة والهجاء ، وللعتاب والشكوى والأمل والحنين ، شيئاً فوق طاقة معاصريه من الشعراء : وكانت الرمزية تغلف معانيه وأسلوبه بالصور الشعرية الضبابية الأخاذة الفاتنة .

كانت آماله أكبر من قدرته ، وكان اعتزازه بنفسه وبشخصيته أكبر من كل اعتزاز . وكان فى عصره كأنما ألقم كل الشعراء أحجاراً فلا يستطيعون أن يقولوا ، ولا أن يبدعوا ، وكان حسد معاصريه له شديداً ، يقول فى ذلك :

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرنى
فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى
إن النفيس غريب حيثما كانا

محسد الفضل مكذوب على أثرى
ألقى الكمىّ . ويلقانى إذا حانا

لا أشرئب إلى ما لم يفت طمعـــا
ولا أبيت على مافات حسرانا
ولا أسر بمـا غـــيرى الحميد به
ولو حملت إلى الدهـــر ملآنا

وما أروع ماقال المتنبى فى شعره :

وعنـــدى لك الشرد السائرا
ن لايختصصن من الأرض دارا
قـــواف إذا سرن عن مقولى
وثبن الجـــال وخضن البحارا
ولى فيـــك مالم يقـــل قائل
وما لم يسر قمـــر حيث سارا

ويقول فيه :

إن هـــذا الشعر فى الشعر ملك
سار فهـــو الشمس والدنيا فلك

ويقول فيه :

وما الدهـــر إلا من رواة قصائدى
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فســـار به من لا يسير مشمرا
وغـــنى به من لايغنى مغـــردا
أجزنى إذا أنشدت شعرا فإنما
بشعرى أتاك المادحـــون مرددا

ودع كل صوت غير صوتي فإنني
أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

ويحسب المتنبي قصيدته في كافور :

عيد بأية حـــال عدت ياعيد
بما مضى أم لأمر فيك تجـــديد
أما الأحبـــة فالبيـــداء دونهم
فليت لي بيدا دونها بيـــد

إن موسيقى المتنبي في شعره لا مثيل لها في موسيقى الشعر العربي .. وهذه الموسيقى تجعل شعره أقرب إلى الغناء ، إنه كان يحمل مواريث الشعر العربي في كل العصور حتى عصره ، ويحمل ملكة وموهبة وعبقرية عزت نظائرها على الشعراء وغيرهم .

ولقد نهض الشعر والأدب في عهد سيف الدولة ، وبلغ بهما حديه مكانة عالية ، وتوفى سيف الدولة عام ٣٥٦ هـ عن ثلاث وخمسين سنة ، وذلك بعد وفاة المتنبي بعامين .

وفي الشام كذلك عاش أبو العلاء المعري في القرن الرابع شطراً من حياته ، واحتل مكانه الخالد بين شعراء العربية الكبار ، بعد أبي الطيب المتنبي .

وفي بغداد عاش الشريف الرضي ، وغيره من كبار الشعراء يملأون الدنيا شعراً .

وفي العراق والري عاش ابن العميد الوزير (٣٠٠ — ٣٦٠ هـ) وبرع في ظلال دولة بني بويه في الأدب والبلاغة ، وذاع أمره في النثر ، في

الكتابة ، واتبع الناس طريقته ، وانتشر أسلوبه فى كل مكان وكان مذهبه فى الكتابة يعرف بمذهب ابن العميد ، وله المنزلة العالية فى كل مكان ، حتى لقد قيل فيه : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد .

وفى دولة البويهيين نشأ البديع الهمذانى ، وأبو بكر الخوارزمى ، والصاحب بن عباد ، وأبو حيان التوحيدى ، والثعالبى صاحب « يتيمة الدهر » وأبو دلف وابن مسكويه المتوفى عام (٢١ ه) صاحب كتاب « تجارب الأمم » وسواهم .

وفى القاهرة كان تميم بن المعز شاعر القرن الرابع فى مصر يؤكد ازدهار دولة الشعر والأدب فى مصر فى عصر الفاطميين ... وفى القرن الرابع فى القاهرة وضع أساس كتاب « ألف ليلة وليلة » ، وهو أشهر كتاب فى القصة العربية القديمة وقد تحدث المسعودى (المتوفى عام ٣٤٦ ه) ، وابن النديم فى كتابه « الفهرست » عن أصول هذا الكتاب الفارسية .

وفى قرطبة فى القرن الرابع عاش أبو على القالى صاحب كتاب « الأمالى » المشهور .. وعاش فى اشبيلية فترة من الزمان ابن هانىء متنبى المغرب ثم هاجر إلى « المهدية » وأقام فيها . ولما توفى عام ٣٦٢ ه حزن عليه المعز الفاطمى حزناً شديداً . وقال : « كنا نريد أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

* * *

إن مدارس الأدب والشعر فى القرن الرابع كانت قوية خصبة مؤثرة وكانت النهضة الأدبية والشعرية مزدهرة فى أنحاء العالم العربى الاسلامى ، وكان أعلام الأدباء والشعراء يملأون الساحة الأدبية فى كل مكان من مشرق العالم الاسلامى إلى مغربه .

وكان الفكر الأدبى فى القرن الرابع يتمثل فى قيام مدارس فى الأدب والشعر فى كل مكان من العالم العربى ، ولكل مدرسة مذهبها واتجاهها

وأعلامها، وتمثل كذلك فى نهضة أدبية وشعرية عالية، كان لها أثرها فى حياة الأدب والشعر واللغة العربية، وتمثل كذلك فى تأثير هذا الفكر على الحضارة الإسلامية العربية فى هذا القرن، وفى ظهور أعلام كبار كان لهم شأنهم فى كل مكان من العالم الاسلامى والعربى.

* * *

وهناك قضيتان تظهران عند أدباء القرنين الثالث والرابع، هما قضية اللفظ والمعنى، وقضية الطبع والصنعة.

فالقضية الأولى: تبرز دائماً فى كتابات نقاد القرن الثالث والرابع، نجدها عند الجاحظ وابن قتيبة، كما نجدها عند ابن طباطبا وقدامة والآمدى والجرجانى وأبى هلال وسواهم. فالجاحظ، لا يهمل المعنى، وإنما تجب عنده رعايته، وأن يأتى اللفظ على قدره، فالمعنى إذن هو الأصل، واللفظ تبع له أوظل له، يقول الجاحظ (١): «إن المعانى إذا كسيت ألفاظاً كريمة، واكتسبت أوصافاً رفيعة، تحولت فى العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت وزخرفت، فقد صارت الألفاظ فى معانى المعارض، وصارت المعانى فى معنى الجوارى».

ويقول أيضاً: إذا اكتسى المعنى لفظاً حسناً، وأعاره البليغ مخرجاً سهلا، ومنحه المتكلم دلا متعشقاً، صار فى قلبك أحلى، وبصدرك أملا.

ويقول إذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً من الاستكراه، ومنزها عن الاختلال، ومصونا عن التكلف، صنع فى القلوب ما يصنع الغيث فى التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة على هذه

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٨٧ وما بعدها.

الشريطة . ونفذت من قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، مالا يمتنع معه من تعظيمها به صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة .

ويقول : كذلك المعانى مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية والألفاظ مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة ، وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة، وعن حقائقها فى التفسير، وعن أجناسها ، وأقدارها، وخاصها ، وعامها ، وعن طبقتها فى السار والضار ، وعما يكون لغواً بهرجاً وساقطا مطرحا(١).

وهكذا نجد الجاحظ يحتفل باللفظ والمعنى، لا باللفظ وحده . وإن كان احتفاله باللفظ أبين وأظهر ، وقد ذهب عبد القاهر الجرجانى إلى أنه يهتم باللفظ ويهمل المعنى، وذلك مالا يتضح من كلام الجاحظ بحال من الأحوال وإذا قال « الجاحظ » : « المعانى مطروحة فى الطريق » فانما يريد أن المعانى الجيدة تتأتى للخاصة ، وتتأتى للعامة ، وإنما تظهر البلاغة بصناعة العبارة عن هذه المعانى، وفى هذه الصناعة يتفاضل المنشئون والبلغاء .

وابن قتيبة فى كتابه (الشعر والشعراء) يطرح قضية اللفظ والمعنى ، ويجعل الشعر أقسام أربعة :

١ – ضرب حسن لفظه ، وجاد معناه . ومثل له بأمثلة ، منها : قول « أوس بن حجر » :

أيتها النفس : أجملى جزعا
إن الذى تحذرين قد وقعا

---

(١) المرجع نفسه ١/٢٨٧ وما بعدها .

وقول «أبي ذؤيب الهذلي»:

والنفس راغبة إذا رغبتها　　وإذا ترد إلى قليل تقنع

٢ — وضرب حسن لفظه وحلا، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ومثل له بالأبيات المنسوبة إلى «كثير عزة»:

ولما قضينا من منى كل حاجة　　ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا　　ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا　　وسالت بأعناق المطى الأباطح

فهذه الأبيات — في رأيه — ألفاظها أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع: وإن نظرت إلى ماتحتها من المعنى وجدته لايخرج عن هذه العبارة: «لما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء. ومضى الناس لا ينظر غاديهم رائحهم، بدأنا في الحديث، وسارت المطى في الأبطح»... وقد رد ابن جنى في الخصائص، وعبد القاهر في «أسرار البلاغة» على ابن قتيبة في ذلك وشرحا الصورة الشعرية الرائعة التي تحملها هذه الأبيات:

٣ — وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه. ومثل له بقول «لبيد ابن ربيعة»:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه　　والمرء يصلحه الجليس الصالح

فالبيت في رأيه جيد المعنى والسبك، قليل الماء والرونق.

٤ — وضرب تأخر معناه ولفظه معاً، ومثل له بأمثلة منها قول «الخليل ابن أحمد»:

إن الخليط تصـــدع　　فطر بدائك، أو قـــع

لولا جوار حسان ، حور المدامع . أربع
أم البنين ، وأسما ء ، والرباب ، وبوزع
لقلت للراحل : ارحل إذا بدا لك ، أو دع

فهذا فى رأى ابن قتيبة شعر بين التكلف، ردىء الصنعة ، كأشعار العلماء التى لا تتأتى عن إسماح وسهولة .

وإن كان « ابن قتيبة » يذكر أن ليس كل الشعر يحفظ من أجل جودة اللفظ والمعنى ، ولكنه قد يحفظ لأسباب أخر ، منها :

— الاصابة فى التشبيه ، كما قيل فى مغن ردىء الصوت :

كأن أبا الشموس إذا تغنى يحاكى عاطسا فى عين شمس
يلوك بلحيه طورا ، وطورا كأن بلحيه ضربان ضرس

جمال الروى ، كقول القائل يذكر حاله مع محبوبته :

ولو أرسلت من حبك مبهو تاً من الصين
لوافيتك قبل الصبح أو حين تصلين

والمبهوت الطير الذى يكلف الطيران قبل قدرته عليه .

أن قائله لم يقل غيره ، أو لأن شعره قليل عزيز ، كقول عبد الله بن أبى سلول ، المنافق :

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل تذل ، ويعلوك الذين تصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه
وإن قص يوما ريشه فهو واقع

— غرابة المعنى ، كقول أحدهم :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون له فى الأرض آثار
— منزلة قائله ، كقول « الرشيد » ،

النفس تطمع، والأسباب عاجزة والنفس تهلك بين اليأس والطمع (١)

ونقاد القرن الرابع جميعاً يهتمون بهذه القضية ، ويتحدثون عنها ، ويفيض كل منهم فى ترجيح جانب من جوانبها ، من ابن طباطبا إلى قدامة والآمدى والجرجانى وأبى هلال وغيرهم .

والقضية الثانية هى قضية الطبع والصنعة :

ويعرف « ابن قتيبة » المطبوع من الشعراء بأنه : « من سمح بالشعر ، واقتدر على القوافى ، وأراك فى صدر بيته عجزه ، وفى فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ، ووشى الغريزة ، وإذا امتحن لم يتلعثم ، ولم يتزحزح (٢) » .

وهكذا كل من يرجع إلى السجية والطبيعة ، حيث لا يكون تكلف أو تصنع أو افتعال ، وإنما يأتى الشعر سمحاً سهلا ، يترتب آخره على أوله ، ولا يتوقف فيه قائله ، لانقطاع نفسه ، أو نضوب معينه .

ويرى « ابن قتيبة » أن الشعراء مختلفون فى الطبع ، فمنهم من يسهل عليه المديح ويعسر على الهجاء ، ومنهم من يتيسر له الرثاء ويتعذر عليه الغزل ، ويذكر مثالا مما قيل للعجاج : إنك لا تحسن الهجاء ، فقال : إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نكون ظالمين وأحسابا تمنعنا من أن نكون مظلومين ،

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٩٠ وما بعدها طبعة دار المعارف ١٩٦٦م .

(٢) « مراجعات فى النقد » د. محمد السعدى فرهود - طبعة القاهرة ١٩٧٤

وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم . ويخالف « ابن قتيبة » ذلك إذ يقول : « وليس هذا كما ذكر العجاج ولا المثل الذى ضربه للهجا والمديح بشكل ، لأن المديح بناء والهجاء بناء وليس كل بان بضرب بانيا بغيره . ونحن نجد هذا بعينه فى أشعارهم كثيراً ، فهذا ذو الرمة ، أحسن الناس تشبيها ، وأجودهم تشبيبا ، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع ، فقالوا : فى شعره أبعار غزلان ونقط عروس . وكان الفرزدق زير نساء وصاحب غزل ، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب وكان جرير عفيفاً عازفا عن النساء ، وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيباً ، وكان الفرزدق يقول : ما أحوجه — مع عفته — إلى صلابة شعرى ، وما أحوجنى إلى رقة شعره ، لما ترون » . (١)

ويرى نقاد القرن الرابع أن الأقدمين لم يختصوا وحدهم بالطبع إذ لم يختص الله بصفاء الطبع قوما دون قوم ولا عصراً دون عصر والأصالة والطبع موجودان فى كل عصر .

أما الشعراء المولدون فإنما يستحسن منهم لطيف ما يوردونه من الأشعار وبديع ما يقربونه من المعانى ، وبليغ ما ينظمونه من الألفاظ ، ومضحك ما يسوقونه من النوادر ، وأنيق ما ينسجونه من الوشى ، دون حقائق ما يشتمل عليه من المدح والهجاء وسائر الفنون القولية ، فأشعار المولدين « متكلفة ، غير صادرة عن طبع صحيح ، كأشعار العرب التى سبيلهم فى منظومها سبيلهم فى منثور كلامهم الذى لا مشقة عليهم فيه .

---

(١) الشعر والشعراء : ١/٩٠ وما بعدها طبعة دار المعارف ١٩٦٦ م .

ويرى نقاد القرن الرابع أن الأقدمين من الشعراء سبقوا بالطبع وفازوا به. فيقول « ابن طباطبا » فى أشعار المولدين (١) : فيها عجائب أفادها المولدون عمن تقدمهم ، ولطفوا فى تناول أصولها منهم ، ولكن المحنة فى هذه الأشعار أن الأقدمين سبقوا إلى كل معنى بديع ، ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساحرة ، فإن أتى المولدون بما يقصر عن معانى الأقدمين ولا يربى عليها مل المولدون واطرحوا ، فلقد كان من قبلنا فى الجاهلية وفى صدر الإسلام يؤسسون أشعارهم فى المعانى التى ركبوها على القصد للصدق فيها : مديحا ، وهجاء ، وافتخاراً ، ووصفاً ، وترغيباً ، وترهيباً .

وكان أفلاطون يرى الشعر الهاما وطبعا ، وخالفه « أرسطو » فنادى بأن الشعر صنعة وجهد ومعاناة .

على أن الصنعة لا تستغنى عن الطبع ، وإنما ترجع القدرة فى الصنعة والبراعة فيها إلى الأصالة والصدق ، وهذان من الأمور التى تستند إلى الطبيعة والاستعداد ، وليس فى الامكان تصور صنعة فى الفن لا ترتد إلى حس مرهف وقلب حى وعقل نابض ، إلا أن تكون صنعة باهتة ، وقشور طلاء ، وعرضاً من أعراض الجواهر ، وكل ذلك يزول بعد حين ولا يبقى إلا بمقدار اللذة منه ، وهى لذة موقوتة ، لا يقدر لها أن تعيش فى أعماق الزمان .. ويوضح « الفارابى » — فى كتاب الشعر — صلة ما بين الطبع والصنعة فى تقسيمه الشعراء إلى ثلاث فئات :

١ — ذوو الطبيعة المتهيئة لقول الشعر ، والمعرفة بطرائق صناعته على ما ينبغى ، فهم يجيدون فيما يتأتى لهم من تشبيه ، وتمثيل ، وتخييلات ، وفيما يتاح لهم من أنواع الشعر .

---

(١) عيار الشعر ص ٨ وما بعدها ـ التجارية ـ ١٩٥٦ .

٢ — الذين يقتصرون على جودة طباعهم وتأتيهم لما هم ميسرون له ، ولا يكونون على معرفة بصناعة الشعر ، وهؤلاء لا تتم لهم آلة الشعر ولا يتفوقون فيه .

٣ — الذين يقلدون هاتين الفئتين فيحفظون عنهما مقالهما ، ويحتذون في التشبيه والتمثيل والتخييل حذوهم ، من غير أن تكون لهم طباع شعرية ولا وقوف على قوانين الصناعة ، وهؤلاء أكثر زللا وخطأ .

وقد شرح المرزوقي ، — في تقديمه لشرح ديوان الحماسة — الكلام عن طرائق العرب ومذاهبهم في الصنعة ، حين أشار إلى أسس اختيار الأشعار ، فعد هذه للطرائق والمذاهب ثلاثة :

أولها — طريقة التكافؤ بين اللفظ والمعنى ، دون انحياز إلى أيهما ، فتكون « الصنعة قد اكتمل لها استواء اللفظ بجماله ، وحسن تأليفه ، وخلوه مما يكدر ويشوه من العي والخطأ في اللغة والإعراب ، وابتعد عن جنف التأليف ، حتى جاء مستساغا سلسا ، فيقع بتلك الصفات موقعه الحسن في السمع . فيلتذ به فإذا تم له صواب المعنى حسن تقبل العقل له ، وقبله الفهم . وبذلك يكون قد تم له جانب البلاغة .

وثانيها — طريقة أصحاب البديع ، و « من لم يرض بالوقوف عند هذا الحد ، فتجاوزه » والتزم من الزيادة عليه : تتميم المقطع ، وتلطيف المطلع ، وعطف الأواخر على الأوائل ، ودلالة الوارد على الصادر ، وتناسب الفصول والوصول ، وتعادل الأقسام والأوزان ، والكشف عن قناع المعنى بلفظ هو في الاختيار أولى ، حتى يطابق المعنى اللفظ ، ويسابق فيه الفهم السمع » . ومن أصحاب البديع من لم تقنعه هذه التكاليف في البلاغة ، فطلب الصنعة في الترصيع والتسجيع ، واهتم بمعارض المعاني — أي الألفاظ وزينتها وكسوتها . فهو يحلوها ويبرقشها ، كائناً ما كان محتواها .

وثالثها - طريقة أصحاب المعانى ، وهم أبو تمـام ومن تأثره ، طلبوا المعانى المعجبة من خواص أماكنها ، وانتزعوها جزلة ، عذبة ، حكيمة ، طريقة أو رائقة ، بارعة ، فاضلة ، كاملة ، لطيفة ، شريفة ، زاهرة ، فاخرة ، وجعلوا رسومها أن تـكون قريبة التشبيه ، لائقة الاستعارة ، صادقة الأوصاف ، لائحة الأوضاع ، خلابة فى الاستعطاف ، عطافة لدى الاستنار ، مستوفية لحظوظها عند الاستفهام ، من أبواب : التحريض ، والتعريض ، والإطناب ، والتقصير ، والجد والهزل ، والخشونة ، والليان ، والإباء ، والسماح ، من غير تفاوت يظهر فى خلال اطباقها ، ولا قصور ينبع من أثناء أعماقها ، تعطيك مرادك إن رفقت بها ، وتمنعك جانبها إن عنفت معها ».

أبو الطيب المتنبي شاعر العربية

٣٠٣ - ٣٥٤ هـ : ٩١٦ - ٩٦٥ م

حياة أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي قصة رائعة من قصص البطولة ، ورواية حافلة بألوان الطموح إلى المجد ، والنزوع إلى الرفعة ، وصدى مدو لما كانت تعانيه النفس الكبيرة من آمال ، وما كانت تجيش به الهمة العالية من رغائب .

ولد بالكوفة من أبوين فقيرين ، ثم تنقل بينها وبين بلاد الشام ، يسلم نفسه إلى المكاتب ، ويتردد في القبائل ، ويسرح في البوادي ، حتى إنه قضى زمنا طويلا في بادية السماوة يتلقى عن الأعراب ويشافه أرباب الفصاحة . ولعل هذا هو السر في تمكنه من اللغة وإحاطته بأسرارها ، وهو في هذه البيئات الأدبية يشب على الفصاحة ، ويكرع من حياض البلاغة . ومخايله تنطق بما ينتظره من مجد ، وتبشر بإمامته في دولة البيان .

أقبل في طفولته على الدراسة والعلم يلتهمهما التهاما في مكاتب الكوفة ومساجدها وحلقات العلم فيها ، واختلف إلى مجالس الأدب ومكاتب الوراقين، اختلافه إلى أعراب البادية ، حتى تم له ما أراد من نضج الثقافة واكتمال الشاعرية .

والكوفة بمساجدها ومكاتبها وحلقات العلم فيها ، وبأئمتها في الدين واللغة والأدب والبيان والشعر ، أحفل بيئة في ذلك العصر ، وكأنها جامعة كبيرة تخرج الشباب إلى الحياة مزودين بشتى الثقافات ، فتتلقفهم مصر والشام وبغداد وغيرها من العواصم التي تهيء لهم سبل المجد في قصور الخلفاء والأمراء .. والكوفة بعد ذلك مسرح لصراع عنيف بين شتى الأحزاب

والفرق الإسلامية ، من شيعة ، وخوارج ومعتزلة ومرجئة وغيرها ، وفيها الراية العباسية تظللها حينا ، وتعصف بها ثورات القرامطة ، ودعوات الاسماعيليين أحيانا أخرى ، وفي هذه البيئة واصل أبو الطيب دراسته ، متصلا برجالات الكوفة كأبي الفضل الكوفي وسواه ، معللا نفسه بكبار الآمال ، وعذاب الأماني ، يرددها في قصائد من شعر الشباب تنضح بشعوره وطموحه وأحلامه ، متخذا من سمو حسبه . في نسبه ، مفخراً له في الحياة . . يفتخر بآبائه وأسرته نخره بنفسه وعصاميته ، متطلعا إلى سبل المجد يسلكها بعزيمة وقوة وتضحية .

* * *

وطارده شبح الطموح والمجد حين ضاقت الحال به في وطنه فهاجر منه في سن السادسة عشرة إلى الشام ، وفي صدره فؤاد يدفع آلام الحياة بعجيج الآمال ، وبين جنبيه نفس كبيرة نضجت ثقافتها ، ونبغت شخصيتها ، وتفجرت شاعريتها . فتطلعت إلى مجد أدبي كبير ومستقبل سياسي خطير . تلمس هذا الطموح البعيد في أبياته :

أي محل أرتقي أي عظيم أتقي
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

وتنقل الشاب بين بوادي الشام وحواضرها ، ولكن الحياة لم تمنحه السعادة المرموقة ولا الآمال المرتجاة ، فامتلأت نفسه ثورة ، وصمم على أن ينهج سبيلا جديدة :

ضاق صدري وطاب في طلب الرز ق قيامي وقل عنه قعودي
أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في صعود
عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

فرؤوس الرماح أذهب للغيظ   وأشفى لغل صدر الحقود

وانتهى به المطاف إلى اللاذقية ، فأقام يذيع فيها آراء مسرفة فى السخط على الولاة الذين ملأوا البلاد جوراً ، وفى التبشير بإمارة جديدة يقام فيها على يديه للحق صرح جديد يكون منارة العدالة فى ظلمات الحياة الاجتماعية إذ ذاك .

وسار أبو الطيب بدعوته – التى مزج فيها السياسة بالدين ، على نهج الدعوات التى شاهد القرامطة يقومون بها فى الكوفة – فى طريق التنفيذ ، فخرج الى أرض من إقليم حمص ، ليعلن فيها الثورة بتأييد بعض أنصاره ومريديه ، ولكن يقظة لؤلؤ والى حمص جعلته يشعر بمرامى أبى الطيب فاعتقله ، ولبث فى السجن بضع سنين ، وهكذا قذف به الطموح إلى تضحية ليس بعدها من نهاية ، وإن كان أبو الطيب لا يبالى بأية تضحية يبذلها فى سبيل آماله :

فاطلب العز فى لظى وذر الذ   ل ولو كان فى جنان الخلود

واستشفع الشاعر إلى الوالى بقصائد كثيرة نفى عنه فيها كل تهمة وأخذ يردها إلى وشاية الحاقدين ودعاية الناقمين :

دعوتك عند انقطاع الرجاء   والموت منى كحبل الوريد

دعوتك لما برانى البلى   وأوهن رجلى ثقل الحديد

فما لك تقبل زور الكلام   وقدر الشهادة قدر الشهود

فلا تسمعن من الكاشحين   ولا تعبأن بمحك اليهود

وكن فارقا بين دعوى أردت   ودعوى فعلت بشأو بعيد

وأخيراً أطلق سراح الشاعر فتجددت فى نفسه آماله ، وأخذ يناضل فى سبيلها بسلاح من عاطفته وفنه وإلهامه ، بعد أن فل سيفه وكل رمحه فى محاولاته وثوراته ، ونشد الشاعر الإمارة والولاية فى ظلال الملوك

والأمراء فسعى إليهم بمواهبه الشعرية القوية الأسباب الرائعة الشاعرية ، طالباً لنفسه المجد والامارة وأسباب الحياة ، فاتصل بعلى بن المنصور الحاجب وبدر بن عمار من ولاة الشام ثم صار إلى أبى العشائر والى أنطاكية من قبل سيف الدولة فامتدحه ، وأكرم أبو العشائر مثواه .

ووثق به أسبابه ، وفتح له باب الأمل على مصراعيه من جديد ، حتى قدمه إلى سيف الدولة حين قدم أنطاكية سنة ٣٣٧ﻫ وأثنى عليه عنده وعرف منزلته فى الشعر والأدب ، فضمه الأمير إليه ، وحسن موقعه عنده وعلمه الفروسية والطراد وأنعم وطابه .

نعم المتنبى فى ظلال سيف الدولة ، بيد أن نفسه أبت عليه أن يكون مظهره مظهر رجال الحاشية الذين يفنون شخصياتهم فى شخصية الأمير ، فشرط عليه أن يعفيه من قيود التقاليد وأعباء المراسيم فلا يكلف تقبيل الأرض بين يديه ولا أن ينشد شعره قائما فى مجلسه وألا ينظر إليه إلا نظرته إلى الصديق الحميم ، وقبل سيف الدولة ، فأقام أبو الطيب فى ظله تسع سنين ، لم ينس فيها أمانيه ، وكان يرى نفسه خلالها صديق الأمير ومستشاره والعزيز المسكين لديه ، فلازمه فى سلمه وحربه، وجده ولهوه ، وحله وترحاله ، يمنحه الأمير بالصلات ، ويهبه الشاعر مجد الأدب وعز الأبد فى كل مناسبة خطيرة ينشد الشاعر الأمير قصيدة يسجل فيها عواطفه ومشاعره وآماله ويرسم فيها شخصيته ونفسيته ، ويذكر فيها ما تستدعيه هذه المناسبة الحافزة من معان تدور حول الإشادة بالأمير والثناء عليه وذكر بلائه فى الحروب وسياسته للدولة وفتكه بالأعداء وبطشه بالعابثين ورحمته للعافين ، وقد لا تزيد هذه القصائد فى العام على ثلاث . وكانت هذه الحقبة أخصب طور فى حياة الشاعر وشاعريته ، ففيها عاش بحلب فى بلاط سيف الدولة ، الذى تسنم العرش بعد والده من (٣٣٣ - ٣٥٦) فأسكن الفتن ووطد دعائم الملك، ورد عادية أعداء الدولة من الروم والأخشيديين والفاطميين وسواهم وعاصر

أبو الطيب النهضة الأدبية واللغوية التى رعاها سيف الدولة، والتى كان من رجالها أبو فراس ابن عم الأمير والسرى الرفاء والسلامى وأبو العباس النامى(١) وكشاجم والخالديان وأبو الفتح الببغاء وابن نباته السعدى، وسواهم من الشعراء.

واتصل به ابن نباته الخطيب وابن خالويه النحوى وأبو الطيب اللغوى الأديب والفارابى الفيلسوف وسواهم من رجال الدولة وزعمائها فى الدين والأدب وفى الفكر والثقافه وفى السياسة والاجتماع، مما كان له أثره الفكرى والأدبى فى نفس أبى الطيب، وفيها رأى الشاعر عيون النقاد والمنافسين ترنو إليه وأسماعهم تصغى له فأذكت المنافسة عاطفته، وهاجت شاعريته، وفيها كانت تجيش فى صدره كل حوافز الشعر ودواعيه من الشباب الناضر والمجد الباهر، والشاعرية الطامحة، مما كان يحفزه إلى الجودة فى القول والابداع فى القصيد، حتى إنه لما فارق الأمير فقد الكثير من هذه الحوافز والأسباب فتجوز فى قوله وأعفا طبعه واغتنم الراحة كما يقول المتنبى نفسه.

ولم يكن أبو الطيب فى شتى اتصالاته «تاجراً من تجار الأدب(٢)» كما ظن بعض الباحثين الذين جهلوا نفسية أبى الطيب وغاياته فرموه بالجنون حين التجأ إلى أمير بعد أن كان يطلب لنفسه الإمارة، وبالتجارة بالأدب بعد أن كان يطمح إلى أسمى ما يطمح إليه الطامحون، وليتهم علموا أن قصائد أبى الطيب التى كان يهديها إلى الملوك والأمراء، إنما كانت وسيلة إلى المجد، ولم تكن مدائح بالمعنى الضيق المحدود. إنما كان أغلبها تصويرا لنزعات الشاعر واتجاهاته وآرائه فى الحياة، وإشادة بنفسه هو قبل كل

(١) توفى عام ٣٩٩ عن تسعين عاماً ١/٤٦ ابن خلكان.

(٢) راجع ص ١١٩٤ إلى ١١٩٩ العدد العاشر من الهلال عام ١٩٣٥.

شيء ، وقد عاش رجال الفن والأدب فى كل العصور على اتصال برجال السياسة، ووجدت أمثال هذه الصلات فى الغرب كما وجدت فى الشرق : ودعاية أصحاب العروش للنهضات الفكرية والأدبية ولرجال هذه النهضات لم يزد بها ناقد عربى ، وكان لها أثرها الخير فى توجيه الحياة الإنسانية فى شتى مناحيها ونزعاتها .

وغيرت الحوادث قلب الصديقين : الشاعر والأمير ، فكبرياء المتنبى ، وكثرة منافسيه ، ووشاياتهم به — لاسيما أبو فراس الأمير — وثورة النقد والخصومة بين أبى الطيب وابن خالويه فى مجلس الأمير ، وطموح المتنبى وعدم وصوله فى ظل سيف الدولة إلى كل ما كان ينشده من آمال كبار كل ذلك كان له أثره فى هذا التطور الجديد ، وسكن الشاعر سكون من يتبين اتجاهات الأمور وعواقبها ، ولكنه لم يعد يجد فى الأمير صديقه الوفى ، ولا صداقته العزيزة لديه ، وقاتل الله غربة الرجل فى وطنه :

شر البلاد مكان لاصديق به　　وشر ما يكسب الإنسان مايصم

وأخذ الشاعر يلوح له بما فى نفسه وبالنتائج الدامية التى تعقب هذا الجفاء :

يا أعدل الناس إلا معاملتى　　فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة　　لو أن أمركم من أمرنا أمم
إن كان سركم ما قال حاسدنا　　فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة　　إن المعارف فى أهل النهى ذمم
أرى النوى تقتضينى كل مرحلة　　لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركت ضميرا عن ميامننا　　ليحدثن لمن ودعتهم ندم

وما ضمير إلا جبل عن يمين السائر فى الطريق من الشام إلى مصر فهو يصرح له بأنه إذا اضطر إلى الخروج من بلده فسيندم لأنه لا بد ذاهب إلى أعدائه الإخشيديين .

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفـــارقهم فالراحلون إهم

* * *

وأخذ أبو الطيب يحمل حملاته العنيفة على خصومه ومنافسيه فلم يبق أمل فى الوئام ، فخرج أبو الطيب من حلب إلى دمشق حيث زين له أحد أتباع كافور أن يرحل إليه بمصر فيمم وجهه شطر مصر قاصداً بلاط بنى الإخشيد ، وكفت صلات الصداقة القديمة الباقية الشاعر عن أن يرى الأمير بداهية من لسانه وآبدة من شعره .

ولكن سيف الدولة لم يترك الشاعر حذاراً من لسانه ومن أن يطلع أعدائه على أسرار دولته فأرسل إثره الجنود ليردوه فرجعوا خائبين ، وكانت هذه منة امتن بها الشاعر بعد على كافور .

فلو لم تكن فى مصر ماسرت نحوها بقلب المشـــوق المستهام المتيم
ولا نبحت خيلى كلاب قبـائل كأن لها فى دياجى الليل حملات ديلم
ولا اتبعت آثارنا عين قائف فلم تر إلا حافراً فوق منسم
وسمنا بها البيداء حتى تغمرت من النيل واستذرت بظل المقطم

* * *

واستظل الشاعر بظل المقطم كما يقول ، فنزل فى فناء كافور عام ٣٤٦، وكانت الخلافة العباسية آنئذ فى ضعف سياسى ، وولاة الأقاليم فى شبه استقلال عن الخلافة وعهد الخليفة الراضى إلى محمد بن طغج الإخشيدى فى

القيام بأعباء الحكم فى مصر عام ٣٢٣هـ فاستقل بها استقلالا داخليا ، ، وأخذ يوسع حدود بلاده شمالا فى ملك الحمدانيين ، وكان كافور مولى الأمير آنس فيه الكفاءة ، وحسن التدبير ، ونضوج الثقافة ، فعهد إليه بتربية ولى عهده ثم عينه عام ٣٣٣ قائداً للجيوش التى أرسلها لصد هجمات الحمدانيين على على دمشق وحمص ، ولكن الأجل أسرع بابن طغج إلى لقاء ربه فأعلن كافور ولاية العرش وأقام نفسه مقام الوصى عليه يدبر الأمور ويسوس الدولة ، ومات الملك الطفل بعد بلوغ سن الرشد بقليل فانفرد كافور بالأمر وظل يحكم مصر ثلاثاً وعشرين عاماً (٣٣٤ — ٣٥٧) ، وكان اسم أبى الطيب وشاعريته قد ذاعا فى أرجاء العالم العربى إذ ذاك ، ثم علم كافور أن الثرى قد جف بين الشاعر وسيف الدولة ففاوضه ليتوجه إلى مصر فتم له ما أراد ، ولقد ترك أبو الطيب لنا صورة رائعة لنفسيته العميقة الثائرة حين فارق سيف الدولة فى قصيدة يقول فيها الرواة إن أبا الطيب نظمها لما بلغه وهو فى مصر أنه نعى فى مجلس سيف الدولة ، وهى قصيدة رائعة فيها عتاب مرير وهجاء ثائر لسيف الدولة وأبياتها كلها موجه إليه ، وتعريض به كما يقول العكبرى (٤/٢٣٦) ولعل فيها سمات من الألم العنيف تجاه الحوادث التى حالت بين الشاعر والوفاء لصديقه الأمير ، فهو يقول فيها إنه لا يصون العرض جاره ولا يدر على مرعاه اللبن وأنه ينقم على من نال رفده ، والغريب لا يجازيه إلا ملالا ، والمحب لا يجازيه إلا فتوراً ، وإنه اضطر إلى هذه الهجرة تضحية براحته وطمأنينته فى سبيل كرامته وعزته ، وإن ذكريات الصداقة بين الشاعر والأمير قد أخذت تتلاشى من مخيلته ، وأنه يعيش فى طور جديد من التجربة لكافور ومطلع هذه القصيدة :

بم التعلل ، لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن
أريد من زمنى ذا أن يبلغنى ... ماليس يبلغه من نفسه الزمن

وهنها :

يا من نعيت على بعد بمجلسه   كل بما زعم الناعون مرتهن
كم قد قتلت وكم قد مت عندكم   ثم انتفضت فزال القبر والكفن
رأيتكم لا يصون العرض جاركم   ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل   وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفدكم   حتى يعاقبه التنغيص والملل
إنى أصاحب حلمى وهو بى كرم   ولا أصاحب حلمى وهو بى جبن
ولا أقيم على مال أذل به   ولا ألذ بما عرضى به درن
سهرت بعد رحيلى وحشة لكم   ثم استمر مريرى وارعوى الوسن
وإن بليت بود مثل ودكم   فإننى بفراق مثله قمن

وسام الشاعر طموحه آلام هذه التجربة الجديدة التى عصى فى الدخول فى غمارها آراء أصدقائه ومشيريه ، كما صنع كافور فى تقريب الشاعر مخالفا رأى وزيره ابن الفرات ..

وأبلج يعصى باختصاصى مشيره   عصيت بقصديه مشيرى ولوى

ولم تكن هذه الهجرة الجديدة فى سبيل مال بل كانت فى سبيل الملك والدولة كما يقول الشاعر نفسه فى كافور :

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم   إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذى تهب الدولات راحته   ولا يمن على آثار موهوب

وأخذ الشاعر يدعو الأمير إلى تحقيق آماله فهو وإن كان شاعراً إلا أنه قد خلق للسياسة والملك :

قادم بى ما أردت منى فإنى   أسد القلب آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وإن كان لسانى   يرى من الشعراء

وانتظر الشاعر فى الوطن الجديد وعد كافور انتظار المستبطىء المترقب:

أبا المسك أرجو منك نصرا على العدا وآمل عزاً يخضب البيض بالدم

ويوماً يغيظ الحاسدين وحالة أقيم الشقا فيها مقام التنعم

وألح عليه يطالبه عاجل وعده فالعمر يضيق عن طول الانتظار :

ولو كنت أدرى كم حياتى قسمتها وصيرت ثليها انتظارك فاعلم

ولكن ما يمضى من العمر فائت فجد لى بحظ البادر المتغنم

ويتأخر عن الشاعر وعد الأمير فلا تهن آماله :

وإن تأخر عنى بعض موعده فما تأخر آمالى ولا تهن

وطال مطال كافور لأنه كان يحذر على نفسه وعرشه من أبى الطيب وكانت الوشايات تملأ صدره بالحقد عليه ، وكان وزيره ابن الفرات الذى ترفع أبو الطيب عن مدحه يحول بينه وبين البر بما وعد . وكان وجود أبى الطيب فى قصره مجال الحديث ، ومنبع الوشايات من رجال الحاشية ورجال السياسة والأدب وأخذ أبو الطيب يعرض لكافور بأمانيه وآماله :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله فإنى أغنى منذ حين وتطرب

إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب

ثم أخذ يلح فى الطلب والتعريض :

أرى لى بقربى منك عينا قريرة وإن كان قرباً بالبعاد يشاب

وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ودون الذى أملت منك حجاب؟

وما أنا بالباغى على الحب رشوة ضعيف هوى يبغى عليه ثواب

وما شئت إلا أن أدل عواذلى على أن رأيى فى هواك صواب

وأعلم قوما خالفونى فشرقوا وغربت أنى قد ظفرت وخابوا

ثم أخذ يكرر الطلب والرجاء :

إذا اكتسب الناس المعالى فى الندى   فإنك تعطى فى نداك المعاليا
وغير بعيد أن يزورك راجل   فيرجع ملكا للعراقين (١) واليا

وعلم أبو الطيب بالوشايات ، فطلب من كافور أن يتخذه والياً ولو على سبيل التجربة والاختبار :

فكن فى اصطناعى محسناً كمجرب   يبن لك تقريب الجواد وشده
إذا كنت فى شك من السيف فابله   فإما تنفيه وإما تعده

وأعلن إليه رغبته فى السلطان لا حاجته إلى المال :

وما رغبتى فى عسجد أستفيده   ولكنه فى مفخر أستجده

وأنه سيحمده على ما فعل حمداً يفوق كل حمد :

يجود به من يفضح الجود جوده   ويحمده من يفضح الحمد حمده

ولكنه أخيرا فقد الأمل وعز عليه الرجاء :

أقمت فى أرض مصر فلا ورائى   تخب بى المطى ولا أمامى
قليل عائدى سقم فراشى   كثير حاسدى صعب مرامى

وما صعوبة مرامه إلا لما يطلبه من الملك والامارة كما يقول شارح ديوانه (٤/١٤٥ العكبرى) ، فأخذ أبو الطيب يسخر بكافور ويتهكم به سخرية الممعن فى الإغراب لحينا بمدحه بسواد لونه مع علمه أن ذكر السواد على مسامع كافور أمر من الموت كما قال التوحيدى(٢) ـ زاعماً أنه لون المسك :

وبمسك يكنى به ليس بالمسك   ولكنه أريج الثناء

وأن بياض الجلد خير منه بياض الفؤاد :

(١) الكوفة والبصرة .
(٢) ٤٦ الصبح المنبى .

إنما الجلد ملبس وابيضاض النفس خير من ابيضاض القباء وحينما يبالغ فى التهكم والاستخفاف :

وما طربى أنى رأيتك بدعة   لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

حتى قال ابن جنى لصديقه الشاعر لم يزد على أن جعلته قردا (٦٥ الصبح) وفى هذه القصيدة بيت بلغ مبلغ الاعجاز فى التهكم والسخرية :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً   لمن بات فى نعمائه يتقلب

يريد أن كافورا يحسده ظلما وعدوانا على ما يتقلب فيه من نعمة هى من يد كافور ولكنه أخفى غرضه بصياغة البيت صياغة فنية رائعة ذات معان كثيرة ، وهكذا تقرأ له فى كافور :

ولله سر فى علاك وإنما   كلام العدا ضرب من الهذيان

وساءت علاقة أبى الطيب بكافور فوضعت عليه رقابة شديدة دقيقة استطاع المتنبى أن يفلت منها هاربا يوم عرفة عام ٣٥٠ هـ بعد أن يئس من الحياة ومن مجد الفن واتخاذ الشعر وسيلة لمجد الحكم والسلطان :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى   المجد للسيف ليس المجد للقلم

ونظم الشاعر فى رحيله قصيدته :

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟

التى وسم بها وبسواها من قصائده كافورا بميسم الذلة والهوان إلى الأبد :

وأكفر يا كافور حين تلوح لى   ففارقت مذ فارقتك الشرك والكفرا

* * *

ويمم الشاعر وجهه نحو الكوفة وأقام بها حيناً تردد خلاله على بغداد وسواها من مدن العراق ، تسومه نفسه الكبيرة عذاب العبقرية :

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت فى مرادها الأجسام

ويطارده دهره فى سبيل العظمة وحيداً غريباً :

أهم بشىء والليالى كأنها   تطاردنى عن كونه وأطارده

وحيد من الخلان فى كل بلدة   إذا عظم المطلوب قل المساعد

وسأله كثير من الناس فى عجب عن غاياته البعيدة التى لا تنتهى إلى غاية :

يقولون ما أنت فى كل بلدة   وما تبتغى؟ ما أبتغى جل أن يسمى

وعاش كذلك قريباً من ثلاث سنوات فى هدنة بينه وبين نفسه يعدها لعظائم الأمور .

وأخيراً قذف به فى طموحه إلى بغداد مرة أخرى عام ٣٥٢ هـ ففاوضه رجالاتها كالصابى الكاتب والمهلبى الوزير وسواهم على أن يتوجهم بثنائه فاعتذر وانتظر معز الدولة الملك والخليفة العباسى أن يعيش أبو الطيب فى ظلالهم أو أن يشيد بدولتهم ولكنه لم يفعل ، وأثار وجود المتنبى فى بغداد مشكلات سياسية وأدبية ، فأغرى به رجالات الدولة بعض أدباء بغداد كالحاتمى وبعض الشعراء كالحجاج وابن سكرة والحسن بن لنكك البصرى وسواهم ، وعقدت مناظرة أدبية بين الحاتمى الأديب والمتنبى الشاعر ، دونها الحاتمى بعد حين(١) ، وهجاه شعراء بغداد والبصرة حتى قال فيه بعض الشعراء :

أى فضل لشاعر يطلب الفضـ   ـل من الناس بكرة وعشيا ؟

عاش حينا يبيع بالكوفة الماء   وحينا يبيع ماء المحيا

---

(١) راجع المناظرة الحاتمية فى ٢٣٢/٢ ابن خلكان ، ٧١ — ٨٠ الصبح . المنبى ٥٥٦/٦ ياقوت ، ١١٤/٢ النثر الفنى .

ولكن طموح المتنبى كان يشغله عن هذه الترهات، فتوجه إلى إيران ميمما وجهه شطر عضد الدولة بشيراز، وطمع الصاحب بن عباد فى زيارته بأصفهان وكتب إليه يرحب بقدومه ويعلن استعداده لمشاطرته جميع ماله فأبى أن يسير شعره فى شاب كالصاحب، فكان ذلك باعثاً على عداوة ابن عباد له ونقده إياه(١)، وعلى حمله الأدباء والكتاب كأبى هلال العسكرى وأبى بكر الخوارزمى، على ثلبه ومهاجمته بسلاح النقد. وعرج الشاعر على ابن العميد بأرجان فى أوائل سنة ٣٥٤ هـ وأقام عنده يشيد به ويطلب منه الولايات لا الصلات؟

إن لم تغثنى خيله وسلاحه — فمتى أقود إلى الأعادى عسكراً؟

وبعد قليل شخص إلى شيراز حيث عضد الدولة، لنفس غاياته لا رغبة فى إشباع شهواته:

وفى السلاطين من تولاها — والجأ إليه تكن حدياها

يقول: كل أمر السلاطين إلى من يتولى أمرهم واعتمد عليه فى آمالك تكن واحداً منهم كما يقول شارح ديوانه(٢). وفى قصر عضد الدولة وثقت صلات الأدب بينه وبين أبى على الفارسى وأبى الفتح ابن جنى، وأغدق عليه عضد الدولة عطاءه ولكن الشاعر استأذن فى الرحيل بعد قليل على أمل أن يعود:

لعل الله يجعله رحيلا — يعين على الاقامة فى ذراكا

وودع الشاعر الملك، وسار، وفى طريقه إلى بغداد لقى أبو الطيب

---

(١) راجع الكشف عن مساوىء المتنبى للصاحب.

(٢) ٤/٢٨٠ عكبرى.

حتفه على يد فاتك ابن أبي جهل في رمضان عام ٣٥٤ ، وكان يحنق على المتنبي لهجائه ابن أخته ضبة كما يقولون ، وأرى أنه كان مدفوعاً مع ذلك بيد السياسة الحانقة على أبي الطيب . وغربت العبقرية الطامحة ، وانطفأت شعلة القريض الساحر ، وفيض الشاعرية الثر ، وكما يقول صديقه ابن جني في رثائه :

غاض القريض وأودت نضرة الأدب   وصوحت بعد ري دوحة الكتب

وهذه هي قصة طموح المتنبي وتضحياته التي ملأت كل طور من أطوار حياته عظمة وخلوداً ، فأبو الطيب في طفولته وفي شبابه المثقف المتطلع إلى مجد السياسة ، بعد أن ملأ جعبته من شتى ألوان الثقافة ، وفي رجولته حين شعر بالاخفاق ومرارة الفشل فيما قام به من محاولات كان يرجو من ورائها العز والجاه ، والامارة والملك ، فسعى إلى سيف الدولة ، ثم إلى كافور ، ثم إلى عضد الدولة . لعله ينال في ظلالهم ماينشده من مجد ومايطمح إليه من جاه . هو هو الطامح إلى أبعد حدود الطموح ، الساعي لعظيمات الأمور ، مهما كلفه هذا السعي وذلك الطموح من تضحية وألم ، وهو الذي شقي بطموحه ، وسامته نفسه عذاب المجد وجحيم العبقرية ، فآب بعد طوافه بالفشل والحرمان .

— ٢ —

ولكن أحقا أبا الطيب قد ادعى النبوة فاستحق هذا اللقب ؟ أم أنها فرية نبزه بها أعداؤه الحاسدون له الحاقدون عليه ؟ إن الكتاب والأدباء ليختلفون في ذلك ويذهبون مذاهب شتى في الاستنتاج والتعليل .

والحق الذي يمكن أن نستسيغه أنها نبوة أدبية ، وأن الناس لايطلقون عليه ذلك إلا من باب التشبيه : تشبيه الرسالة الأدبية بالرسالة الدينية ، وأن أبا الطيب كان صاحب دعوة سياسية ، كان يطلب الملك ويمني نفسه به ، ويعد

العدة له ، ويطوف بالبوادى ويستجمع للوثبة . ومهما يكن من أمره، فقد أراد أن يترك الشعر إلى السياسة فردته الأيام من السياسة إلى الشعر ، وهكذا يخطىء أبو الطيب من حيث يصيب القدر ، فما المجد السياسى الفانى إلى جانب مجده الأدبى الخالد .

هذا ما نقله فى حق أبى الطيب، أما ادعاؤه النبوة فلا نستطيع أن نتقبله فى يسر مهما قيل فى الظروف التى كانت تهيىء لذلك فى عصره من كثرة الدعوات الدينية والسياسية ، وإلا فكيف كان أبو الطيب يأمن على نفسه من الناس وهو كثير الطواف والتردد عليهم ، وكيف يمكن أن يصح هذا عنه وهو المثقف الواسع الأمل النافذ البصيرة .

إننا نستبعد ذلك ونستعرض الأمور الآتية دليلا لرأينا .

(أ) سئل المتنبى نفسه : على من تنبأ ؟ فقال : على الشعراء فقيل له : إن لكل نبى معجزة فما معجزتك ؟ فقال : معجزتى هذا البيت :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد(١)

وكان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة أى المرتفع من الأرض فهو يفسرها :حينا بما كان فى نفسه من كبرياء وعظمة واعتزاز بشخصيته ، وحينا بإعجاز فنه وسحر قريضه .

(ب) وكذلك صديقه وتلميذه ابن جنى م سنة ٣٩٢ فقد قال فى تعليقه على بيت أبى الطيب :

أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

---

(١) ٣٢ الصبح المنبى .

« وبهذا البيت لقب المتنبي(١) . فهو يرجعها إلى أن المتنبي كان يتشبه بالأنبياء ويردد ذلك في شعره » :

(ج) وكذلك رأى الثعالبي م ٤٢٩ هـ حيث يقول في يتيمته : « إن المتنبي بلغ من كبر نفسه وبعد همته أن دعا إلى بيعته قوماً من رائشي نبله وحين كاد يتم له أمر دعوته تأدى خبره إلى والي البلدة فأمر بحبسه(٢) ، ثم قال : « ويحكى أنه تنبأ في جبال ، ومن شرذمة بقوة أدبه وحسن كلامه(٣) » ، إلى أن يقول : « ومازال في برد صباه إلى أن أخلق برد ثيابه ، يدور حب الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه في الخروج على السلطان والاستظهار بالشجعان والاستيلاء على بعض الأطراف ويستكثر من التصريح بذلك(٣) » . وذلك في ترجمة الثعالبي للمتنبي(٤) .

(د) وكذلك رأى الواحدي (٤٦٨ هـ) إذ يقول متبعاً رأى ابن جني في شرحه لبيت المتنبي :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وبهذا البيت لقب المتنبي لتشبيهه نفسه بعيسى في هذا البيت وبصالح في بيت آخر (٥) .

(هـ) وكذا رأى الشعراء المعاصرون لأبي الطيب ، فأبو القاسم المظفر الطبسي الشاعر يقول في رثائه :

ما رأى الناس ثاني المتنبي أي ثان يرى لبكر الزمان؟

---

(١) ١/٣٢٤ عكبرى (٢) ١/٩٢ اليتيمة .
(٣) ١/٩٣ المرجع (٤) ٩٠ — ١٩٠/١ اليتيمة

كان من نفسه الكبيرة فى جيش   وفى الكبرياء ذا سلطان
هو فى شعره نبى ولكن   ظهرت معجزاته فى المعانى

(د) ورأى عبد الكريم النهشلى أن أبا الطيب إنما سمى متنبئا لعظمته، وقال غيره : بل قال : أنا أول من تنبا بالشعر (١).

(ز) وقد عرض المعرى ٤٤٩ هـ لنبوة المتنبى، نقل الأساطير التى رددت فى ذلك وأدلى برأيه فيها فى أسلوب دقيق من أساليب المعرى التى خفى وجهها على كثير من الباحثين، قال أبو العلاء :

« وما صح أن ذلك الرجل — المتنبى — حبس بالعراق، فأما حبسه بالشام فمشهور، وحدث أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال هو من النبوة أى المرتفع من الأرض، وكان قد طمع فى شىء طمع فيه من دونه، وإنما هى مقادير، وقد دلت أشياء فى ديوانه، أنه كان متألها، ومثل غيره من الناس متدلها، فمن ذلك قوله :

تغرب لا مستعظما سوى نفسه   ولا قابلا إلا لخالقه حكما

وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبىء عن اعتقاد الإنسان، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يظهر الرجل القول تدينا، وإنما يجعل ذلك تزينا (٢)

وقد أخطأ العقاد فى فهم رأى أبى العلاء حيث قرر فى مطالعاته أن أبا العلاء وقف موقف الشاك المتردد فى فهم ما نسب إلى المتنبى من دعوى النبوة، وإذا كان هذا الحافظ الثقة القريب العهد بالمتنبى يشك ويتردد فغاية

---

(١) ٥٩ / ١ العمدة .

جهد الأدب والتاريخ أن يقفا هذا الموقف (١) ، والعقاد بعد ذلك لا يستبعد دعوى النبوة على المتنبى ولا يجدها غريبة منه ، لأن نشأة المتنبى ، وحالة عصره ، وشعره ، وترجمته ، كلها مما يوسع العذر المشتبه ويوائم مقتضيات الدعوى التى نسبت إليه . فنشأته فى الكوفة منبع الفتن وثورات القرامطة التى خالطها دعوات الاسماعيلية ، وسلوكه الذى يظهره صاحب مطامع دنيوية ، ونظره فى كتب الفلاسفة ، واستعراضه بعض آرائهم ، وغيظ المتنبى ممن كان يذكر له دعوى النبوة ، ورغبته فى دفن هذا الحديث ، من كل ذلك نرى أنه ليس غريبا عنه أن يطلب المجد من طريق الدين ، ولكن هل فعل الرجل ذلك فادعى النبوة ؟ هذا ما لا سبيل إلى البت فيه برأى قاطع ، ولكننا بين قولين : أرجحهما أنه فعل وادعى ، والمرجوح منهما أنه لقب ، على أننى أرجح الأول ترجيحا قويا حتى أكاد أرفض الاحتمال هذا الثانى » . هذا هو رأى العقاد (٢) .

وإذا رجعنا إلى رأى أبى العلاء وجدناه يقرر :

١ — أن أبا الطيب لم يحبس بالعراق ، إنما كان حبسه بالشام والأمر بعيد عن النبوة ودعواها ، وهو أمر يتصل بطموحه إلى الملك والولاية .

٢ — أن فى شعر المتنبى مايدل على نزعات دينية تناقض نزعة ادعاء النبوة .

٣ — وأبو العلاء يشك فى دلالة الأدب على حقيقة ما تجيش به النفس الإنسانية من شك أو يقين .

(أ) فأما أن حبسه كان بأسباب طموحه إلى الملك فهذا ما رأيناه من دراسة نفسية المتنبى وشعره وبسطنا فيه القول فى كلامنا على طموحه وما أبداه ثقات الباحثين .

---

(١) ١٨ مطالعات .

(٢) ١١٨ — ١٢٣ المرجع .

(ب) وأما أن أبا الطيب لم يخامره شك فى العقيدة كما يدل على ذلك أشياء فى ديوانه فذلك ما اختلف فيه الباحثون اختلافاً كثيراً . فكثير من النقاد شك فى عقيدة المتنبى ونقد أبياته البعيدة عن روح التقديس للعقيدة : كالصاحب (١) وكالثعالبى (٢) والبديعى (٣)، وكذلك رأى باحث معاصر أن المتنبى كان ضعيف العاطفة الدينية ، وأن فى شعره إشارات كثيرة تختلف وضوحا وخفاء تنم عن وهن العقيدة ، وضعف الإيمان ، وشأنه فى ذلك شأن شكسبير ، وأن المتنبى آثر أن يسلك طريق الفن وحده ولئن كان نصيبه من الدين قليلا فلقد فاز من الفن أعظم نصيب (٤)، وكذلك ذهب العقاد فى مطالعاته فرأى أن نشأة المتنبى وحالة عصره وبيئته وجملة ترجمته كلها دليل على ذلك (٥)، وغير هؤلاء من الباحثين . وقد نعى القاضى الجرجانى م ٣٩٢ هـ فى وساطته على من أزرى بالمتنبى لأبيات وجدها فى شعره ، تدل على ضعف العقيدة ، وقرر أن منزلة الشاعر الأدبية لا يبوئه إياها إلا خصائص شعره الفنية وحدها (٦) . . أما أبو العلاء فقد رأى أن المتنبى كان كغيره قوى العقيدة عميق الإيمان ، ورأيى أن أبا العلاء كان مصيبا فيما يقول ، وأنه يجب أن نفرق بين شيئين : جنون العظمة والكبرياء فى نفس المتنبى ، وروح المتنبى الدينية ، وأن نرد إلى كل مصدر منهما مظاهره الفنية والنفسية فى شعر المتنبى وأدبه . فالمتنبى شاعر طموح ، ساخط حينا وراض حينا آخر ، وهو يمثل فى شعره عواطف سخطه ورضاه ، فى ثورة وقوة وفى حرية واسعة فى التفكير وفى التعبير ، وفى

---

(١) ١٩ و ٢٠ رسالة الصاحب (٢) ١٤٢ /١ اليتيمة .

(٣) ٢٣١ و ٢٣٢ الصبح .

(٤) ١٢٠٤ — ١٢٠٨ هلال أغسطس ١٩٢٥ .

(٥) ١١٩ مطالعات . (٦) ٦١ الوساطة .

مبالغة معرقة في الابتداع والخيال والتصوير ، وليس ما يأخذه عليه الباحثون عندي ضعفاً في إيمان الشاعر وعواطفه الدينية ، إنما هو جنون الطموح وحرية الفكر وإلهام الفن وثورة الحياة في سخطها ورضاها وألمها وأملها ، وأبو الطيب في أعماق نفسه وقرارة فؤاده متدين كل التدين متأله غاية التأله ، وجنون الطموح والكبرياء يقترنان غالبا بروح قوية من الإيمان في نفس الرجل العظيم ، على أن ما أخذ على المتنبي في هذه الناحية لم يدع أحداً من المنصفين إلى القول بأن أبا الطيب كان في عقيدته وهن ، فإذا قال أبو الطيب في معرض المدح :

مثل الأعزاء المعز وإن يحن   به يتمهم فالموتم الجابر اليتم
له رحمة تحيي العظام وغضبة   بها فضلة للجرم عن صاحب الجرم

فليس ذلك ضعفا في إيمانه وإنما هو الاغراق في التصوير بدفعه كبرياء في نفس الشاعر . وإذا قال في كافور :

ألا فتى يورد الهندي هامته   كيما تزول شكوك الناس والتهم
فإنه حجة يؤذي القلوب بها   من دينه الدهر والتعطيل والقدم

فإنما هو هادم للمظاهر الاجتماعية التي يجعلها الشاكون من جور القضاء وفوضى الحياة . وإذا استعان برجال لا يرون للدين قداسته كما يقول :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة   ويستبيح دم الحجاج في الحرم

فإنما هو غرور الكبرياء ، وثورة الغضب على من يعيثون في الأرض فسادا تحت ستار واه من العقيدة . وإذا وقف من خلود الروح موقف الشاك :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم   إلا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء فى العطب
ومن تفكر فى الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والعطب

فليس من رقة دين ، بل من اعتقاد جازم بصعوبة الوصول إلى رأى حاسم فى هذه المشكلات العقلية والفلسفية ، وليس هناك من إيمان بمذاهب مادية فى قوله :

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه

بل هو ذهاب إلى الروح نفحة من السماء كما أن الجسد قطعة من الأرض ، فالروح داعية الخير ، والجسم باعث الشر والهوى ، وإذا قال :

أبنى أبينا نحن أهل منازل أبداً غراب البين فيها ينعق

فليس ذلك لأنه تطالعه أشباح الفناء من كل واد ، وإنما هو إعراب عما يراه من لجاج الموت فى طلب البشر . وإذا قال :

تمتع من رقاد أو سهاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

فذلك ليس إنكارا للموت ، ومن ذا الذى يشك فى الموت ، إنما هو تفاؤل بالسلامة من الحمى ، وتفريق بين آلام المرض : فى الرقاد والسهاد ، وآلام الموت فى الضجعة الأخيرة . وليس سخرية بآدم ما يقول :

يقول بشعب بوان حصانى أعن هذا يسار إلى الطعان؟
أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان

إنما هو إيمان بالشقاء المفروض على جبين الناس فرضا ، والذى لاقى أبو الطيب منه نصيبا مفروضا ، وإذا شبه نفسه بالأنبياء فى قوله :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

فليس استهانة بمقامهم العظيم الكريم ، إنما هو بلوغه بنفسه — فى كبرياء — إلى أسمى الدرجات الروحية . وكذلك ما كان فى قوله :

لو كان صادف رأس عازر سيفه فى يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل جبينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فكان العالمون مجوسا

تناول لمعجزات الأنبياء بالتهوين ، إنما هو إغراق فى المدح والتعبير . وليس عدولا عن العقيدة ما يقول فى ابن العميد :

انا مذهب العباد فى ترك غيره وإتيانه نبغى الرغائب بالزهد
رجونا الذى يرجون فى كل جنة بأرجان حتى ما يئسنا من الخلد

إنما هو تصوير بالغ لما فى أرجان من مدنية وترف حتى كأنها جنة ، وكأن العيش فيها حياة فى دار الخلود . وإذا جعل أبو الطيب سلافة الرضاب أحلى من روحية التوحيد :

يترشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

أو جعل شرف من مدحه من العلويين فخرا لجده الأعلى الرسول (ص):

وأكبر آيات التهامى أنه أبوكم وأجدى ما لكم من مناقب

أو رفع ممدوحه إلى المقام الأسمى :

تتقاصر الأوهام عن إدراكه مثل الذى الأفلاك فيه والدنا

أو رفعه إلى رتبة الرسالة :

لو كان علمك بالإله مقسما فى الناس ما بعث الإله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل القرآن والتوراة والإنجيلا

أو جعله أعظم من أن يؤتمن عليه جبريل الأمين :

لعظمت حتى لو تكون أمانة ما كان مؤتمنا بها جبريل

أو قال :

ونصفي الذي يكنى أبا الحسن الهوى ونرضى الذي يسمى الإله ولا يكنى

أو جعل الرعية عبادا للملوك :

أنلت عبـادك ما أملوا أنالك ربك ما تأمل

أو جعل طاعة الممدوح كعبادة الله :

النـاس كالعـابدين آلهة وعبـده كالموحـد اللاها

فذلك كله لم يكن من ضعف عقيدته بل من شدة تأثر عواطفه الحساسة بحنان الأيدي الكريمة التي كانت تؤازره في سبيل لوصول إلى ما كان يتمناه من فخار ومجد .

وبعد فذلك تحليلنا لهذه الأبيات التي أخذت على المتنبي في شعره — مما رماه بها بعض النقاد بضعف العقيدة — على ضوء نفسيته وعقليته واتجاهاته ونزعاته ، ولا يضيرنا بعد أن نقول: إن أبا الطيب كان إسماعيليا من الإسماعيليين ، لقن آراء هذا المذهب في الدين والاجتماع والسياسة ، ممن اتصل بهم من رجالاته وأبطاله في الكوفة ، فأخذ نفسه به ، واتخذه شعاره ، شأنه في ذلك شأن ابن هانىء الأندلسي ، شاعر المعز لدين الله والاسماعيليون يرون أن صفات الله عز وجل واقعة على الإمام : فإذا قال ابن هانىء للمعز : « فاحكم فأنت الواحد القهار » فإن لأبي الطيب بذلك نظيرا وهو قوله لممدوحه « مثل الأعزاء المعز . . الخ » ولم لا يكون أبو الطيب إسماعيليا ؟ والكوفة كانت من أهم بلاد دعوات الإسماعيليين ، وكانت أهم منبع لنشاط الإسماعيليين ، ذلك معقول ، وهو يفسر لنا ناحية أخرى من النواحي الغامضة في حياة أبي الطيب ، وهي عدم مدحه لأحد من الخلفاء العباسيين ، أفلا تكون اسماعيلية أبي الطيب وخصومتها السياسية للخلافة العباسية

سببا من أسباب مقاطعة المتنبي لخلافة العباسيين والخلفاء العباسيين ، ذلك أمر غير بعيد .

ثم لنفرض فرضا آخر وهو أن أبا الطيب لم يكن إسماعيليا ، أفليس من المعقول بعد هذا أن يكون قد تأثر بنزعات الإسماعيليين الذين كانوا يعيشون معه في محيطه الاجتماعي في بلدته الأولى الكوفة ؟ والإسماعيليون يرفعون إمامهم إلى اسمى درجات التقدير ، ويخلعون عليه أوصاف الجلال والنور ويرونه نور العالم ومصدر سعادته ، فليس بغريب أن يتأثر أبو الطيب بهذه النزعات وتلك الآراء التي كانت تزخر بها مجامع الكوفة ونواديها الثقافية والسياسية ، فظهرت تلك النزعات واضحة في شعره .

وبعد فخلاصة رأينا في عقيدة أبي الطيب أنه كان قوى العاطفة الدينية ، أو ليس هو القائل عن نفسه ؟ :

تغرب لا مستعظما سوى نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حكما

وهو الواثق بالله الشديد الثقة حيث يقول :

فثب واثقا بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

والذي يشيد ببطولة النصر ويجعله من هزيمة التوحيد للشرك :

ولست مليكا هازما لنظيره ولكنه التوحيد للشرك هازم

والذي يقول كما يروى عنه (١١٩ وساطة) :

لست الملوم ، أنا الملوم لأنني أنزلت آمالي بغير الخالق

والذي يقول :

ولعلي مؤمل بعض ما أبلغ باللطف من عزيز مجيد

إلى غير ذلك من الأبيات . . وردنا للأبيات السالفة الذكر من قبل مما أخذت عليه إلى أحد أمور ثلاثة :

١ — أنها لم تكن تعبر عن وهن فى العقيدة ، بل عن جنون العظمة فى نفس أبى الطيب .

٢ — أو أن أبا الطيب كان إسماعيليا تبيح له عقيدته التى لا تذهب مذهبها ما أباحته لابن هانىء .

٣ — أو أنه تأثر بنزعات الاسماعيليين فى تعظيم أئمتهم تعظيما روحياً بعيد المدى ، فألف ذلك ، وظهر فى شعره واضحاً جلياً .

(ج) وأما عدم ثقة أبى العلاء بدلالة الأدب على ما فى الضمير الانسانى من شك ويقين فهو فى ذلك جد معذور ، فقد عاش فى عصر ضعف سياسى جرد النفوس المسلمة من فضائلها وحبب إليها كثيراً من الرذائل الاجتماعية الموبقة ، كالملق والرياء والنفاق والخداع والدهاء . فحكم أبو العلاء على الأدب حكمه متأثراً بعصره وبيئته، وإن كان لا يطرد فى الحكم على عصور القوة التى حررت فيها النفوس من وهن العبودية ومداجاة المجتمع والناس ، بل لا يمكن أن تطرح دلالة الأدب على الضمير الإنسانى فى أى عصر مهما بلغ من ضعف وهوان ، فالأدب مرآة للروح الانسانية تشف عما حجب عنا من غيوبها ، ومهما بالغ الأديب فى اخفاء عواطفه حتى لاتظهر صورتها فى أدبه فلس يمنعنا ذلك من أن نستدل بالآثار الضئيلة الخافتة على جوانب هذه الحياة الغامضة .

هـــذا هو تعليقنا على رأى العلاء فى نبوة المتنبى ، ولا ننسى أن نذكر أن كل من أرخ للمتنبي ممن ذكروا أمر نبوته قد ذكروا الآراء الأخرى التى تصف المتنبى مدعياً للنبوة كابن خلكان(١) وسواه .

---

(١) [illegible] الأعيان .

— ٣ —

وثقافة المتنبى العقلية والأدبية ثقافة واسعة ،وهى ثقافة عملية لا نظرية جعلها وسيلة إلى غاياته من المجد والسلطان ، فدراسته الطويلة فى صباه ، واختلافه إلى أعراب البادية فى الكوفة ، واختلاطه بهم فى الشام ، ولزومه مجالس العلم واللغة والأدب والفن ، وتردده الكثير على مكاتب الوراقين(١) ، ودؤوبه على القراءة فى شبابه وزجولته وحتى فى أيام مجده مع سيف الدولة (٢) ، وإيثاره الكتب على كل شيء ، ثم اتصالاته برجالات الثقافة وزعماء النهضات العلمية والفكرية فى شتى أرجاء العالم الاسلامى ، ثم حدة ذكائه وخصوبة عقله ، ونشأته فى عصر ازدهرت الحياة الفكرية والأدبية فيه ، وهو القرن الرابع .

كل ذلك جعل المتنبى ذا ثقافة فكرية وأدبية ولغوية بعيدة ، حتى تعجب أبو على الفارسى من إحاطته باللغة ، وشهد له بالتفوق فيها ، والإلمام بعلومها وغريبها(٣) ، وحتى كان شعره فوق آثاره الأدبية ثروة لغوية واسعة فى ألفاظه وأساليبه ، وفى إحيائه للغريب المهجور من الألفاظ . وحتى أعجب بثقافته الأدبية وذوقه الشاعرى وملاحظاته الدقيقة فى النقد ، صديقه سيف الدولة وهو من هو أدباً وشعراً ونقدا (راجع ٤٣ الصبح المنبى) .. ولكن ثقافته العلمية فى البيان كانت ضعيفة حتى لقد أخذ عليه النقاد قوله :

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه ... فما أحد فوق ولا أحد مثلى

وقالوا : إن مالا تكون للتشبيه .. أما ثقافته الفكرية فهى ثقافة رجل

---

(١) ٣ الصبح المنبى (٢) ٥٠ الصبح

(٣) ٨٠ الصبح

من خاصة رجال الفكر فى عصره ، يدل عليها عمق الثقافة العقلية فى شعره وكثرة تجديده وابتكاره فى أفكاره ومعانيه ، وروعة حكمه ، التى أرجعها الحاتمى إلى حكم أرسطو وآرائه فى فلسفة الحياة ، ونرجعها نحن إلى ثمرات التجربة للحياة ، وبعد غور فكر الشاعر ، وكثيرا ماتتشابه آراء المفكرين والعبقريين كما يقول شكيب أرسلان(١)

ولكن هل تأثر المتنبى فى ثقافته الفكرية بالفلسفة وعلومها ؟ ينفى بعض الباحثين ذلك كابن الأثير فى مثله السائر وسواه من الباحثين القدامى والمعاصرين ، ولكنى أرى أن المتنبى قد تأثر بثقافة الفلسفة لأنه عاصرها فى عصر النضوج الفكرى والعقلى الذى غمرت موجته الحياة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى،وكانت كتب الفلسفة اليونانية المترجمة، والاسلامية المؤلفة ، فى متناول يده فى كل مكان يحل فيه ، ولاشك أن المتنبى وقد اتصل بسيف الدولة سنة ٣٣٧ هـ قد اتصل بالفارابى الفيلسوف ٣٣٩ هـ ، واطلع على مؤلفاته وترجماته فى الفلسفة ، وكان الفارابى يقيم فى حلب تحت رعاية سيف الدولة . كما اتصل بسواه من رجال الفلسفة . وطموح المتنبى لابد من أنه حفزه إلى توسيع معارفه الثقافية والفكرية حتى حين خطا نحو الرجولة المكتهلة ، فلم لا يطلع على الفلسفة وهى محور الثقافة الفكرية فى عصره ؟ ثم إن فى شعر المتنبى كثيراً من النظرات الفلسفية العميقة ، وأسلوبه أسلوب فكرى دقيق يتردد فيه أساليب المنطق ، وآراؤه نراها أبداً مقرونة بأسبابها وحججها ، على نمط لا نكاد نفرق بينه وبين أسلوب الفلاسفة فى التدليل فقوله :

إذا أتت الإساءة من لئيم ولم ألم المسىء فمن ألوم ؟

---

(١) ١١٨٩ الهلال أغسطس ١٩٣٥ .

وقوله :

فطعم الموت فى أمر خطير　　كطعم الموت فى أمر حقير

وقوله :

إلف هـــذا الهواء أوقع فى الأنفس أن الحمام مر المذاق

والأسى قبل فرقة الروح عجز　　والأسى لا يكون بعد الفراق

وسوى هذا ، يتجلى كله فى أسلوب ليس بينه وبين أسلوب المنطق فرق كبير(١) .

وإذا فرأيى أن المتنبى قرأ بعض كتب الفلسفة ، وسمع الحجاج فيها فى مجالس الأمراء وبيئات الفلاسفة فى شتى الأقطار التى أقام فى فناء أمرائها وملوكها ، وتأثر بهذه النزعات العامة الفكرية والعقلية التى كانت تسود الثقافة فى القرن الرابع ، وزادته خبرة بالحياة وزادت تجاربه فيها سعة فى آفاق تفكيره ، وأن ذلك كله أثر فى عقليته الواعية وغير الواعية ، وأثر فى ذهنه الخصب المنتج ، فظهرت آثار هذا كله فى شعره : حكمة بعيدة الغور ، وأسلوباً دقيق التفكير ، وأفكاراً عميقة المنزع ، وتعرضاً لبعض المشكلات العقلية العامة التى كانت محور حجاج الفلسفة والفلاسفة فى عصره ، حتى إن النقاد لكل ذلك سموه الشاعر الحكيم ، وأشركوا معه فى ذلك أبا تمام، من حيث خلعوا على البحترى لقب الشاعر المطبوع .. ثم أخذوا على المتنبى بعد ذلك اتجاهه بالشعر إلى الفلسفة .

وبعد فكثيرا ما نرى أبا الطيب يمدح رجالات العالم الإسلامى بأنهم كأرسطو فكرا وثقافة ، كما يقول فى ابن العميد :

---

(١) راجع ١٢١ و١٤٥ و١٤٧ مطالعات .

من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا

وأثر هذه الثقافة الفكرية فى نفس المتنبى لم تجعله على كل حال فيلسوفا لأنه لم يخلق للفلسفة ، وإنما خلق للأدب والشعر ، ولكنه أفاد منها دقة نظر وعمق فكر وخصوبة عقل، وكون له من ورائها مذاهب اجتماعية ترسم مناهج جديدة لعلاقة الفرد بالمجتمع لا تصلح أن نسميها مذاهب فلسفية . .
أما الكلام فى مصادر الحياة ومصائرها فقد عافه المتنبى ، وقد عالج فى صباه فتح رتاجه كما يظهر من قصيدته الميمية التى نظمها فى المكتب ، فأتعبه فتحه ثم مل هذا البحث الذى لا تسكن إليه نفسه فقد أخذ — كما يقول الأستاذ العقاد — حينا بمذهب القائلين بأن الانسان ربيب هذه الأرض ، وربيب الزمن ، فهذه الأرواح من جوه ، وهذه الاجساد من تربه ، ثم رأى الناس مختلفين فى خلود النفس فوقف منهم موقف الشك والحيرة :

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

وماله ولهذا الشجب العقيم ؟ فزوى وجهه عن مباحث ماوراء الطبيعة ، ولم يكن له صبر على هذه النزعات والفلسفات التى تبحث فيما وراء الطبيعة ، إنما هو فيلسوف الحياة والمجتمع ، وأثر ثقافته الفكرية الواسعة إنما يظهر بوضوح فى فلسفته الاجتماعية .

— ٤ —

والمتنبى شاعر ولكنه شاعر ذو فكر عميق وقل من كان كذلك من الشعراء ، وقد استمد ذلك من أمله وفشله ، وطموحه وإخفاقه .

ا — فنشأته فى الكوفة ورؤيته ثورات القرامطة فيها ، وكيف يستبد بملكها رجال لايستحقون شرف الحياة فضلا عن شرف الملك ، ذلك مما جعل أبا الطيب يعقد العزم على أن ينال مناهم طامحا رافعا رأسه إلى السماء .

(ب) ودم أبي الطيب العربي وروحه العربية ونشأته في بيئات عربية حميمة ، كل ذلك جعله في نفسه وخلقه وفي شخصيته واتجاهاته وفي شعره وفنه مطبوعا على طابع عربي خطير الأثر في حياته ، ولكن مجد العرب السياسي ونفوذهم الأدبي في عصر المتنبي كان خاملا خافتا ، ففي بغداد وإيران النفوذ البويهي يعصف بمقومات الروح و لمجد العربي ، وفي مصر العرش الاخشيدي تضع دعائمه من كرامة العرب الأدبية . وفي البلاد الأخرى الملك والنفوذ والدولة للعناصر الأجنبية ، وهكذا تغلغل النفوذ الأجنبي في كل بلد ومكان كما يقول المتنبي في معرض التهكم والسخرية أو الحمية والاشفاق :

سادات كل أناس من نفوسهم　　وسادة المسلمين الأعبد القزم

وتلك حال لا فلاح معها للعرب :

إنما النـــاس بالملوك وما　　تفلح عرب ملوكها عجم

ودفع المتنبي طموحه وروحه ودمه إلى أن :

١ ـ يطلب الملك بالسيف والرمح في بدء شبابه ، ثم بأدبه وفنه وشعره في اتصاله بالملوك والأمراء في بدء رجولته بعدما أخفق في ثورته ووسيلته الأولى ، فما هؤلاء الأعبد القزم الذين يحكمون العالم الاسلامي ؟ ماشأوهم وماشأنهم ؟ :

لا أدب عنـــد ولا حسب　　ولا عهـــود لهم ولا ذمم

في كل أرض وطئتها أمم　　ترعى بعبـــد كأنهم غنم

يستخشن الخز حين يلبسه　　وكان يبرى بظفره القلم

لقد كانوا هم شغل أبي الطيب الشاغل ، وهمه المقعد المقيم ، وجدير بهم أن يساموا سوء العذاب :

ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم　　وليس لنا إلا السيوف وسائل

ولا أعاشر من أملاكهم أحداً   إلا أحق بضرب الرأس من وثن

لأنهم لا يستحقون من الإمارة إلا لفظها ، ولا من الانسانية إلا اسمها :

أرانب غير أنهم ملوك   مفتحة عيونهم نيام

وأبو الطيب يمقتهم ويتجنبهم فى بدء حياته :

وجنبنى قرب السلاطين مقتها   وما يقتضينى من جماجمها النسر

وأين هم من هذا الفتى العربى الطموح الأبى العزيز :

أيملك الملك والأسياف ظامئة   والطير جائعة لحم على وضم

من لو رآنى ماء مات من ظمأ   ولو مثلت له فى النوم لم ينم

ودعائم الملك الخلق والمال أو الطموح والإباء ، وقوة النضال مع قوة الصحة :

١ – لذلك ربى أبو الطيب نفسه على حب الفضائل النفسية والاجتماعية والايمان بها والمبالغة فى تقديرها وتقديسها ، فترك لذاته وشهواته ومآرب الشباب :

وترى الفتوة والمروة والأبوة عند كل مليحة ضراتها

هن الثلاث المانعاتى لذتى   فى خلوتى لا الخوف من تبعاتها

وصرف نفسه عن العذارى الغيد :

وغير فؤادى للغوانى رمية   وغير بنانى للرخاخ ركاب

وزهد أولا فى حياة الأسرة حذارا من أن تشغله الأسرة عن كبار أمانيه التى كان فى شغل بها عن كل شيء :

شغلت قلبه حسان المعانى   عن حسان الوجوه والاعجاز

ولئلا يلد نسلا ضعيفا خائرا :

في الناس أمثلة يدور حياتها كمماتها ، ومماتها كحياتها
هبت النكاح حذار نسل مثله حتى وفرت على النساء بناتها

ولأن الدهر ليس أهلا لأن يشتاق فيه إلى النسل :

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

وعاش أبو الطيب في الحياة وبقلبه منها ملالة :

بقلبي ـ وإن لم أرو منها ـ ملالة وبي عن غوانيها ـ وإن وصلت ـ صد

نعم وقف أبو الطيب أمام متع الحياة ولذاتها بين إقدام وإحجام ، فحينا يطلق لنفسه الحرية في ما ـيد من لذاذات :

دع النفس تأخذ قبل بينك وسعها فمفترق جاران دارهما العمر

ويقول :

انعم ولذ فللأمور أواخر أبدا إذا كانت لهن أوائل
ما دمت من أرب الحسان فإنما روق الشباب عليك ظل زائل

ثم ينظر إلى غاياته ومطامحه حينا آخر فيهجر اللذات سعيا إلى أكرم الغايات وطلبا للمجد المنشود :

وللخود مني ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تجاب

وكيف لا يغلب المجد نفسه على شهواتها :

تلك النفوس الغالبات على العلا والمجد يغلبها على شهواتها

وليس المجد زقا وقينة ، إنما هو كفاح طويل في سبيل العظمة والفخار :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الرجال وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

فالمجد هو لذته الكبرى وأنشودته المكرورة وغايته من الحياة ، وأبو الطيب هو قبل كل شيء ترب المعالي ، لا ترب الحسان ولا خدن الغواني الغيد ، ولذلك لم يكن من الشعراء الغزليين كجميل وابن أبي ربيعة ، ولا من دعاة اللذة كبشار وأبي نواس .. إنما كان غزله صناعيا تقليديا لا يمت إلى نفسه بأوثق الأسباب ، وهو حريص على التجديد فيه والمبالغة في شتى أخيلته ومعانيه ، وكثير من غزله تبدو عليه سمات التكلف والإغراق ، وإن بدت فيه أحيانا مظاهر الطبع والجمال كقوله :

إن الذين أقمت وارتحلوا أيامهم كديارهم دول

الحسن يرحل كلما رحلوا معهم وينزل كلما نزلوا

ويذكر أبو الطيب أن حبيباته إنما كنى بهن في شعره عن رماحه وسيوفه الأثيرات عنده :

محب كنى بالبيض عن مرهفاته وبالحسن في أجسامهن عن الصقل

عدمت فؤادا لم تبت فيه فضلة لغير الثنايا الغر والحدق النجل

ومطامع أبي الطيب كانت تسعى به إلى الكمال الإنساني المنشود ، وتقربه منه ، حتى كان الشاعر يرى نفسه مجموعة من الفضائل :

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم

وكان حريصا على الظهور بمظهر العزة والاباء والشمم والكرامة والوفاء ، وعلى الصدق والصراحة وعلى شتى الفضائل والأخلاق ، وبالغ في الاعتزاز بشخصيته ، حتى رأى نفسه كما يقول :

أنا الذي بين الاله به الاقدار والمرء حيثما جعله

ورأى كل رجل - مهما عظم - دونه :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

مفتخراً بعصاميته لا بأسرته :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى ... وبجـدى سموت لا بجدودى

ويقول يرثى جدته :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد ... لكان أباك الضخم كونك لى أما

كما بالغ فى الاعتزاز بشاعريته :

ما نال أهـل الجاهلية كلهم ... شعرى ولا سمعت بسحرى بابل

وكان هذا الاعتزاز مثار وشايات طويلة بينه وبين من اتصل بهم من الملوك والأمراء ، وسببا من أسباب فشله فى إدراك ما كان يصبو إليه من غايات :

وقوة الخلق عند أبى الطيب هى فضيلة الخلق ، فما كان من الأخلاق قويا أو صادرا عن قوة فهو محمدة فاضلة ، وما كان منها ضعيفا أو صادرا عن ضعف فهو مذمة مرذولة ، كن حليما مع القدرة :

كل حلم اتى بغير اقتدار ... حجة لاجىء إليها اللئام

وكن حييا إذا لم يضع عليك الحياء غنيمتك :

فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ... ولا تتقى حتى تكون ضواريا

وكن قانعا إذا وصلت إلى ماتريد من مجد :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ... مافاته وفضول العيش أشغال

واحرص على المال :

ليس التعلل بالآمال من أربى ... ولا القناعة بالاقلال من شيمى

فالمجد للأغنياء :

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

وأما المال فقد حرص أبو الطيب على جمعه وادخاره لأنه كما يقول وسيلة المجد ودعامة التوفيق فى الحياة ، وما أشقى الفقير الطموح :

وأبعد خلق الله من زاد همه ... وقصر عما تشتهى النفس وجده

فلا ينحلل فى المجـد مالك كله ... فينحل مجد كان بالمال عقده

ودبره تدبير الذى المجد كفه إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا خير فى مجد لمن قـــل ماله ولا خير فى مال لمن قل مجـده

٢ — وأما الصحة فرآها أبو الطيب وسيلة العيش وآلة الحياة :

وإذا الشيـــخ قال أف فما مل الحياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحـــة وشبـاب فإذا وليا عن المرء ولى

٣ — وأما النضال فمهده به طويل فغاياته التى لاتنتهى عند حد والتى يصورها فى قوله :

يقولون ما أنت فى كل بلدة وما تبتغى؟ ما أبتغى جل أن يسمى

وقوله :

تحقر عنـدى همتى كل مطلب ويقصر فى عينى المدى المتطاول

غايات تتطلب بذل تضحيات عظيمة ، ولابد للمجد من ثمن :

تريدين إدراك المعالى رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل

والسيادة محفوفة بالمشقات من كل جانب وصفو الحياة من نصيب العاجزين الغافلين أو الحالمين المتعللين الذين ينعمون فى الشقاوة بجهلهم ويشقى كبار النفوس فى النعيم بعقولهم ، وقد بذل أبو الطيب هذه التضحيات راضياً مبتسما فعاش ماعاش ساعياً فى سبيل آماله بين الأقطار والأمصار :

لولا العلى لم تجب بى ما أجوب بها وجناء حرف ولا جرداء قيدود

يؤجج قبس الأمل والظفر فى قلبه شعلة الإقدام :

فـلا قضى حاجتـــه طالب فؤاده يخفق من رغبــه

فتستوى عنده الحياة والهلاك :

ومن يبغ ما أبغى من المجد والعلا تساوى المحايا عنـده والمقاتل

ويستعذب فى سبيلها مرير العذاب مضنياً فى طلبها جسمه وصحته :

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت فى مرادهـا الأجسام

(ب) وأخذ أبو الطيب يثير الروح العربية ويوقظها من سباتها العميق ، فدعاها إلى فضائلها من الطموح والشمم والإباء ودعاها إلى التمرد من قيود الوهن والجبن والذلة والرياء ، فالذل موت وسقام :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه   غـذاء تضوى به الأجسام

ذل من يغبط الذليل بعيش   رب عيش أخف منـه الحمام

من يهن يسهل الهوان عليـه   ما لجـرح بميت إيـلام

ودعاها إلى أن تعتز بشخصيتها وعزتها :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم   بين طعن القنا وخفق البنود

وإلى أن تؤمن بشخصيتها وتسعى لاسترداد حقها المسلوب ، فذلك سبيل المجد لمن يطلب المجد وطريق الحياة لمن يؤثر الحياة ، وكان ذلك أبرز دعوة فى رسالة المتنبى وكانت عاملا قوياً فى إيقاظ الروح العربى من ناحية وفى امتداد شهرة المتنبى — التى كانت من صنع القدر لا تغالب ولا تقهر كما قال رجل لابن العميد — فى كل مكان حل فيه عربى صميم من ناحية أخرى ، كما كانت سبباً كبيراً فى فشله وإخفاقه كما سنذكره بعد قليل .

دعا أبو الطيب دعوته السياسية فى بادية الشام فأخفق ، فذهب إلى الدولة العربية التى أقامها بنو حمدان فى حلب يرضى بمجدها كرامته ويثلج بسلطانها فؤاده ، وأطال المكث مع سيف الدولة ، ولكن كرامته هو قد أهينت ، ولا حياة بدون كرامة ، فليرحل المتنبى ، وإلى من وفى أى اتجاه يسير ؟ ليرحل حيث يرى لآماله الظفر والتوفيق ، إلى بلاط كافور ، ولكن أحلامه لم تتحقق ، فالويل لكافور الذى لا ينتمى إلى العرب بشىء ، وبعداً له وهجرة

من بلاطه إلى الكوفة وبغداد ، ولكن أبا الطيب لاحياة فى بغداد لأن من فيها من الوزراء والعظماء لم يكن لهم مثل عزمه ولاهمته وهم يريدون منه الثناء ، ولا ثناء حيث تجرح كرامته وعزته ، فليترك بغداد إلى بلاط عضد الدولة ، ولكن الروح العربية فى نفس المتنبى توقظه وتدعوه إلى الرحيل ، فليس عضد الدولة بالعربى الذى يشعر الشاعر أن مجده مجد له ولقوميته ، وبلاده بعيدة عن بلاد الضاد والعربى إن نزل بها فهو الغريب الوجه واليد واللسان :

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

وهكذا عاش المتنبى مخفقا فى أمله ، غريباً فى أهله وفى وطنه ، يسير من فشل إلى فشل، ومن إخفاق إلى إخفاق، طلب من الدنيا أن تمطره مجداً وجاها فأمطرته مصائب وآلاما :

أظمتنى الدنيا فلما جئتها مستسقيا مطرت على مصائبا

وعركته الأيام حتى كأن الأحداث حليفته ، وكأنه كان لها نقيبا :

عرفت نوائب الحدثان حتى لو انتسبت لكنت لها نقيبا

وأخذ ينعى حظه من الحياة :

فمالى وللدنيا طلابى نجومها ومسعاى منها فى شدوق الأراقم؟

ورجع من ذلك كله بشيئين خطيرين كان لهما أكبر الأثر فى حياته ورسالته :

أولا : أورثه فشله سخطاً على الحياة ، ونقمة على المجتمع وتشاؤما بالناس حتى لو برز إليه الزمان شخصاً لقتله :

ولو برز الزمان إلى شخصاً لخضب شعر مفرقه حسامى

وامتلأ غيظاً من الأيام :

وغيظ على الأيام كالنار فى الحشا ولكنه غيظ الأسير على القد

ورأى الحياة كذباً وخداعاً :

ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذباً

والزمان إن أحسن عادت لياليه فكدرت الاحسان :

ربما تحسن الصنيع لياليـه ولكن تكدر الاحسانا

وليست آراؤه فيها إلا ثمرة التجربة الطويلة :

عرفت الليالى قبل ماصنعت بنا فلما دهتنى لم تزدنى بها علمـا

ولقد كان حظ المتنبى سيئاً فى زمان ذهب لغيره خيره ، وبقى له شره :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرهم وأتينـاه على الهرم

وذلك غير بعيد من الحياة فإنما :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عمـا مضى منها وما يتوقع

ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

وما الجمع بين الماء والنار فى يدى بأصعب من أن أجمع الجد والفهما

وهل بعد إخلاف الدهر آماله من شيء ؟ .

لله حال أرجيها وتخلفنى وأقتضى كونها دهرى ويمطلنى

وليت القدر خلقه فى أمة غير أمته :

وقت يضيع وعمر ليت مدته فى غير أمته من سالف الأمم

وكذلك كان مع الناس ، فهو يحتقرهم ويذمهم ، ويرى أعلمهم فدماً :

أذم إلى هـذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأشرفهم وغـد

ويراهم مفطورين على شتى الرذائل الاجتماعيـة من شر وخـداع وبهتان ونفاق .

إذا ما الناس جربهم لبيب … فإني قد أكلتهمو وذاقا
فلم أر ودهم إلا خداعا … ولم أر دينهم إلا نفاقا

ويقولون : العدالة ، وأين هي العدالة بين الناس :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد … ذا عفة فلعلة لا يظلم

كما يتشادقون بالصداقة ، والصداقة خداع وزور :

خليلك أنت ، لا من قلت خلي … وإن كثر التجمل والكلام
ولما صارت ود الناس خبا … جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه … لعلمي أنه بعض الأنام

وكثيراً ماتكون الصداقة سبب الشر للصديق :

ومن العداوة ماينالك نفعه … ومن الصداقة مايضر ويؤلم

وكيف يمجد أبو الطيب الناس وهم مثيرو الشر في الحياة :
كلما أنبت الزمان قناة … ركب المرء في القناة سنانا

يتنافسون على الحياة :

إنما أنفس الأنيس سباع … يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلابا … واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

والحياة لا تستحق أن يتنافس عليها :

ومراد النفوس أصغر من أن … نتعادى فيه وأن نتفانى

وأبو الطيب يترفع بنفسه عن أن ينسب إلى هؤلاء :

وما أنا بالعيش فيهم … ولكن معدن الذهب الرغام

وإذا كانت الدنيا بأسرها ليس فيها مكان يسر بأهله الجار المقيم :

أما في هذه الدنيا مكان … يسر بأهله الجار المقيم
تشابهت البهائم والعبدى … علينا والموالي والصميم
وما أدري أذا داء حديث … أصاب الناس أم داء قديم ؟

فليضطرب فى الأرض أن فقد فى مكان منها عزته وكرامته :

فى سعة الخافقين مضطرب — وفى بلاد عن أختها بدل

فلا صحبته مهجته إن استكانت إلى ظلم أو نامت على ذل :

فلا عبرت بى ساعة لا تعزنى — ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

ولم يقف أبو الطيب أمام سخطه على الحياة ونقمته على الناس موقف الحائر المتردد بل مضى قدما إلى غاياته التى لم يتخل عنها داعياً : إلى احتقار الناس لأنهم مهما عظمت منزلتهم لا يستحقون الاجلال ، وإلى البطش بهم لأنهم لا يستحقون الرحمة والرحمة ليست فى قلوبهم :

ومن عرف الأيام معرفتى بها — وبالناس روى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظفروا به — ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

وإلى إحلال مبادىء القوة والعنف والقسوة محل العدالة والخلق والرحمة فذلك جدير بالناس وبالمجتمع ، وجعل الحق للقوة وحدها :

من أطاق التماس شىء غلابا — واقتسارا لم يستطعه سؤالا

وهذه هى سنة الحياة فى نظر المتنبى ، وهى حياة حرب يجب أن نخوضها فى سبيل القهر والعز والسيادة أو عملا بإرادة القوة كما يقول العصر الحديث ، وإذا كان داروين يروى أن أصل الفضائل هو إرادة الحياة ، ونيتشه يراها فى إرادة القوة فرأى المتنبى توفيق الرأيين :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه — حريصاً عليها مستهاما بها صبا

فحب الجبان النفس أورده التقى — وحب الشجاع النفس أورده الحربا

فكل إنسان إنما يحب حياته هو لا كل حياة ، فلا تناقض بين حب المرء حياته وحبه القوة بعض الأحيان (١) .

ثانياً : وكانت هذه الحياة العميقة الفكرة البعيدة الأمل الخصبة التجارب سبباً فى نضوج ملكات المتنبى الفكرية حتى أصبح أبعد شعراء العربية منزع فكر وأعمقهم تجربة وحكمة وأصدقهم إفصاحاً عن خبايا النفس البشرية ، وشدوا بثمرات التجارب الإنسانية التى فهمها المتنبى ووعاها وأحاط بها عن تجربة واقعية ، وأبو الطيب كان رجلا واقعياً فى ثقافته واتجاهاته العقلية والوجدانية ، ولكنه كان مضطرباً فى حياته السياسية والاجتماعية ، يسير فى اتجاه غير الاتجاه الذى كان يسير فيه الناس ، ويدعو إلى آراء لاتتلاءم مع ما ألفه الناس ودرجت عليه المجتمعات ، ويتوسل إلى غاياته بوسائل تبعده عن الظفر والفوز ، فالمتنبى كما يقول العقاد « كان شريكا فى العظمة الدنيوية والأخلاق العملية لرجال عصره فى ما هو من باب الشعور والملاحظة ولم يكن شريكا فى كل ما هو من باب الانحياز والتنفيذ ، كان يشعر شعور عظماء الرجال ولكنه لايتمم الأمور كما يتممونها ولايسوس الحوادث كما يسوسونها »(٢) .

وقد أيقن أبو الطيب أن الشعر لايكفى وحده للوصول إلى مايطمح إليه من أحلام فغمر نفسه فى مجال الحياة السياسية لعله يظفر بتقدير السياسة له وخدمتها إياه ، فقضى جل حياته فى بلاط الملوك والأمراء ولكنه لم يستطع أن يظفر بهذا التقدير وتلك المكافأة ، لأن أبا الطيب لم يكن من رجال السياسة ، وكانت روحه ونفسيته وأخلاقه ومناهجه العملية بعيدة عن

---

(١) ١٦٥ - ١٧٣ مطالعات .

(٢) ١٢٦ و ١٢٧ مطالعات .

ديبلوماسية السياسة وخداعها ، كان يؤمن بشخصيته ويجعلها فوق شخصية الملك أو الأمير ، مما كان يغضب عليه الملك أو الأمير ، ويريان فيه مغامراً سياسياً خطراً على عروشهم وكيانهم ، وكان يحاول أن يغطى على رجال الحاشية والسياسة والأدب والشعر ، فنقموا عليه ، وكان يتعصب للعرب والعربية تعصباً كبيراً ، لأن نفسه العربية لاتريد أن ترى شيئاً فى الحياة العربية لغير العرب ، ولكن العالم الإسلامى فى ذلك الحين كانت تدير أموره أيد غريبة عنه من أبناء الترك والفرس والروم وسواهم من العناصر القوية التى اندمجت فى الدولة الإسلامية وتثقفت بثقافتها ونالت الحظوة والتقدير فى قصور ملوكها ، فنظرت هذه العناصر القوية إلى المتنبى بعين الحذر والخوف ، والمتنبى الذى حلم فى شبابه بتكوين دولة عربية صرفة فى الشام يسوسها ، والذى يكف عن طلب الحكم والولاية من كل أمير يتصل به ، والذى دأب على التهكم بهذه العناصر الأجنبية ، والسخرية بالملوك الذين لا يمتون إلى الروح العربية بصلة ، أفما يكون مصدر خطر على نفوذ هذه العناصر الكبيرة بدعواته الجريئة وتهكمه الساخر ؟ ، لقد كان أبو الطيب بمزاجه وطبيعته أرستقراطيا إلى أبعد حدود الأرستقراطية ، حتى احتقر أن يرضى بالحال الجميل إذا ساواه فيه من هو دونه ، ويأبى الصيد الشهى إذا اجتمعت عليه كرام الطير وبغاثها :

وشر ما قنصته راحتى قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

وهو قد يؤثر الموت على حياة يشاركه فيها حساده :

وما موت بأبغض من حياة أرى لهم معى فيها نصيباً

لذلك حورب أبو الطيب من كل عنصر وكل طبقة وفى كل بلاط ، ولم يدعه هؤلاء ولا هؤلاء يظفر بما كان ينشده من آمال ، ودعوه إلى أن يعيش مشرداً فى البلاد غريب الأهل الوطن ، بل كان مصرعه بسبب منهم

ففتك فاتك به إنما كان مؤامرة سياسية دبرتها السياسة أولا ودفعتها الأغراض الشخصية أخيراً ، فقضت على حياة هذا الشاعر العظيم ، ويؤيد ذلك ماذكره الصبح من أن المتنبى كان يستقل عطاء عضد الدولة بجانب عطاء سيف الدولة وأنه جهز إليه حين انصرف من بلاطه قوما من بنى ضبة فقتلوه (٩٩و١٠٠ الصبح) ونقله عند العباسى فى معاهد التنصيص (١٠ و١١ و٢ح) ، ولو أن المتنبى كان كسواه من الزعماء الذين يسعون إلى مجد أشخاصهم ويفنون شخصياتهم فى شخصية الملك أو الأمير لعقد على رأسه إكليل الظفر والفخار .

وظاهرة أخرى فى حياة أبى الطيب تستحق العجب والتساؤل ، فما بال أبى الطيب الكوفى يسعى فى شبابه إلى الشام ثم فى رحولته إلى مصر ولم يسع إلى بغداد ؟ وما باله يمدح الحمدانيين الأخشيديين وسواهم من الشخصيات البارزة فى العالم الإسلامى فى عصره ، ولم يمدح خلفاء بنى العباس ولا من اتصل بهم من الأمراء والوزراء والعظماء ، ورفض الأيدى الكثيرة التى مدت إليه فى بغداد بالرجاء ؟

أعتقد أن ذلك مبعثه المتنبى نفسه وما كان يتأجج به صدره من غيظ على العناصر الأجنبية التى استبدت بخلافة بنى العباس فى بغداد ، ومن عقيدة إسماعيلية تأثر بها أو آمن بها ، فكره بسبب أيهما الخلافة العباسية وخلفاء بنى العباس ، ومن طموح إلى الملك فى بلاد بعيدة عن سيطرة بغداد وولاتها ، ولم تكن تلك الأقاليم إلا الشام ، حيث تتصارع فيه القوى السياسية بين بنى حمدان وبنى الأخشيد،ثم حلب حيث الدولة والملك والرعية عربيو الدم والعقيدة واللسان ، ثم مصر حيث الملك ضعيف العنصر ضئيل الشخصية لا يطغى على الشاعر ولا يبعد عليه أن ينال فى دولته آماله ، ثم شيراز حيث يستريح من آلام الخصومة والحقد والمنافسة فى دولة يطمح أن ينال فى ظلالها غاياته ، وعلى كل حال فإن ذلك لم يمح من قلب الشاعر

هذه الصلات الروحية التى يشعر بها كل مسلم نحو الخلافة العباسية فى بغداد مما ترى مظهره فى شعر الشاعر ، فهو حينا يمدح سيف الدولة بتبعيته لدولة الخلافة ويذكر أنه سيف من سيوفها :

وشركت دولة بنى هاشم فى سيفها   وشققت خيس الملك عن رئباله

ويكرر هذا المعنى فى قوله :

يا سيف دولة هاشم من رام أن   يلقى منالك رام غير مرام

يقول هو سيف دولة الخلافة وبه تصول على الأعداء كما يقول شارح ديوانه ، ويقول(١) :

قلد الله دولة سيفها أنت حساما بالمكرمات محلى

وله فيه :

إن الخليفة لم يسمك سيفها   حتى ابتلاك فكنت عين الصارم

وإذا تتوج كنت درة تاجه   وإذا تختم كنت فص الخاتم

وحينا يذكر دولة الخلافة بالتقدير فيقول فى سيف الدولة :

إن الهمام الذى فخر الأنام به   خير السيوف بكفى خيرة الدول

ثم ترى الشاعر حين عصفت بموطنه الكوفة ثورة القرامطة وأعادها دلير القائد إلى نفوذ دولة بنى العباس يمدحه بقصيدة من رائع شعره(٢). فهل ينبىء ذلك عن حب المتنبى لتبعية الكوفة للخلافة العباسية ؟ وأيا ما كان فإن كان المتنبى لم يقم ببغداد حذارا على نفسه وعلى مكانته من عسف النقد ولدد الخصومة وبطش هذه العناصر الأجنبية الساخطة .

---

(١) ١٣ ج ٤ عكبرى

(٢) ٢٨٩ — ٢٩٩ ج ٣ المرجع .

— ٥ —

ولقد بلغ التراث الشعرى قبل عهد المتنبى وفى عصره مبلغاً كبيراً من الحياة والقوة والابتداع ، فشدا بآمال الحياة وآلامها وترنم بالجمال الإنسانى فى شتى مظاهره ، ونطق بما يختلج فى قلوب الناس من عواطف هذبتها الحضارة ، ومشاعر أغرقها الترف والنعيم ، وعبر عما يتردد فى صدر المجتمع من رجاء وشكوى ، وما تطمح إليه الإنسانية من مثل عليا فى الاجتماع والسياسة وسواهما من شتى نواحى الحياة .

وتطور الشعر فى أسلوبه مثل ما تطور فى اتجاهاته ، فاتسع للتعبير عن جميع هذه الأفكار ، والدعوة إلى كل تلك المذاهب ، وغلبت على أساليبه الشعرية سمات الجمال والترف البيانى، وأخذ يسير بعد عهد أبى تمام والبحترى فى سبيل النضج ، والقوة يغلب عليه الروح الشعرى المطبوع ، وتظهر فى أسلوبه القدرة على أداء الفكرة البعيدة مهما طالت واستعصت ، فى انسجام وتساوق ، لايشوبهما شائبة من التفكك أو الضعف أو الاستكراه .

وجمع أبو الطيب هذه الثروة الأدبية من الشعر فأوعى ، قرأ وحفظ ، وهزته طبيعته الشاعرة وفطرته الحساسة ، هزة الطبع الشاعر والعاطفة المبدعة والروح الوثاب فاجتمعت فى نفسه الشاعرة القادرة أسباب الشعر : من الذوق الأدبى البليغ والعاطفة الشعرية المتأججة ، والدراسة الأدبية العميقة لألوان الأدب وفنونه ، والنشأة الأدبية القوية بين رجال اللغة والأدب فى البادية ، وبين أئمة العربية وشيوخها ، فى مجالس العلم ونوادى الأدب ، ثم ذلكم الخيال الشاعر ، وهذا الطموح الوثاب ، كل ذلك فجرينا بيع الشاعرية فى صدره ، وأجرى جداول الشعر فى قلبه وعلى لسانه .

وصاغ أبو الطيب شعره صياغة فنية تتجلى فيها روح القوة والحرية

والحياة ، وقوة التعبير سمة من سمات شعر أبي الطيب نجدها فى ألفاظه وأساليبه ، كما نجدها فى معانيه وقد أفاضت روح القوة فى نفس الشاعر على شعره وفنه هذه السمة الواضحة ، وكذلك حرية التعبير من أهم خصائص المتنبي الفنية ، فقد كان مع إحاطته التامة باللغة وأساليبها يطلق نفسه وفنه من كل قيد لا يتلاءم مع شعوره وإلهامه الشعرى وذوقه الفنى الحساس ويختار من الصيغ اللفظية أو البيانية ما يوائم شعوره ، ويعبر عن عواطفه ، ويطرد مع روحه وشخصيته وأمانيه ، يرسل القصيدة إرسالا لا يبالى بنقد النقاد :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وهو فى ذلك نظير الفرزدق وأبى تمام اللذين كانا ينهجان هذا الأسلوب ولقد هب النقاد فى عصر المتنبى وبعد عصره يؤاخذونه على ما أسرف فيه من استكراه لفظ ، وتعقيد معنى ، وخروج على قواعد اللغة ، أو على الوزن الشعرى ، ومن استعماله الوحشى النابى ، وهبوطه أحيانا إلى مستوى الركاكة والسفسفة ، ومن إفراطه فى المبالغة والاغراق ، وخروجه على المنهج العربى وذلك ما أخذه عليه الثعالبى فى اليتيمة ، فقد لاحظ شدة التفاوت فى شعره وأنه يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط ، هذا إلى تعسفه فى اللغة والتراكيب وقبح المطلع أحيانا . . غير أن هذه الحرية كشفت لنا عن نفس الشاعر وآرائه وآماله فى أسلوبه ، ولم تستطع قيود البيان والشعر أن تحد من نزعاته، وتقيد من حريته ، أو تخفى فى ثناياها اتجاهاته وأفكاره ، لا ولم تستطع هذه القيود أن تطمس روح الشاعر فى شعره أو تضعف شخصيته فى أسلوبه ، بل تستطيع أن تقرأ آية قصيدة من قصائده ، أو بيت من أبياته ، فسترى فيما تقرأ روح الشاعر تطل عليك ، وتتحدث إليك ، وتتناجى بآمالها وآلامها لديك ، فتهز من عواطفك ، وتدعك مؤمنا بما آمنت به من : نزوع إلى المثل العليا ، وثورة صاخبة على الحياة ، ثم تحفز همتك إلى السير فى النهج الذى يريده الشاعر الثائر الداعية .

وفى شعر أبى الطيب تظهر سمة أخرى لها خطرها وأثرها ، فالشاعر لايترك هذا المذهب الفنى الذى رفع لواءه من قبل أبو تمام ، إذ يؤثر تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فهو من شعراء المعانى وشعره امتداد لمذهب أبى تمام الشعرى ، والخصائص الفنية البارزة تتجلى بوضوح فى شعر الشاعرين لاسيما فى روعة التعليل ، وسمو التخييل ، ودقة الطباق ، وجمال الجناس ، وسحر الاستعارة والكناية والتشبيه ، وبلاغة التقسيم والمقابلة والتفسير ، والتورية والتوجيه ، ونحو ذلك .

وهو كأبى تمام فى كثرة الحكم والأمثال حتى قيل : « أبو تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى » ، غير أن أبا الطيب كما قلنا خرج على أساليب العرب المعروفة فى اللغة والتراكيب فى بعض شعره ، وأطلق الشعر من بعض القيود التى قيده بها أبو تمام ، ومن ثم أطلق عليه زعيم الطريقة الابتداعية فى الشعر العربى لخروجه على هذه الأساليب وقلة كلفه بالقيود الصناعية .

على أن فى شعر المتنبى روح العمق والقوة التى لاتظهر على أسلوبه سمات التكلف ، وإن كان بيته يضيق أحياناً بمعناه فيعسر فهمه . ولقد سئل أبو الطيب عن صلته بأبى تمام فقال(١) :

« أولا يجوز للأديب أن يعرف شعر أبى تمام ، وهو أستاذ كل من قال الشعر » ويقول ابن الأثير : « إن أبا الطيب أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، وكان المتنبى ينشد بدائع أبى تمام ويروى جميع شعره ، ولقد امتاز أبو الطيب كما أسلفنا بعمق الفكرة الشعرية ، ويقظة وبعد الخيال الأدبى ، الذى وعى التراث الشعرى.

---

(١) ٨٠ صبح

للقدامى والمحدثين ، فهضمه وأخرجه أدباً حياً جديداً ، رائعاً فى فكرته وحكمته ، روعته فى مادته وصياغته ، قوياً فى دعواته ومراميه . قوته فى أسلوبه ومعانيه .

وبذلك الطبع وفى هذه الأساليب نظم أبو الطيب روائع فنه وإلهامه ، داعيا إلى حياة اجتماعية وقومية قوية ، تتحرر فيها نفوس بنى قومه من أغلال الذل والاستعباد ، وتتطلع إلى حياة العزة والكرامة ، لتسترد الروح العربية نفوذها ومجدها ، ويستعيد أبناء الشعوب العربية تراثهم المفقود ، ومجدهم المنشود .

وكان شعره مثالا رائعاً للحياة القومية فى عصره ، وصورة بارزة للحياة الفكرية والأدبية ، ثم كان فيه تصوير للنزاع بين المثل العليا والحقائق الواقعية ، ونضال بين الألم والأمل ، وبين اليأس والرجاء والسخط والرضاء ، والحب والبغض ، وفيه صورة زاهية لثورته النفسية المتشائمة ، فى العصر الحديث ، ولقد حارب أبو الطيب الضعف الإنسانى فى جميع مظاهره كما حاربه « نتشه » ودعوته الاجتماعية النظرية الداعية إلى القوة والطموح التى دعى إليها « نتشه » ودعى إلى الثقة بالنفس والعمل للحياه بأقصى ما يمكن من قوة وإقدام كما دعى إليه « نتشه » ، وأصل الفضائل جميعها عند الرجلين هو إرادة القوة والسعى إليها والظفر بها فى شتى صورها وذلك هو السعادة المنشودة المرتجاة ، وبين آرائهما كثير من ألوان الاتفاق تراها فى « مطالعات » للعقاد (١٥٧ — ١٦٣) وشعر المتنبى يتحدث كثيراً عن منازع الحياة البشرية ويصف الطباع الإنسانية وصف المحيط بها الذى أكلها تجربة وبحثاً ، وقد امتاز شعره بسمو الحكمة الإنسانية ودقة تغلغلها فى صميم الحياة وإدراكها لبواطن الأمور وتمشيها مع ثمرات التجربة والواقع .

وشعره فوق ذلك تصوير بارع لحياة الشاعر نفسه بما كان يختلج فى صدره من طموح إلى المجد وثورة على نظم السياسة والاجتماع ، ودعوة

إلى القضاء على مظاهر الضعف فيها بظبا السيف أو بشباة اليراع . . . .
وأبو الطيب رائع فى رثائه كما هو رائع فى مدحه وفخره وهجائه ووصفه وحكمته .

وعلى رثائه مسحة من الفلسفة الحائرة التى يستمدها الشاعر من ثقافته وحياته ، وبعضها فلسفة الحياة والموت والفناء والخلود ، كما يودعها فلسفة الحزن والبكاء والصبر والعزاء ، ومدحه ليس تفانياً فى شخصيات ممدوحيه ، إنما هو اعتزاز بشخصيته ونفسيته ، والشاعر يتخذه سلماً يصعد عليه إلى ذروة المجد والسلطان

وتشيع فى أعطاف هجائه روح التهكم والسخرية والإقناع ، وفلسفة السخرية نشدها المتنبى فى ثورات غضبه وسخطه فأجاد الحديث فيها فى دقة وخفاء ، ولكنها عند ابن الرومى نزعة طبيعية فى نفسه ظهرت فى شعره ، فكان أبعد الشعراء منزعا فى تصويرها ، وإبعاد مرماها ، وإصماء وقعها ، وترى روح السخرية عند المتنبى فى أهاجيه لكافور ، وفى مدائحه التى كان يثنى بها عليه وكان يطوى فيها المدح على الهجاء حذقاً منه بصنعة الشعر كما يقول ابن جنى(١) ، ويمكننا أن ترجع روح الشاعرية عند المتنبى إلى بعد آماله ، وطول إخفاقه فيها ، وسخطه على الناس والحياة إلى روح العظمة وشذوذ العبقرية فى نفسه ، وإلى نهمه فى الانتقام ممن يتعرض له بشر أو يحول بينه وبين غاياته وهى فى وضوحها وغلبتها على شعره لايعادلها إلا دعواته الساخطة وآراؤه المتشائمة الناقمة على الحياة والأحياء ، وأبو العلاء يستمد من أبى الطيب هذا الاتجاه ، وإن كان يخالفه فى بواعثه وفى نتائجه ، فسخط أبى العلاء وتشاؤمه يقوم على شعور وثيق يبعد الانسانية عن حياتها

---

(١) ٣٧٩ ج ١ العكبرى .

المتنبى ، أما تشاؤم أبى الطيب فراجع إلى إخفاقه فى آماله ، وسخط أبى الطيب ينتهى به إلى خوض غمار الحياة دون مبالاة بالحياة ، وسخط أبى العلاء ينتهى إلى الزهد فيها والانصراف عنها .

وقد كان هجاء أبى الطيب معولا هدم به صروح المجد التى أقامها من هجاهم ، فإذا هم صورة مشوهة هى سخرية الأجيال وحديث القرون .

ويبلغ وصفه مبلغ الروعة والقوة حــين يصف به معارك القتال وحومات الوغى وروح البطولة واضحة من قصائد المتنبى لاسيما فى الفترة التى قضاها فى بلاط سيف الدولة حيث الصراع الدائم والكفاح الطويل بين سيف الدولة وأعدائه .

وفخره حديث عن عصاميته واعتزاز بشخصيته وكرامته وتصوير لآماله وغاياته . وللمتنبى نسيب ولكنه متكلف مصنوع ضئيل فى معانيه ، بعيد عن روح الغزل فى أسلوبه ، لأنه لم يكن بين الغوانى وقلب أبى الطيب صلة ، فهو طالب مجد وداعى قوة وشاعر سيف ورمح ورسول فضيلة ومثل ، فما له وللغوانى والنسيب بهن؟ والنسيب إنما هو وحى الحب الصادق والروح الوادعة والعواطف المينة حين يقع القلب فى أسر الهوى ، وما أبعد المتنبى عن ذلك ، وهل عرف الحب من يقول :

وما العشق إلا غرة وطماعة ... يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادى للغــوانى رمية ... وغير بنــانى للرخاخ ركاب

وهو الذى يدعو على الغوانى مثل هذا الدعاء الجاف :

أيا خــدد الله ورد الخدود ... وقد قــدود الحسان الغيد

وليس لنسيب المتنبى خطر فى روحه ، إنما أثره فى فنه وأسلوبه كقوله :

سقاك وحيانا بك الله إنمــا ... على العيش نور والخدود كمائمه

وقوله :

نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة ... لمن بان عنه أن نلم به ركبا
نذم السحاب الغر في فعلها به ... ونعرض عنه كلما طلعت عتبا
ذكرت به وصلا كأن لم أفز به ... وعيشاً كأني كنت أقطعه وثبا

ونسيبه على العموم تقليدي بحت ، ولم يكن المتنبي ممن شغفوا بجمال الطبيعة وأسرارها ، ولا ممن تأصلت في نفوسهم روح المرح والفكاهة ، ولكنه جاد ، أقبل بجملته على جهاد الحياة ، وشعره صورة لما يختلج في النفوس المجاهدة من آمال . وروح الخيال عنده كما هو عند أبي العلاء ضعيف إذ كانا رجلا حقيقة وتفكير لا خيال وتصوير .

وشهرة المتنبي الأدبية الذائعة ترجع إلى خصائص فنه الأدبي كما ترجع إلى عوامل أخرى سياسية واجتماعية :

فحياة أبي الطيب في قصور ملوك الشرق وأمرائه : الحمدانيين والاخشيديين والبويهيين ، وفي عواصم العالم الإسلامي إذ ذاك : حلب ودمشق ومصر والكوفة وبغداد وشيراز ، وتعرفه برجالاتها وزعماء النهضات الثقافية والفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية فيها مما أذاع في العالم الاسلامي شهرته ، ثم هذه الخصومات العنيفة التي مني بها المتنبي في كل بلد حل فيه ، وتضاؤل الشعراء عن مجاراته أو تحديه في سحر القريض ، ثم ذلك التجاوب بين عواطفه وشتى العواطف الإنسانية ، وهذا التساوق بين آرائه وتجاربه وحكمة الحياة ، والتمازج بين مشاعره ومشاعر خاصة الأدباء والمفكرين ، وهذا السمو بنفسه وبالفن الذي يؤدي رسالته كل ذلك كان من عوامل إذاعة شهرته الخالدة .

وقد تأثر بشعره الكتاب والشعراء والأدباء في عصره وبعد عصره ،

فالصابي والصاحب وسواهما من الكتاب المعاصرين له اقتبسوا من شعره فى رسائلهم ، وكذلك نسج الشعراء على منواله وحاكوه فى شتى العصور ، لاسيما فى حركة الأحياء الأدبى فى العصر الحديث ، وعصبية شاعر كأبى العلاء له هى عصبية للفن والأدب قامت برغم بعد الزمن وانتفاء المؤثرات بينهما .

— ٦ —

ولا نكاد نجد شاعراً اختلف الناس فى منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء فى عهده وبعد عهده مثل المتنبى ، فقد افترق النقاد فيه فرقاً ثلاثاً :

فطائفة بالغت فى التعصب له ورفعته إلى منزلة كبيرة فى الأدب وعلى عرش القريض .

وطائفة بالغت فى التحامل عليه والوضع من شأنه وشعره ، فوضعته فى مكانة دون مكانته ، ومنزلة دون منزلته لخصومة خاصة بينهم وبين الشاعر وحده ، أو لخصومة عامة بينهم وبين المحدثين جميعاً ، وأغلب هذه الخصومات نشأت بتأثير عواطف شخصية ومنافسات أدبية وأغراض سياسية ، والقليل الأقل منها كان بريئاً من الغايات لم تدفعه إلا يد النقد الأدبى النزيه .

وطائفة أخرى جعلت تعصبها للأدب ، لا له فعرضت ووازنت ونقدت وحكمت على ضوء العدالة الأدبية ، وكانت هذه الخصومات سبباً فى كثرة الدراسات الأدبية التى تدور حول شعره ، وكان فيها ثروة كبيرة للنقد الأدبى خاصة وللأدب والشعر والبيان عامة .

وحسبك أن المتنبى شرح شعره وعلق عليه وألف فى نقده وكتب عن شعر فحول الأدباء والنقاد والعلماء ، من المشرقين والمستشرقين .. كتب عن المتنبى الثعالبى م٤٢٩ فى الجزء الأول من اليتيمة كتابة فيها دراسة لحياته

ونقد لشعره، وترجم له ياقوت م ٦٢٦ هـ[١]، وابن خلكان م ٦٨١هـ[٢]، وألف البديعي م١٠٧٣ هـ في حياته وشعره كتابه «الصبح المنبي». وكذلك فعل كثير من كتاب الأدب في العصر الحديث نخص منهم المرحوم السيد محمد توفيق البكري في كتابه «أخبار أبي الطيب المتنبي» و«المتنبي» للأستاذ جبري و«مع المتنبي» في جزأين للدكتور طه حسين، و«ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام» للدكتور عبد الوهاب عزام، و«المتنبي» للاستاذ محمود محمد شاكر، وقد نشرته مجلة المقتطف في عدد خاص، ومجلة الهلال العدد العاشر عام ١٩٣٥ الخاص بالمتنبي، وصحيفة دار العلوم، ثم هذه الدراسة للمؤلف، وكان العيد الألفي لذكرى أبي الطيب عام ١٩٣٥ هو المثير لهذه الدراسات، فامتلأت الصحف والمجلات بالحديث عن حياته وشعره وظهرت المؤلفات الحافلة بالبحوث الأدبية فيه، وفي «مطالعات» للعقاد و«حصاد الهشيم» للمازني دراسة واسعة للمتنبي وفنه، وقد شرح ديوانه شرح دراسة وتحليل ونقد ابن جني م ٣٩٢ هـ في ثلاثة مجلدات، وله كتاب في «معاني أبياته». ولابن فورجة: «التجني في الرد على ابن جني» و«الفتح في الرد على أبي الفتح»، ورد على ابن جني كذلك علي بن عيسى الربعي المتوفى سنة ٤٢٥ هـ في كتابه «التنبيه»، وشرح ديوانه كذلك ابن الأفليلي م ٤٤١ هـ، وأبو العلاء م ٤٤٩ في كتابه «اللامع العزيزي في معجز أحمد». والواحدي م ٤٨١هـ، وعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ والتبريزي م ٥٠٢هـ، والعكبري م٦١٦هـ واليازجي والبرقوقي في عصرنا الحديث.

ونقد شعره كثير من النقاد في مختلف العصور، فللصاحب م ٣٨٥ هـ في نقد شعره رسالته «الكشف عن مساوي شعر المتنبي»، وللخوارزمي م

---

(١) ٢٦٦ ج ١ طبقات الأدباء.

(٢) ٣٦ ج ١ ابن خلكان.

م ٣٨٣ ﻫ كتاب مفقود[١] ، ولأبى الحسن الجرجانى م ٣٩٢ ﻫ كتابه الممتع « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، وللحاتمى م ٣٨٣ ﻫ « رسالته الحاتمية » وكتابه « جبهة الأدب » تحدث فى الأولى عن مناظرته للمتنبى ، وفى الآخر عن سرقاته من أرسطو (٢) ، ولمحمد بن وكيع المصرى الشاعر م ٢٩٣ ﻫ كتابه « المنصف » فصل فيه سرقات المتنبى[٣] ، وللعميدى كتابه « الأبانة » وقد نقل عنه البديعى كثيراً من نقده وناقشه[٤] ولابن حسنون المصرى كتابه « نزهة الأديب فى سرقات المتنبى من حبيب » ، وألف أديب آخر كتاب « المآخذ الكندية من المعانى الطائية » أى سرقات المتنبى من أبى تمام » ، وغير ذلك من كتب النقد التى تدور حول شعر المتنبى » .

وقد أبدى علماء الأدب فى شتى العصور رأيهم فى المتنبى وشعره كالشريف الرضى م ٤٠٥ ﻫ (٥) وابن رشيق م ٤٥٦ ﻫ فى « عمدته » وابن خلدون م ٨٠٨ ﻫ فى « مقدمته » وابن الأثير م ٦٣٧ ﻫ فى مثله « الثائر » وابن شرف القيروانى م ٤٦٠ ﻫ فى « مقامته عن الشعر[٥] وسيف الدولة الحمدانى م ٣٥٦ ﻫ[٦] وابن العميد م ٢٦٠ ﻫ وأبو فراس الحمدانى م ٣٥٧[٧] وابن خالويه النحوى (٨) وسيبويه المصرى[٩] والحاتمى[١٠] . وقد عرض الكيلانى فى كتابه « صورة جديدة من الأدب العربى » مناظرة الحاتمى لأبى الطيب ،

---

(١) ١٦١ صبح ، ٢٦١ ج ٢ النثر الفنى .

(٢) ١١١ — ١١٩ ج٢ المرجع .

(٣) ١٥٨ و ١٦١ صبح

(٤) ١١٤ — ١٥٩ صبح .

(٥) ١٠٣ صبح .

(٦) ٤٣ صبح .

(٨) ٤٦ — ٤٨ صبح .

(٨) ٤٥ و ٩٠ — ١٠٣ صبح .

(٩) ٦٣ صبح .

(١٠) ٧١ - ٨٠ صبح ، ١٠٦ - ٢٧ صور جديدة الكيلانى .

وغير هؤلاء من الباحثين وتقده كثير من الكتاب المحدثين ، وكثير من المستشرقين :

مثل : دايسكى ، دى سامى ، بواين ، بركلمان ، نيكلسون ، هامر ، ديتريشى ، وكتب المستشرق هندلى فى تاريخ حياة أبى الطيب بحوثاً قيمة نشرها فى القرن التاسع عشر .

ويطول بنا البحث لو أحصينا رأى كل ناقد وأديب ، من هؤلاء وغير هؤلاء .

وبعد فهذا هو أبو الطيب المتنبى شاعر العربية فى حياته وشعره وشاعريته وحكمته . . وإلى هنا نمسك القلم ، محيين عبقرية ذلكم الشاعر العظيم .

— ٧ —

بين الصاحب بن عباد والمتنبى (١)

كان فى المتنبى كبر وزهو ، وكان يعتد كل الاعتداد بنفسه وفنه ، حتى رأى شعره يتبوأ فى الشعر العربى عروش الامارة التى نشدها لنفسه فأخفق وحرم منها :

إن هذا الشعر فى الشعر ملك   سار فهو الشمس والدنيا فلك

ورأى أهل الجاهلية من الشعراء تقصر عن مداه :

ما نال أهـــل الجاهلية كلهم   شعرى ولا سمعت بسحرى بابل

وبعد أن بلغ من المجد الأدبى منتهاه ، كان أبلغ شحيح بشعره على رجالات العالم الاسلامى وشخصياته البارزين ، فلم يمدح أحداً إلا فى القليل النادر من الذين تربطهم بالشاعر صلات خاصة ، أو ممن كان يسعى لديهم فى سبيل تحقيق مطامحه فى الامارة .

وفى عام ٣٥٣ هـ كان المتنبى فى بغداد فأخذ يفاوضه رجالاتها كالصابى سنة ٣٨٣ هـ والمهلبى الوزير فى أن يقلدهم مدحة من مدائحه فاعتذر وانتظر معز الدولة الملك والخليفة العباسى أن يشيد أبو الطيب بدولتهم فلم يفعل ، فأثار وجود المتنبى مشكلات سياسية وأدبية ، خرج من مأزقها أبو الطيب ، فيمم وجهه شطر شيراز حيث عضد الدولة ، ينشد منه ولاية يتقلدها أو عرشاً يتبوؤه . وطمع الصاحب بن عباد فى زيارته له بأصفهان ، فكتب إليه

---

(١) للصاحب كتاب « الأمثال السائرة من شعر المتنبى » (١١ و ٥٠٢٤ أدب مخطوط — دار الكتب المصرية) .

يرحب بقدومه ويعلن استعداده لأن يشاطره ماله ، ولكن أبا الطيب أبى أن يقلد شعره شابا ليس فى يده تحقيق آماله البعيدة ومطامعه الواسعة ، فرفض عرض الصاحب شاخصا إلى عضد الدولة ، لنفس غاياته ، لا رغبة فى إشباع شهواته :

ول السلاطين من تولاها والجأ إليه تكن حدياها

وكان رفض المتنبي اليد التى مدها الصاحب إليه باعثا على عداوة « ابن عباد » له ، ونقده إياه ، وحمله الأدباء والكتاب على ثلبه ومهاجمته بسلاح عنيف من أسلحة النقد الأدبى الجائر ، وألف بباعث العصبية والخصومة رسالته الصغيرة الحجم الكبيرة المغزى والقيمة : « الكشف عن مساوىء المتنبي فى شعره ، ينقد فيها شعره سواء فى اللفظ والمعنى أم الوزن والقافية أم الأسلوب والخيال أم الفكرة والاتجاه . وكان الصاحب لاذعا عنيفا فى نقده للمتنبي ، وتهكمه بشعره ، غير آبه لجانب الإحسان والروعة فى شعره . ولقد تجاهل الصاحب — عصبية منه على المتنبي — نفسية الشاعر وطبعه ومؤثرات الدم والروح والبيئة والآمال والاتجاه فيه ، وأخذ يحكم عليه أحكاماً قاسية لا هوادة فيها ولا رحمة ، وهو فى هذه الاتجاه يناقض الجرجانى الذى فهم النقد على أنه البحث فى هدى العدالة والانصاف عن مكانة الشاعر الأدبية على ضوء خصائص فنه وميزات شعره ، ووزن ما ذل فيه الشاعر وما أجاد فيه بقسطاس مستقيم عادل .

نهج الصاحب فى نقده صورة لاتجاه أستاذه ابن العميد فيه ، مما عبر عنه الصاحب فى رسالته بقوله : « كان ابن العميد يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية

والوزن(١) ، فهو نقد لمعانى الشاعر ، وطبعه ، وذوقه الاجتماعى ، ونقد لأسلوبه فى صياغته ، واختيار ألفاظه ، وحروفه ، وقافيته ، وموسيقاه .

أخذ الصاحب على المتنبى من حيث المعنى كثيرا من الزلات ، كعامية بعض معانيه ، وقبحها والاغراق فيها ، وتعمد الغموض فى الغوص عليها ، سواء بإبعاد الاستعارة والاسترسال فيها ، أم التعقيد المعنوى بالتغلغل فى غير وضوح إلى خفاياها ، كما آخذه بعدم الملاءمة بين المعنى والمقام ، أو بين المعنى والذوق والعرف ، وبإسرافه ومغالاته ، وخروجه على مذهب الشعراء ، وبعدم التلاؤم بين أجزائها ، وبقبح أخذه عن الشعراء كالبحترى وأبى تمام ، مع إنكار منه ليدهم عليه ، وبقبح جمعه بين التشبيهات ، وبفحشه فى السخرية ، وفجوره فى الكناية ، واستهانته بقداسة العقيدة

ثم هو يأخذ عليه خروجه على ما تفرضه موسيقى الشعر وأوزانه من قيود وتعسفه بإثارة القوافى الصعبة .

كما يأخذ عليه من حيث الأسلوب كثرة تكرار الحروف الموجبة لتكلف الطبع ودمامة الثقل ، واختياره الألفاظ القبيحة ، أو المتنافرة الشاذة ، أو الغريبة ، أو الملحون فيها البعيدة عما تقبله الأذواق ، سواء بإثارة اللغات الشاذة أم بالتعبير بألفاظ يخطىء فيها نهج الوضع اللغوى أو الاشتقاق التصريفى ، أو بالتهجم على ضرورة الشعر البعيدة عن روح الشعر . كما يأخذ عليه كثرة تكرار الصفات المجموعة ، والألفاظ المتجانسة ، ومجافاة أسلوبه لروح الشعر بقبح ابتدائه وعدم صقل طبعه الشعرى لما يجمعه من الأسماء أو لما يشقق فيه من جناس ، وسخف أسلوبه وركة صنعته وتكلفه فى تعسف التعبير وتعقيد النظم والاضطراب فيه ، وإراد كثير من الاصطلاحات

---

(١) ٢ الكشف .

العلمية أو الأساليب الشرطية البعيدة عن جمال الشعر ، ويتهكم بأساليبه التى استمدها من الحياة الواقعية الجافة .

وذكر أن المتنبى يضؤل أمام أبى تمام والبحترى فى صياغة ما كان يقتبس منهما من معان ، كما يضؤل بجانب الفرزدق فى الفخر .

وكانت غاية الصاحب من وراء ذلك كله هدم مجد المتنبى الأدبى ، وتشويه سمعته كشاعر يمتاز عن شعراء العربية . وإن كان الصاحب وصل إلى بعض ما أراد فى حياة أبى الطيب ، فإن مجده قد عصف بكل ما أراده خصومه ، فوهب ذيوع الشهرة ومجد الخلود .

وقد نقد ابن رشيق فى عمدته فى مواضع مفرقة منها آراء للصاحب فى نقده فرد عليه مثلا نقده لبيت المتنبى :

صلاة الله خالقنا حنوط   على الوجه المكفن بالجمال(١)

والانصاف يلزمنا أن نقول : إن نقد الصاحب كله لم يكن مدفوعا بيد الهوى ، أو بمنأى عن العدالة والانصاف ، وإن كان الصاحب يتجاهل لغاية فى نفسه شخصية الشاعر وروحه وأثرهما فى فنه ، فتراه مثلا ينقد بيت أبى الطيب :

لو استطعت ركبت الناس كلهم   إلى سعيد بن عبد الله بعرانا

نقدا لاذعا(٢) :

وللناقد حق السخط على هذا البيت فى بادىء الرأى ، ولكن النظرة

---

(١) ١٤٧ ج ٢ العمدة .
(٢) ٢٦ الكشف .

الحصيفة تدعنا نرفع عن الشاعر فى بيته هذا إصر كل مؤاخذة ، فهذه هى روح الشاعر — المتهكمة الساخرة بالناس الساخطة على المجتمع الذى لم ينل فيه آماله ، المعتزة بنفسها وشخصيتها — تتجلى فى البيت فى صورة واضحة رائعة ، وهل أبلغ فى السخرية وأمعن فى التهكم ، من اتخاذ الناس مطايا يركبها الشاعر إن استطاع ليصل عليها إلى ممدوحه ؟

إن من الغريب حقا أن يكون فن شاعر كأبى الطيب رائما كل الروعة بالغا نهاية القوة والسحر ، حين ينظر إليه كله كأثر أدبى حافل ، فيحكم على قصيدة من قصائده ، أو على مجموعة منها أو عليها كلها ، حينئذ يرتفع أبو الطيب إلى الذروة وينتهى شعره إلى الغاية . أما إذا قطعت أوصاله فنظر إلى بعضه كحرف فى كلمة من كلماته ، أو لفظة فى بيت أبياته ، أو بيت فى قصيدة من قصائده ، أوخذ الشاعر وحوسب حسابا غير يسير . ولقد تعمد الصاحب أن أن ينظر إلى فن أبى الطيب هذا النظر الجزئى ، مخفيا وراء نقده ما فى نفسه من إعجاب وتقدير . وقد شاء الجرجانى فى وساطته ألا يترك هذه الناحية أو يغفلها فطالب بالحكم على فن أبى الطيب كله أو جله أو كثير منه ، لا على جزئياته الضئيلة التى لا تحط زلاته فيها من مكانته ومنزلته ، وعرض كثيرا من روائعه طالبا الانصاف الحكومة والعدالة فى الرأى .

هذا هو حديثنا عن رسالة الصاحب ، ولكن فى أى تاريخ ألف الصاحب رسالته ؟ .

يقول الصاحب فى مقدمة « الكشف » : وأنا منذ عشرين سنة أجالس العلماء والشعراء والأدباء ، وعشرين سنة أخرى آخذ عن رواة المبرد وأصحاب ثعلب ، فهو إذاً حين تأليف رسالته كان قد قضى أربعين سنة فى الدراسة ومباحثة العلماء ، فإذا كان بدء دراسته فى العاشرة من عمره فتكون سنه حين ألف رسالته خمسين سنة ، وإذا كان ميلاده عام ٣٢٦ هـ فيكون

تاريخ تأليفها سنة ٣٧٦هـ ، وكان للباحث الحق فى أن يعتمد على ذلك الاستنتاج لولا أن الصاحب يقول إثر ذلك: «فما وجدت من يعرف الشعر حق معرفته ، وينقده نقد جهابذته ، غير الأستاذ الرئيس أبى الفضل ابن العميد ، أدام الله أيامه » فابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ كان إذاً لا يزال حيا حين كتابة الصاحب رسالته ، فتكون قد ألفت قبل عام ٣٦٠ هـ ، ونحن وإن وقفنا بين نصين متعارضين ، إلا أن دلالة الثانى لاتحتمل شكا أو تأويلا ، وكثيرا ما يبالغ الانسان فى تقدير سنه ، لاسيما فى معرض الزهو العلمى ، فتكون هذه الرسالة قد ألفت والصاحب قد تخطى حدود الشباب ، وذلك بعد وفاة المتنبى أى بعد عام ٣٥٤ هـ) . وقبل عام ٣٦٠هـ .

الصاحب بن عباد الوزير الأديب

لم يبلغ أحد من الأدباء ، وحملة رسالة القلم ، ما بلغه الصاحب من المجد والنفوذ وذيوع الصيت : وكان — كما يقول ابن خلكان فيه :

« نادرة الدهر ، وأعجوبة العصر ، في فضائله ومكارمه وكرمه »

وكما يقول فيه الثعالبي :

« صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان »

لقد كرم الصاحب في حياته ووفاته تكريماً لم يلقه أحد من الأدباء ، وخلد على صفحات التاريخ ، مجداً سامقاً ، وأدباً رفيعاً ، وذكرى مرددة على الأيام .

ولد الصاحب ، إسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد ، في ذي القعدة من عام ٣٢٦ هـ في « طالقان » من أقاليم إيران ، ويقع بين قزوين وأبهر . ولد من أسرة فارسية رفيعة النفوذ والسلطان ، في خلافة الراضي العباسي (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) فرعاه أبواه بحنانهما وعطفهما رعاية فائقة ومضت أيام طفولته الأولى والخلافة العباسية تعصف بها الأحداث ، وجلس على عرشها المتقي ثم المستكفي الذي في عهده زاد خطر البويهيين في فارس ، واستولى معز الدولة البويهي على بغداد عام ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) ، وسلب الخليفة سلطانه ، وتولى حكم الخلافة بالنيابة عنه . وتولى أخواه حكم المشرق الاسلامي : عماد الدولة في فارس والأهواز ، وركن الدولة في الجبل والري . وامتد نفوذه إلى جرجان وطبرستان .

وفي حياة الصاحب جلس على عرش الخلافة المطيع فالطائع العباسي ، فالقادر ، وكانت الأمور في بغداد في أيدي معز الدولة ونائبه عز الدولة ،

ثم عضد الدولة بن ركن الدولة ، فأخوته صمصام الدولة ، فشرف الدولة ، فبهاء الدولة البويهى .

وكان قيام الدولة البويهية محاولة من العناصر الفارسية لاسترداد نفوذهم فى دولة الخلافة من أيدى الأتراك . وبقيامها خضعت الخلافة لهيمنتهم ، وكان للصاحب بن عباد مجالس يؤيد فيها آراء المعتزلة ، ويناظر فيها خصومهم كما يقول ياقوت فى « معجم الأدباء » .

وقد تنافس الملوك والأمراء والوزراء والولاة فى تشجيع الآداب . ولابن العميد والصاحب والمهلبى فى ذلك آثار جليلة . وكان ابن العميد يميل إلى العلم ، وصاحباه يميلان إلى الأدب ، وكان ابن سعدان الوزير يشجع الفلاسفة والمفكرين ، وصابور بن أردشير الوزير يحتفى أيضاً بالثقافة والأدب . فكانت هذه الحياة السياسية الجديدة ، وما صحبها من تيارات مذهبية وعقلية وأدبية ، هى البيئة العامة التى عاش فيها الصاحب ، وتأثر بها ، وأثر فيها .

كان عباد والد الصاحب عالماً أديباً ، تولى الكتابة والوزارة لركن الدولة البويهى . وكان هو الأستاذ الأول لابنه اسماعيل ، وقد عاش هذا الأب العظيم طويلا ، ومات فى السنة التى مات فيها ابنه ، عام ٣٨٥هـ على مايذكر ياقوت نقلا عن ابن الجوزى فى « المنتظم » ويذكر ابن خلكان وغيره أن عبادا توفى عام ٣٣٥هـ ، وربما كان ذلك تحريفاً . وكذلك عمرت أم الصاحب طويلا . وتوفيت عام ٣٨٤ هـ على ما يذكره ياقوت .

وهكذا نشأ الصاحب فى الرى ، عاصمة ملك ركن الدولة البويهى ، فى بيت سيادة ، حتى قال أبو بكر الخوارزمى : « الصاحب نشأ من الوزارة فى حجرها . ودب ودرج من وكرها ، وورثها من أبيه » .

وتتلمذ الصاحب على يد صديق أبيه الحميم، أبي الفضل بن العميد، وزير ركن الدولة، وشيخ الأدباء والكتاب في عصره، و «عماد ملك آل بويه، وصدر وزرائهم، وواحد العصر في الكتابة، كما يقول الثعالبي في «اليتيمة» «وجلس الكثير من الأدباء منه مجلس الطلاب من الأستاذ، فأعجبوا به وجاروه وقلدوه، واتسموا بطابعه، وجروا في نهجه. وغرفوا من بحره» كما يقول الثعالبي أيضاً، وطالت صحبة ابن عباد لأستاذه، فسمي «صاحب ابن العميد»، و «الصاحب» وللصاحب قصائد كثيرة في مدحه، وكان يعده والداً وأستاذاً. وابن العميد ينزله من نفسه منزلة الابن والتلميذ، وطالما رؤى في مجالس هذا الوزير العظيم، التي كان يحضرها العلماء والأدباء والمتكلمون للمناظرة ومن أساتذة الصاحب كذلك: ابن فارس، وأبو سعيد السيرافي والقاضي أبو بكر بن كامل وهو من رواة المبرد وثعلب والبحتري. كما كان يتردد على مجالس المتكلمين والفلاسفة من مثل أبي زكريا يحيى بن عدي وغيره.

وشهر الصاحب بالعلوم وأخذ من كل فن منها بالنصيب الموفور، ووهب من حسن السياسة والفصاحة والأدب ما وهب. وقرأ كتب المعتزلة، وسار على نهجهم وطريقتهم، وحصل على الحديث وتفوق فيه. إلا أنه خاصم الفلاسفة والناظرين في كتبها، وكانت ثقافته في الشعر ونقده. وفي العروض والقوافي، وفي التاريخ والجدل، واسعة عميقة. وكانت لديه مكتبة ضخمة. وكان كثير المحفوظ حاضر البديهة، فصيح اللسان، قوي الملكات.

وقرب ابن العميد تلميذه من الأمير مؤيد الدولة بن ركن الدولة البويهي. وكان ينوب عن والده في أعمال الدولة وسياستها. ووصف له ابن العميد ذكاء الصاحب ومواهبه، فاتخذه كاتباً له، وزادت منزلته عند مؤيد الدولة فلقبه «بالصاحب» و «وكافي الكفاة».

ولما مات والد الأمير عام ٣٦٦ هـ، وكان يلي الوزارة له أبو الفتح بن

العميد ، أبقاه على ماهو عليه ، ثم اتخذ مكانه الصاحب وزيراً . ومات مؤيد الدولةعام ٣٦٧هـ، وجلس مكانه أخوه فخر الدولة البويهى ، فأبقى الصاحب فى وزارته ، واعتز به ، وقال له : « لك فى هذه الدولة من إرث الوزارة ما لنا فيها من إرث الإمارة » ، وظل وزيراً له حتى آخر حياته .

ونشر ابن عباد بنفوذه آراءه الفكرية، وكان ينقم على معاوية والأمويين وعلى الجبرية وآرائهم . وأخلص الصاحب لدولة البويهيين اخلاصاً شديداً . ولما حاول خصومهم من السامانيين اغراء الصاحب ليسير إليهم ، أبى وفاؤه عليه ذلك وقال : « كيف يحسن لى أن أفارق قوما ، بهم ارتفع قدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى ؟ » .

وكان فخر الدولة يحله محل الوالد اكراما وعظاما ، ويخاطبه بالصاحب فى حديثه ورسائله ، ويثق به ويجله ويرفع من منزلته . والأوامر تصدر عن الصاحب ، والملك يدبر برأيه حتى كان فخر الدولة إذا رأى رأيا ورأى الصاحب غيره ، أخذ برأى وزيره وترك رأيه . وقد كان الصاحب موفقا فى سياسته ، فتح خمسين حصناً وأضافها إلى ملك فخر الدولة . وكان عضد الدولة البويهى ملك بغداد فى رسائله إليه يجله ويعظمه . ولما توفيت أم الصاحب عام ٣٨٤ هـ بأصبهان ، وورد على ابنها الخبر ، جلس للعزاء ، وركب إليه فخر الدولة معزيا مواسيا ، وفعل ذلك جميع الأمراء والقــواد .

ولم ينجب الصاحب غير بنت واحدة ، زوجها لعلى بن الحسين الهمذانى الحسنى ، وقد أنجبت ابنته ولداً سماه جده (عبادا) ، واحتفى بمولده أيما احتفاء ، وهنأه الشعراء به ، وقال هو فيه :

أحمــد الله لبشــرى أقبــلت عنــد العشى
إذ حبــانى الله سبطا هــو سبط للنبى

ولما شب هذا الغلام زوجه جده عام ٣١٤ هـ بكريمة أحد أقرباء فخر الدولة ، وكان هذا اليوم من أهم أيام الدولة . وموسماً من مواسم الأدب والشعر .

وبلغ من مجد الصاحب أن استجار به خال لفخر الدولة ليحميه من غضب الملك . وقد التزم رجال الدولة وقوادها مع الصاحب الأدب والطاعة وكان الصاحب يلزمهم بالعدل مع الرعية ، وكانوا عندما يحضرون إلى الصاحب يقفون أمام قصره مطرقين حتى يؤذن لهم . ولم يكن الصاحب يقوم لأحد ، ولا يهم بالقيام ، ولا يطمع منه أحد في ذلك .

وفي أخريات حياة الصاحب ، كانت أعباؤه السياسية قد أرهقت صحته وكان تدبير الملك يقتضيه السهر في حياطته ، ويذكر الصاحب ذلك في رسالته إلى صديقه أبي العلاء الأسدي مردداً فيها قوله :

وقائلة لم عرتك الهموم   وأمرك ممتثل في الأمم

فقلت دعيني ومافد عرا   فإن الهموم بقدر الهمم

وقد صرح أنه كتب هذه الرسالة وسنه تزيد على الخمسين .

رعى الصاحب النهضة العلمية والأدبية في بلاده ، وأغدق على العلماء والأدباء والشعراء ويقول الثعالبي فيه :

« إن أمواله كانت مصروفة إليهم وحضرته كانت مقصد آمالهم »

ويقول أيضاً : احتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وفرسان الشعر ، من يربو عددهم على شعراء الرشيد ولم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد ، والصاحب . كالخوارزمي ، والبديع والجرجاني ، والسلامي ، والمأموني ، والرستمي ، والزعفراني ، والضبي والجوهري ، والشاشي ، والقاشاني ، والخزرجي ، والاسماعيلي ، والطبري ،

والأسدي وسواهم ، واتصل به شعراء العراق كالشريف الرضى ، وابن حجاج ، وابن سكرة ، وكتابه كالصابى وغيره » .

مدح الصاحب خمسمائة شاعر ، ويقول هو إنه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية ، وإنه أنفق أمواله على الشعراء والأدباء والزوار . كما يروى ياقوت فى معجم الأدباء . ولاشك أن الصاحب قد أثر بذلك فى النهضة الأدبية فى بلاده تأثيراً كبيراً و خطيراً .

أما شخصية الصاحب فكانت مزاجاً من الثقة بالنفس والاعتداد بها ، ومن فضائل الرجل الخلقية والإنسانية من حلم وكرم ووقار ، ومن حنكته السياسية وتجاربه الاجتماعية الواسعة ، ومن ملكاته العقلية والأدبية العالية وقد منى الصاحب بعداوة أبى حيان التوحيدى له فألف فيه وفى ابن العميد كتابه المشهور « مثالب الوزيرين » الذى أحال ثقة الصاحب بنفسه إلى غرور شديد ، وأحال عقله وحنكته إلى سفه وطيش ، وأحال سياسته إلى فساد وحمق ، وأدبه إلى سجع مبتذل . ولكن التوحيدى يقر لهذين الوزيرين العظيمين بأنهما « كانا كبيرى زمانهما وبهما ازدانت الدنيا » .

وترك الصاحب مؤلفات كثيرة منها : المحيط فى اللغة ، ومنه نسخة خطية فى المتحف البريطانى وأخرى فى مكتبة المجمع العلمى العراقى ببغداد . وديوان رسائله وقد طبع بعضها ، وديوان شعره وقد نشرته مكتبة النهضة ببغداد بتحقيق محمد حسن آل ياسين ، وكتاب جوهرة الجمهرة ، والكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره وهو مطبوع ، وكان الصاحب يتحامل على المتنبى لأنه لم يمدحه . وله كتاب فى العروض ، وكتاب فى نقض العروض وأخبار أبى العيناء ، وكتاب تاريخ الملك واختلاف الدول ، وعنوان المعارف فى التاريخ أيضاً ، وكتاب الوزراء ، والأعياد وغيرها .

ولما مات الصاحب فى ٢٤ من صفر عام ٣٨٥هـ (٩٩٥م) ، وهو يخطو

إلى الستين ، و بعد أن تولى الوزارة لفخر الدولة ثمانية عشر عاما ، اهتزت مدينة الرى وهى تشيع جثمانه إلى مقره الأخير وفخر الدولة والأمراء والقواد يحيطون بنعشه والشعراء يرثونه بالدموع وجياد القصائد ومما قاله الشريف الرضى فيه :

هـــلا أقالتك الليالى عثرة يا من إذا عثر الزمان أقالا

كانت كل الأسباب تدفع بالصاحب إلى النبوغ فى الأدب عصره ، نشأته ، أساتذته ، بيئه ومناصبه ، مواهبه وملكاته ، الكتب التى قرأها وحلقات الثقافة والأدب التى شهدها ، نهضة الأدب فى عصره وازدهار فن الكتابة والرسائل الفنية . كلها مجتمعة فجرت مواهبه ، فانطلقت ملكته الأدبية وانبثقت ينابيع شاعريته . فشارك فى النثر الفنى أعلام عصره من أمثال : ابن العميد ، والصابى والخوارزمى . والبديع والمهلبى والضبى ، والجرجانى . والعسكرى . وكان الصاحب يقول : « كتاب الدنيا أربعة ابن العميد . والصابى ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، ولوشئت لذكرت الرابع » ، يعنى نفسه . وكان يسير على طريقة ابن العميد فى الكتابة مع حرص شديد على السجع ، واعتماد على قوة المنطق والحجة . وأسلوبه عذب سهل قصير الفقرات ، يعنى بشدة التوقيع الموسيقى بين فقراته . ومن أمثلته قوله فى القرآن الكريم : « كتاب الله وبيانه . و[illegible] مه وفرقانه . ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله وفى ميلاد بنته : « أهلا وسهلا بعقيلة النساء . وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار » .

وكان الشعر فى عصر الصاحب فى قمة نهضته وازدهاره . فكان المتنبى والشريف ومهيار ثم المعرى يشغلون الزمان وأهله . وشارك الصاحب فى نهضة الشعر . كما شجع الشعراء وكان ينظم الشعر فى كل غرض وفن : فى المدح ، والغزل والاخوانيات والأوصاف والتشبيهات والهجاء الرثاء وغيرها ومدائحه لابن العميد وفخر الدولة كثيرة ويمتاز شعره بالعذوبة والرقة .

ومن أمثلته ما كتبه إلى صديق له يدعوه لزيارته :

يا (أبا الفضل) لم تأخرت عنا فأسأنا بحسن عهدك ظنا
كم تمنت نفسى صديقا وفيا فإذا أنت ذلك المتمنى
فبغصن الشباب لما تثنى وبعهد الصبا وإن فات منا
كن جوابى إذا قرأت كتابى لا تقل للرسول كان وكنا

وهو شعر يدل على ذوق مترف ، وشاعرية خصبة غنية بالألوان والصور والأخيلة .

وكتب عن الصاحب بعد وفاته المؤرخون والأدباء والنقاد منهم الثعالبى وياقوت وابن خلكان وابن الجوزى فى المنتظم ، وجم من مؤرخى الأدب ولا تزال حلقات الأدب والثقافة تشيد بذكره وتعلى منزلته وقدره .

وعلى الجملة فقد كان الصاحب فى الصف الأول من أدباء عصره ، وقد أحيت ذكراه روائع شعره ونثره على مر الأيام ، وطويت بموته صفحات حافلة بالمجد والعبقرية ، رحمه الله .

أبو حيان التوحيدى

— ١ —

أبو حيان التوحيدى (٣١٠ — ٤١٤ هـ) (٩٢٢ — ١٠٢٢ م) علم من أعلام العقل العربى فى القرن الرابع الهجرى ، وأديب موسوعى الثقافة ، عميق التفكير ، متعدد الجوانب . وصفه ياقوت فى « معجم الأدباء » بأنه « فيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين وأمام البلغاء » . وأنه « فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة » .

وأنه « كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية ووصفه الدكتور الحوفى فى كتابه عن التوحيدى بأنه الثمرة الكبيرة التى أنضجتها علوم عصره وأدبه » .

ووصفه الدكتور زكريا إبراهيم فى مقدمة كتابه الذى نشر فى « سلسلة أعلام العرب » ، بأنه « الناطق بلسان الثقافة العربية فى القرن الرابع الهجرى » ، وأنه « قام بدور حضارى فى تلك الحقبة من تاريخ العرب ، بوصفه مفكراً موسوعيا حاول أن يمزج الفلسفة بالآداب » . وذكر أن « جمع التوحيدى بين التراث اليونانى من جهة ، والثقافة العربية من جهة أخرى ، هو الذى أهله للقيام بهذا الدور الحضارى » .

ووازن أحمد أمين . وزكى مبارك ، والحوفى ، ومحمد كرد على ، بينه وبين الجاحظ ، موازنات كثيرة .

وقد عمر التوحيدى طويلا ، وتوفى أبوه وأمه وهو صغير ، وعاش فى كفاح متصل ، ونضال طويل وحل وترحال دائمين ، وحاول أن يبعد شبح البؤس والحرمان عنه فلم يفلح وتردد على قصور الوزراء والكتاب فى عصره ، مثل : المهلبى ، وابن العميد ، وابن عباد ، وابن سعدان ، فلم يظفر منهم بطائل

بل كسب عداوتهم له ، وعاش فى حيرة عيشة الزاهدين المتصوفين . وفى لحظة من لحظات الشقاء والتعاسة النفسية ، أحرق كتبه ، وشاهد النار وهى تشتعل فيها وتلتهمها . ومات بشيراز عام ٤١٤هـ ، بعد أن حورب من عصره وشقى بأهل زمانه ، وعاش فى حرمان متصل ، وفقر شديد .

ولقد أنصف الكتاب المحدثون التوحيدى فيما كتبوا عنه ، ونوهوا بفكره الناضج ، وفلسفته العميقة ، وثقافته المنوعة التى ترددت فيها أصداء شتى المعارف التى كانت سائدة فى عصره .

والحوفى فى كتابه عن التوحيدى يعرض لأصل أبى حيان ، ويرجح أنه نشأ من أصل عربى لا فارسى ، ويعرض لصلاته بابن العميد ، ويرجح أن ابن العميد الذى اتصل به ، هو الوزير ابى الفتح بن العميد ، وهو ابن أبى الفضل بن العميد ، الوزير المشهور ، والكاتب المعروف ، والأديب الخالد .

— ٢ —

كان الجاحظ الثانى أبو حيان التوحيدى من أعلام القرن الرابع الهجرى ومن رواد الحركة الأدبية فيه وأئمتها . عاش حياته بائسا مكدودا يشكو البؤس والحرمان ، وكأنما أدركته حرفة الأدب أو صبت عليه هذه الحرفة كلكلها حتى كادت تطحنه طحنا .

يصف حال نفسه فى مقدمة كتابه « الاشارات الإلهية » الذى حققه وقدم له د . عبد الرحمن بدوى فيقول : (ص ١٨ ط القاهرة ١٩٥٠) .

« أما حالى فسيئة كيفما قلبتها ، لأن الدنيا لم تواتنى لأكون من الخائضين فيها ، والآخرة لم تغلب على فأكون من العاملين لها . وأما ظاهرى وباطنى فما أشد اشتباههما ، وأما سرى وعلانيتى فممقوتان بعين الحق ، لخلوهما من

علامات الصدق ، ودنوهما من عرائق الرق ، وأما سكوني وحركتي فآفتان محيطتان بي ، لأني لا أجدني أحدهما حلاوة النجوى ، ولا أعرى في الآخرى من مرارة الشكوى ، وأما قراري واضطرابي فقد دنهني الاضطراب حتى لم يدع في فضلا للقرار ، وغالب ظني أني قد علقت به لأنه لاطمع لي في الفكاك ولا انتظار عندي للانفكاك ».

ولقد عاش عصره وحياته في شقاء دائم كان العصر البويهي (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) عصر اضطراب سياسي كبير ، شمل العالم الاسلامي كله ، وخضعت فيه الخلافة العباسية للملوك البويهيين ، الذين استلبوا من الخلفاء كل سلطاتهم ، وحكموا العالم الاسلامي باسمهم ، وبدأت تنشأ الامارات المستقلة ، والدويلات المتحررة من نفوذ بغداد والبويهيين ، ونشأ عن ذلك ضعف عام شمل جميع أرجاء الخلافة وكثرت الحروب ، وعم الفقر ، وساد البؤس والحرمان كل مناطق الولايات الاسلامية .. ووجد الأدباء أنفسهم أشد طبقات المجتمع خصاصة ، وأكثرها فاقة ، وأذيعها شكوى ومرارة وألما ، وكان أبو حيان التوحيدي ظاهرة من ظواهر هذا المجتمع العجيب ، ووجدنا طبقة من الأدباء تحترف الكدية ، واتخذت لنفسها لقب « الساسانيين » وقد صورهم أبو داف الينبوعي الخزرجي في قصيدته الدالية المشهورة وكذلك البديع الهمذاني في مقاماته ، تصويرا واضحا .

ومع أن التوحيدي عاش قريباً من بلاط الوزيرين ابن العميد والصاحب ابن عباد ، فقد هجاهما ، وألف فيهما كتابا سماه « مثالب الوزيرين » ، وآثر أن يعيش مع الغرباء والمجتدين الأدنياء الارديا. » .

« (ج ١ ص ٧ الامتناع والمؤانسة ط القاهر ١٩٣٩ » — وكما يقول محقق كتاب « الاشارات الإلهية » د . عبد الرحمن بدوي نقلا عن ياقوت في معجم الادباء : « لقد عرف الشقاء الذي لا يستحقه ، ولقي الأهوال من الأحياء »

بينما وجد التافهين يرتفعون إلى أعلى مراتب الرياسة والشرف فى الدنيا ، وسعى ما استطاع لطلب المثالة بين الناس ، و لعقد الرياسة بينهم ، ولدرك الجاه عندهم ، ولكنه حرم من ذلك كله ، وزاد من شعوره بالألم أنه طلب المجد عند أناس مهنتهم مهنته ، أعنى حرفة الادب ، لكنهم بلغوا مرتبة الوزارة ، وهو لم ينل إلا البؤس والحرمان « ى » ، من مقدمة كتاب « الاشارات الإلهية » .

وكان صديقه أبو بكر القومسى الفيلسوف مثله ، ويقول عنه التوحيدى : كان بحراً عجاجا وسراجا وهاجا ، وكان من الضر والفاقة ومقاساة الشدة بمنزلة عظيمة ، فهو عظيم القدر عند ذوى الاخطار ، منحوس الحظ منهم ، وقال له التوحيدى ذات يوم : ماظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان ما تبلغ منى ، إن قصدت دجلة لاغتسل منها نضب ماؤها ، وإن خرجت إلى القفار لاتيمم بالصعيد عاد صلدا أملس « ى » ، من مقدمة « الاشارات » ـ عن ياقوت فى معجم الادباء ص ١٠ ج ١٥ »

وكم كان يكرر : « معاناة الضر والبؤس أولى من مقاساة الجهال ، والصبر على الوخم الوبيل أولى من النظر إلى محيا كل ثقيل » ، وعاش مترفعا على الفقر وعلى الناس وعلى السادة فى عصره

إن التوحيدى كان شاهدا على عصره ، وعلامة واضحة من علامات بيئته ، فهو يعيش حياته غريب الروح والفكر ، غريب الدار والوطن لا يستقر به قرار ، ولا ينعم بأن يؤويه سكن أو دار ، لكنه غنى النفس ، غنى الفكر ، غنى الأدب . يشعر بعظمته وبنفسه وبقيمة أدبه وفكره فى الحياة ، ويقول مثل هذه العبارة الرفيعة : « أستشعر العظمة . فالك بهذا الاستشعار تستحق التكرمة » ـ ص ١٠٤ الاشارات الإلهية .

وهكذا عاش التوحيدى حياة البائسين ، وحياة المفكرين ، حتى ليعد

الفيلسوف الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ».

وكتاب « الامتاع والمؤانسة » له حققه ونشره أحمد أمين وأحمد الزين فى ثلاثة أجزاء ، وقالا عنه : إنه مجموع مسامرات فى فنون شتى من الأدب واللغة والتاريخ والسياسة والفلسفة ، حاضر المؤلف بها الوزير أبا عبد الله العارض فى أربعين ليلة .

وأقول إن التوحيدى عرض فى هذا الكتاب الجليل كل مشكلات الثقافة والفكر والأدب فى عصره ، فى ندوات أدبية كان يعقدها فى أمسيات جميلة فى دار الوزير أبى عبد الله العارض .

إن الكتاب حديث متصل عن كل التيارات الفكرية والأدبية فى عصر التوحيدى ، مما كان موضوع سمر ومنادمة وحوار فى مجلس هذا الوزير .

وكما ألف بعض الأدباء فى هذا العصر فى باب السمر أصول كتاب ألف ليلة وليلة ، فقد ألف التوحيدى كذلك هذا الكتاب الممتع الرائع ، الذى يقص علينا فيه كل ما كان يعينه من مشكلات الفكر والثقافة والأدب فى فى أدب رفيع من أدب السمر والحوار ، فى مجالس وزير جليل .

ويشابه « ألف ليلة وليلة » كتاب « الامتاع » فى أن كلا منهما يتوزع السمر والحديث فيه فى ليال متعاقبة ليلة بعد ليلة .

والكتاب موزع على أربعين ليلة ، وإن كانت الليلة العاشرة والحادية عشرة جعلتا فى ليلة واحدة ، وسقطت الليلة الثانية عشرة من الكتاب .

وينتهى الجزء الثالث من الكتاب بالليلة الأربعين وكان الحديث فيها عن

أبي تمام والبحتري شاعري القرن الثالث الهجري العظيمين ، وعن تباين الأفكار والمذاهب وتخاصمها ، وعن ضلال الزائغين الذين ذهبوا إلى أن الله عز وجل لم يخلق السباع الضارية ولا الهوام ، ولا سلطها على الناس ، ولم يضرب الناس بالأوجاع والأسقام — ص ١٩٠ ج ٣ الامتاع ، ويرد عليهم التوحيدي هذا الرأي .

ثم ينقل التوحيدي عن بعض المتكلمين ببغداد قوله : إذا كان الله عدلا كريما ، جوادا عليما ، رؤوفا رحيما ، فإنه سيصير جميع خلقه إلى جنته .

ثم يقول الوزير للتوحيدي : هات ملحة المجلس ، فيقول التوحيدي عن أبي همام : لو كان النخل لا يحمل بعضه إلا الرطب ، وبعضه إلا البسر ، وبعضه إلا الخلال ، وكنا متى تناولنا من الشمراخ بسرة خلق الله مكانها بسرتين ، وما كان بذلك بأس ، ثم قال : استغفر الله ، لو كنت تمنيت بدل نواة التمر زبدة كان أصوب .

ويذكر التوحيدي كذلك بعض المأثورات عن أم المؤمنين عائشة ، رضي الله عنها فيصفها الوزير بفصاحة اللسان ، وشجاعة الجنان .

كما يذكر مأثورات أخرى لأدباء متعددين وفي آخر الكتاب يخاطب التوحيدي صديقه أبا الوفاء المهندس فيقول :

وأما ما قلت لي أيها الشيخ من أنه ينبغي أن تكتب رسالتك إلى الوزير حتى أقف على مقاصدك فيها ، واستبين براعتك وترتيبك بها ، فإنا أفعل ذلك في هذه الورقات .

ثم يلحق بالليلة الأربعين رسالتين كتبهما إلى الوزير .

وفي الرسالة الأولى يتحدث التوحيدي إلى وزيره فيقول :

كنت وصلت إلى مجلس الوزير وفزت بالشرف منه ، وخدمت دولته وتصرفت من الحديث بإذنه فى شجونه وفنونه ، كل ذلك آملا فى جدوى آخذها ، وحظوة أحظى بها ، وزانى أميس معها ، فتقبل ذلك كله ، ووعد عليه خيراً ، ولم يزل أهله ، وانقلبت إلى أهلى مسروراً ، بوجه مسفر ،ومحيا طلق ، وأمل قد سدما بين أفق العراق إلى صنعاء اليمن، حتى إذا قلت للنفس : هذا جناب الوزير ومحضره ، فاطمئنى راضية مرضية ، حصلت من ذلك الوعد والضمان ، على بعض فعلات الزمان ، وعجب فى ذلك من الزمان ، فهو بمثله ملىء .وبقيت محولا حيران لاأريش ولا أبرى ثم دفعت ناظرى ، وسددت خاطرى ، وفصلت الحساب لى وعلى ، فوضح العذر المبين ، المانع من استزادة المستزيد . .

وليس بعد هذا الأسلوب أسلوب أمعن فى التهكم . ولا أبلغ فى السخرية ، منه .

وتمضى الرسالة الثانية كذلك جامعة بين الجد والهزل ، والسخريةوالتهكم ثم يلحق التوحيدى بهاتين الرسالتين رسالة ثالثة فى شكوى البؤس وجه بها إلى أبى الوفاء المهندس الذى كتب له التوحيدى هذا الكتاب ، وختم كتابه بها . . وفى هذه الرسالة يقـــول التوحيدى لأبى الوفاء الذى قربه إلى الوزير :

خلصنى أيها الرجل من التكفف ، انقذنى من لبس الفقر ، أطلقنى من قيد الضر ، اشترنى بالاحسان ، أكفنى مؤونة الغداء والعشاء .

ويسترسل فى كلامه قائلا :

إلى متى الكسيرة اليابسة ، والقميص المرقع ، إلى متى التأدم بالخبز والزيتون؟ قد والله بح الحلق وتغير الخلق ، الله، الله فى أمرى أجبرنى فأنى

مكسود ، اسقنى فإنى صد — ظمآن — أغثنى فإنى ملهوف ، حلنى فإنى عاطل ، شهرنى فإنى غفل قد أذلنى السفر من بلد إلى بلد ، وخذلنى الوقوف على باب باب ، ونكرنى العارف بى ، وتباعدنى القريب منى . أيها الكريم . . ارحم ، والله ما يكفينى ما يصل إلى فى كل شهر من هذا الرزق المقتر ، الذى رجع بعد التقتير والتيسير إلى أربعين درهما مع هذه المؤونة الغليظة ، والسفر الشاق ، والأبواب المحجبة ، والوجوه المقطبة ، والنفوس الضيقة ، والأخلاق الدنيئة .

ثم يقول فى هذه الرسالة : وأنا الجار القديم، والعبد الشاكر ، ولكنك مقبل كالمعرض ، ومقدم كالمؤخر .

إن التوحيدى يعرض فى هذه الكلمات قصته مع الوزير ، عرض الساحر البليغ الذى لا يجارى بيانه بيان .

والوزير العارض الذى وصله أبو الوفاء المهندس به من وزراء الدولة البويهية استوزره — كما يقول أحمد أمين — صمصام الدولة البويهى عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٤م لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة ، وكان له ندوة يجتمع فيها العلماء والمفكرون والأدباء ، ومن بينهم : التوحيدى ، وابن زرعة الفيلسوف ومسكويه وأبو الوفاء المهندس ، وسواهم

وهذا الوزير هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان . . أما أبو الوفاء « ٣٢٨ — ٣٧٦ هـ » فهو من كبار المهندسين فى العصر البويهى .

وكتاب « الامتاع » يحتوى أعظم الوثائق الأدبية والفكرية ، التى تمخض عنها القرن الرابع الهجرى العظيم ، قرن الثقافات الرفيعة والأدب المزدهر ، والفلسفة الذائعة .

والكتاب أحد كتب التوحيدى الرائعة التى نعرف منها : الاشارات

الإلهية الهوامل والشوامل الذى حققه أحمد أمين صقر : والمقابسات ، والصداقة والصديق ، والذخائر والبصائر .

فى كل ليلة من ليالى « الامتناع والمؤانسة » الأربعين ، يجرى الحوار والسمر حول موضوع محدد ، يعينه ابن سعدان الوزير ، وإن كان عقل التوحيدى الواسع الثقافة ، المحيط بجوانب شتى من المعرفة ، كثيراً ما يسلك سبيل الاستطراد فينتقل من طرفة إلى طرفة ، ومن فكرة إلى فكرة ، ومن شىء إلى آخر شبيه به ، حتى ليتناول موضوعات عدة ، ويختم الليلة غالباً بملحة وداع ، أى بطرفة يختتم بها الأمسية الأدبية .

« الامتاع والمؤانسة » هو خلاصة رائعة لمشكلات الفكر والثقافة والأدب فى القرن الرابع الهجرى ، وهو زاد رفيع من المعرفة ، وكما نجلس فى عصرنا الراهن فى أنديتنا الأدبية لنتحدث ونتناقش ونتحاور فى مختلف مسائل الثقافة ، كان أبو حيان التوحيدى الجاحظ الثانى ، بأسلوبه البليغ ، وبيانه الرفيع ، وكلامه العذب ، يجلس فى مجلس هذا الوزير البويهى الكبير ، ليحدث فى مختلف مسائل العلوم والمعرفة والفلسفة ، حديث الإنسان المثقف الداهية ، البليغ الأديب ، فيملك الأسماع ، واستولى على الألباب ، ويسير الدهشة من كل مكان ، ويتصل الحوار بينه وبين أعلام عصره فى ندوة الوزير ، ويحتج كل لرأيه ، وتكون نتيجة ذلك كله ثراء ما بعده من ثراء للفكر والعقل وللإنسان .

فى مقدمة الكتاب يذكر أبو حيان مدى اعتزازه بصديقه أبى الوفاء المهندس ، واستجابته لطلبه فى تأليف الكتاب ، ويمزج ذلك كله بالشكوى من الزمان .

وفى الليلة الأولى يصف مجلس الوزير ابن سعدان ، ويتحدث عن لذة الحديث ، وعن الاشتقاق اللغوى للكلمة ، ثم يذكر ملحة الوداع ، وهى نادرة لجحظة

وفى الليلة الثانية يذكر أبا سليمان المنطقى ، ورأيه كذلك فى علماء عصره ، من مثلى ابن زرعة، وابن الخمار ، وابن السمح ، وأبى بكر القومسى ومسكويه ، وعيسى بن على ، ويحيى بن عدى ، وقد تحدث أبو حيان عن هذه الأعلام ورأيه فيهم ، ورأيهم فى النفس .

والليلة الثالثة فى أصدقاء السوء ، والرابعة حديث عن الصاحب بن عباد الوزير (٣٨٥ هـ : ٩٩٨م) مع الاستطراد إلى كثير من الأعلام وكلمات مأثورة لهم ، وآراء مروية عنهم .

وفى الليلة الخامسة يتصل الحديث بابن عباد أيضاً ، وبمكاتبه المشهور أبى إسحاق الصابى .

وفى الليلة السادسة يتحدث التوحيدى عن أمم العالم القديم فى عصره ، وما امتازت به كل أمة من هذه الأمم .

وفى الليـــلة السابعة يدور السمر حول موازنة بين علمى الحساب والبلاغة .

وفى الليلة الثامنة تضمنت ذكر المناقشة الفكرية بين السيرافى ومتى بن يونس حول أهمية المنطق اليونانى فى الكلام ، ومقدار أهميته بالنسبة للنحو العربى ، وأيهما أولى بالعناية .

ويصف التوحيدى أبا سعيد السيرافى وصفاً شائقاً .

والليلة التاسعة عن أنواع الحيوان وخصائصها ، وكذلك دارت الليلة العاشرة والحادية عشرة . وسقطت الليلة الثانية عشرة من الكتاب .

أما الليلة الثالثة عشرة فيدور الحوار والسمر فيها حول النفس ، وفى الليلة الرابعة عشرة حوار حول السكينة أى الطمأنينة وضروبها ، وحول خصائص الأمم وصفتها كذلك .

والليلة الخامسة عشرة حوار كلامى عن الواجب والممكن والسادسة عشرة حول الجبر والقدر . وهى نهاية الجزء الأول من « الامتناع والمؤانسة » .

والجزء الثانى من الكتاب يبتدئ بالليلة السابعة عشرة ، ويدور الحديث فيها فى جملته حول إخوان الصفا ، من هم ؟ وما فلسفتهم .

والليلة الثامنة عشرة سمر ومجون . والتاسعة عشرة قراءات لكلمات فلسفية .

والليلة العشرون حول الحديث النبوى ، والحادية والعشرون حول الغناء والموسيقى والثانية والعشرون حول الجزئى والكلى وهما من الفلسفة ، ثم حول الواحد والكثير .

والليلة الثالثة والعشرون مأثورات نبوية شريفة .

والرابعة والعشرون تعود إلى الحيوان والنبات .

والخامسة والعشرون موازنات بين النظم والنثر ، ومنزلة الشعر بين فنون الأدب .

والسادسة والعشرون تدور حول الأمثال . والسابعة والعشرون قصص وفكاهات والثامنة والعشرون حول الفنانين وفنهم ، والتاسعة والعشرون والثلاثون وبعض الليلة الحادية والثلاثين حول مسائل لغوية وغيرها . وينتهى بها الجزء الثانى من كتاب « الإمتناع والمؤانسة » .

ويبدأ الجزء الثالث ببقية الليلة الحادية والثلاثين وفيها يترامى الحديث إلى المطعمين والطاعمين ، حيث يدور الحديث حول ذلك فى بقية هذه الليلة وفى ليلتين آخريين ، هما الليلة الثانية والثلاثون ، والليلة الثالثة والثلاثون .

أما الليلة الرابعة والثلاثون فتدور حول سياسة الشعب وواجب الحاكم والمحكوم وهى ليلة حافلة بالجد والعبرة والعظمة .

وفى الليلة الخامسة والثلاثين يدور الحوار حول الجبر والاختيار ، والحب والشهوة ، والنفس والروح ، وغير ذلك من أمور فلسفية عميقة .

وفى الليلة السادسة والثلاثين ينتقل السمر إلى اللغة ، من حيث ينتقل فى الليلة التى بعدها إلى الأخلاق ، وفى الليالى الثلاث الأخيرة الثامنة والثلاثين ، والتاسعة والثلاثين والأربعين ، يتصل السمر بالفكاهة والجد ونوادر الذكاء . (وينتهى بذلك الكتاب)

ابن مكسويه

- ١ -

نحن مع حضارة العقل العربى المبدع فى القرن الرابع والخامس وهما قمة عصور الابتكار والتجديد فى التراث العربى .

مع عالم كبير هو الإمام ابن مسكويه أحمد بن محمد « ٣٣٠ - - ٤٢١ هـ ! ٩٤٢ - ١٠٣٠ » ، الفارسى الأصل ، العربى النشأة والثقافة واللغة ، من أئمة الإسلام ، وأعلامه الخالدين ، حيث عاش فى القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى ، وكان ميلاده بالرى ، ووفاته فى بغداد دار السلام ، وعاصمة الإسلام الكبرى .

وقد درس على المنهج الدراسى القديم المألوف فى عصره فى المدارس العربية . فدرس اللغة والنحو والصرف والشعر والاخبار والفلسفة والطب وعلم العدد - الحساب - وشارك فى علوم كثيرة ، حتى ذاع فضله ، وانتشر صيته فى كل مكان ، وقربه إليه عضد الدولة البويهى ، فعينه خازنا لدار الحكمة ، فصار أثيراً عنده ، مقربا لديه ، ونشر علمه وفضله فى آفاق ملكه .

عاش ابن مسكويه فى العصر البويهى ، الذى ازدهرت فيه الثقافة والمعرفة فكان أحد الذين جمعوا بين ثقافات الإسلام وثقافات الاغريق ، والموا الماما واسعا بطرف من حكمة اليونان والروم والهند والفرس ، إلى حكمة العرب وتجاربهم ، وكان اتصاله بالوزير المهلبى المتوفى عام ٣٥٢ هـ - ٩٦٣ م ، ثم بابن العميد الوزير « المتوفى عام ٣٦٠ هـ : ٩٧١ م » ثم بابنه أبى الفتح « المتوفى عام ٣٦٦ هـ : ٩٧٧ م » ، ثم بعضد الدولة بن بويه بعد ذلك ، من الأسباب التى أنمت تجاربه وحكمته ، وساعدته على الاتصال بكل جوانب الثقافة العربية والمترجمة ، خاصة أنه عاش فى عصر انقسام الخلافة العباسية إلى دويلات ، وظهور القوميات المستقلة ، وأنه كذلك قد عمر طويلا ، حتى اتسعت خبرته بالحياة ، وزادت معارفه فى شتى جوانب الثقافة .. وبخاصة

الفلسفة . وكانت الفلسفة العربية الاسلامية قد نمت وتعددت مذاهبها، وازدهرت حلقاتها العلمية وتوالى جيل الفلاسفة المسلمين، جيلا أثر جيل، وإذا كان من أئمتها أبو إسحاق الكندى « - ٢٥٢ هـ : ٨٦٦ م » فى القرن الثالث، فقد نبغ فيها فى القرن الرابع : المعلم الثانى ألفاربى « ٣٣٩ هـ »، وابن سينا « - ٤٢٨ هـ : ١٠٤٧م »، وابن مسكويه وجماعة إخوان الصفا، وسواهم من أعلام الفكر العربى، وقرأ ابن مسكويه للسالفين والأقدمين، واطلع على أصول الفلسفة الاغريقية، إلى ثقافته الاسلامية الرفيعة، حتى صار يشار إليه بالبنان بين الفلاسفة والحكماء.

ومن مؤلفاته الفلسفية كتابه المشهور : تهذيب الاخلاق، وكتبه : ترتيب السعادات والفوز الأكبر، والفوز الأصغر. وألف فى الطب، وله فى التاريخ كتاب قيم هو « تجارب الأمم ».

وهكذا كان موسوعة فى كل فن، ومرجعا فى كل علم، وأستاذاً كبيراً، تتلمذ عليه، وتخرج به أعلام الفكر الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى وما بعده من قرون وأجيال.

— ٢ —

وكتاب « تهذيب الاخلاق » لابن مسكويه يعد أصلا فريدا من أصول الثقافة الاسلامية، وقد كتبه للعلماء ومحبى الفلسفة، ليعالج به مشكلات الحياة والسلوك، وليصل - كما كان يحلم - بالمطلع عليه إلى السعادة المنشودة، وقد تأثر فى منهجه فيه بالمعلم الأول أرسطو فى كتابه « الأخلاق ».

وكان لابن مسكويه من التجارب الكثيرة فى الحياة ما يدفعه إلى الكتابة فى الأخلاق، ليرشد الناس للفضيلة والسعادة والطرق التى تؤدى إليهما. ويتضح هذا من عهده الذى كتبه لنفسه وهو مسطور فى كتاب « المقابسات » للتوحيدى « ٤١٣ : ١٠٢٢م ».

وقبل أن نتعرف إلى فلسفة الأخلاق عند ابن مسكويه يصح لنا أن نتساءل : ماهى الفلسفة ؟ وما هى الأخلاق ؟ وما الصلة بينهما ؟

والفلسفة هذه الكلمة المعربة عن اليونانية مأخوذة من كلمتى فيلوس بمعنى محبة ، وسوفيا بمعنى الحكمة ، فمعنى الكلمة إذن محبة الحكمة ، ومعنى الفيلسوف هو محب الحكمة ، وكان فيثاغورث « ٥٨٢ - ٤٩٧ ق م » أول من سمى حب الحكمة باسم الفلسفة ، يقول بارتلمى سانتهلير فى مقدمة كتاب « الكون والفساد » لأرسطو ترجمة أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد : أن فيثاغورث لما سأله ليون طاغية سيقونيا من عمله ، أجاب بأنه فيلسوف ، وهو اسم لم يسمع من قبل فى اللغة اليونانية ومعنى الفلسفة عامة قديما تأمل أسرار الكون الالهية الأبدية الخالدة ونواميسه الثابتة التى لاتتغير ، وكان الفلاسفة الاغريق أطاليس : وانكسمندر ، وانكسمينيس يسمون أنفسهم حكماء ، فانكر ذلك عليهم فيثاغورث ، ودفعه تواضع العلماء إلى إطلاق إسم فلاسفة عليهم وعلى نظرائهم وعلى الأرجح كان سبب ذلك هو إيمانه بأنه لايصح أن تنسب الحكمه إلى غير الخالق الأبدى ، فالحكيم وحده عنده هو الله ، ومن ثم أستبدل كلمة حكيم بكلمة فيلسوف ، أى محب للحكمة ، وقد تطور معنى الكلمة تطوراً كبيراً على مختلف العصور .

أما الاخلاق فهى كلمة جامعة تشمل الفضائل والمثل ، التى يعتنقها ويؤمن بها صفوة الناس وأخيارهم . التى دعا إليها الأنبياء والرسل من القديم ، وحضت عليها الكتب السماوية المقدسة ، واصطفاها المفكرون وسيلة إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وفلسفة الأخلاق هى الأصول الأخلاقية التى يشرعها الفكر للسلوك الانسانى ، مما يرجع الأمر فيه إلى فكر المفكرين والفلاسفة والحكماء . وذلك مما دعا إليه ابن مسكويه هذا الإمام الكبير ، والمربى الروحى العظيم والاستاذ الرفيع المنزلة عند علماء عصره من مثل آرائه فى الفضيلة ، وفى نواميس الاجتماع وفى أسس السعادة .

ومع أن شخصية ابن مسكويه شخصية فيلسوف مؤمن بنزعة الاختيار والتوفيق السائدة فى كتاباته ، إلا أنه اجتماعى يرى لعوامل كثيرة أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده ، وعملى كذلك لا يكتب فى الاخلاق ليسجل آراءه فحسب ، بل يكتب وهدفه الوصول عمليا لتعود الاخلاق الفاضلة ، والتخلق بها ..

وإذا كان سبينوزا « ١٦٣٢ - ١٦٧٧ م » فى كتابه « علم الاخلاق » قد عد الفكر والارادة صفتين جوهريتين لذات الله ، ونظر كذلك إلى الحرية على أنها عين ذات الله أو عين فعاليته اللامتناهية فى نفوذها إلى كل صور الوجود الممكنة حتى تبلغ ذروة اللامتناهى وفق لقوانين ضرورية ، وجعل النفس الانسانية هيئة لصفة الفكر الالهى . فانه نظر إلى المعرفة الناتجة عن طريق الحواس على أنها معرفة ظنية ، أما المعرفة المحصلة بالعقل فهى عنده فهى معرفة يقينية ، فقد سبقه إلى ذلك ابن مسكويه فى كتابه وينتهى سبينوزا بمذهبه الاخلاقى إلى نهاية مشرقة أخص خصائصها هذه الصبغة الروحية التى تألقت بها جوانب عقله وقلبه وروحه .. وذلك هو ماسجله ابن مسكويه فى كتابه .

وإذا عدنا إلى كتاب « مبادىء الاخلاق » لجورج مور « ١٨٧٣-١٩٥٨ م » وجدنا عنده ومضات كثيرة من فيلسوفنا ابن مسكويه ويعد كتاب « مبادىء الاخلاق » أول تطبيق عملى للمنهج التحليلى على مشكلات الاخلاق فى الفلسفة المعاصرة ، وبحوثه عن الخير والسعادة وغيرهما تجد جذورهما عند ابن مسكويه فى كتابه الذى جعله ست مقالات متميزة .

ويرى ابن مسكويه أن للنفس ثلاث قوى ، كل واحدة منها قد يسوء أو يحسن استعمالها لظروف وأسباب متباينة ، فقد تجنح نحو الافراط ، أو تهبط نحو التفريط فيكون ذلك شرا ورذيلة . وقد تكون وسطاً معتدلة ، لا إلى هذا ولا إلى ذلك ، فيكون هذا خيرا وفضيلة .

وإذن فالنفس عنده لها ثلاث فضائل رئيسية بعدد هذه القوى ، وتنظم كل فضيلة منها فضائل جزئية تعود إليها ، وبانسجام هذه الفضائل فيما بينها تكون فضيلة أخرى ، هي كال الفضائل الثلاث السابقة ، لذلك أجمع الحكماء على أن أصول الفضائل هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة . كما قرر ذلك ابن مسكويه في « تهذيب الاخلاق » .

على أن عالمنا الكبير ، قد تأثر في هذه النظرية بنظرية الاوساط المعروفة التي شرحه أرسطو ثم الفارابي من بعده شرحا طويلا .

ورأى أبو على بن مسكويه أن النفس فضيلة أخرى أخرى هي أشبه بها ، وهي التشوف للعلم والمعرفة . والفضيلة عنده هي المعرفة كما ذهب إليه سقراط ، والرذيلة هي الجهل . وقد ترك مذهب أفلاطون وأرسطو في ذلك .

ويوضح ابن مسكويه رأيه في ذلك فيقول : « إن من الناس من لا يدرى كيف يحسن إلى نفسه ، التي هي محبوسة فيقع في ضروب من الخطأ ، لجهله بالخير الحقيقى . أما من عرف لنفسه كرامتها ، واختار لها الخير الحقيقى الذى هو الأعلى ، فهو لا محالة يفعل سائر الخيرات » .

والسعادة عنده ابن مسكوية هي الخير التام في نفسه ، وهو متأثر في نظريته هذه بآراء فلاسفة الاغريق . على أن السعادة عنده ليست في المتع الحسية ، التي لا يطلبها إلا الرعاع والعامة وطلاب التجارة والكسب حتى في العبادات

بل إن السعادة عنده هي في أمر واحد هو هو الحكمة التي يستحق من يحوزها أن يسمى حكيما وفيلسوفا ، وأن ينال بذلك السعادة الكاملة المنشودة .

ومع ذلك كله فقد كان ابن مسكويه اجتماعيا ، عوف لجسمه حقه ، ولنفسه حقها ، ولمجتمعه حقه .

فدعا الانسان إلى أن ينيل جسمه مابه حياته ، وما يتفق مع المروءة ، وأن يكمل نفسه العاقله بالفضائل الخلقية ، وبالفضيلة الفلسفية .

والانسان عنده مدنى بالطبع ، وقد نظر أبو على إلى الذين يعيشون عالة على الناس نظرة سخرية واستخفاف .

وهكذا كان ابن مسكويه عملياً فى فلسفته الاخلاقية ، فى كتابه المأثور « تهذيب الاخلاق » يبحث فى الفضيلة ويبينها ، وفى السعادة ويحددها . ثم يتبع هذا وذاك برسم المنهج الذى يؤدى إلى الظفر بهما .

ولم يكن هذا الامام الكبير متعصبا لرأى ، ولا منحازا مع عصبية ، فقد أخذ أصول مذهبه الخلقى من الاسلام الكريم ومع ذلك استفاد الكثير من الثقافتين الفارسية والاغريقية .

لقد مضى على وفاة ابن مسكويه تسعه قرون ونصف ميلادية ، مع ذلك فلا تزال آراؤه فى الفضيلة والخير والسعادة وحرية الارادة وفى المسئولية الارادية وغيرها ، جديدة .

وياليت تراث هذا الامام الكبير يجد من يعنى به تحقيقا ودراسه وبحثا ويجد من ينشره فى طبعات جميلة تقربه إلى أذهان شباب هذا الجيل .

وكتابه « تجارب الأمم » مع أمتع الكتب التاريخية ، التى تجعل من فيلسوفنا مؤرخا كبيراً فى عصر جيل الأئمة الكبار من أعلام القرنين الرابع والخامس .

رحم الله ابن مسكويه ، فقد أسدى إلى الفكر العربى الكثير من الأيادى البيض وترك لشباب العرب تراثا خالدا ، يهتدون به فى كل مشكلات حياتنا الفكرية والاجتماعية والسلوكية ، وفى كل جوانب تربية النفس الانسانيه ،

وحضها على السلوك الانسانى الرفيع ، المقترن بالحب والطهارة والطموح والارتقاء فى مدارج الفضائل إلى أعلى عليين :

وأسلوب ابن مسكويه أسلوب أديب بليغ متمكن من الأدب ، ملم بدقائق العربية ، صاحب ذوق رفيع ، وموهبة عالية، وفطرة مطبوعة على الفصاحة والبلاغة :

ولاريب أنه كان إلى عقله يملك ذوقا رفيعاً عاليا فى صناعة الأدب : وكان أسلوبه أقرب إلى أساليب الأدباء ، وأكثر صلة بذوق الأديب .

أبو دلف ملهم البديع الهمذانى بالمقامات

— ١ —

نحن أمام علم من الأعلام الكبيرة فى تاريخ الحضارة الإسلامية : شاعر كبير عاش فى عصر المتنبى والشريف الرضى وعلم رفيع من أعلام الأدب الساسانى وأديب عبقرى تتلمذ عليه أمثال بديع الزمان الهمذانى ورحالة جاب الأقطار والأمصار ، وجغرافى ترك أجل الآثار الجغرافية ، وجيولوجى له إلمام واسع بالحفريات الجيولوجية وعالم من علماء الآثار وقف عليها ، وتتبع أشهر مواطنها فى آسيا ، وطبيب كما وصفه معاصره الشاعر السلامى فى شعره ، وهو مع ذلك مجهول لا يعرفه أحد من أبناء العربية ، بينما حفلت دوائر الاستشراق بدراسة رحلاته الجغرافية ، والافادة منها فى بحوثهم وكشوفهم ، ذلكم هو أبو دلف الخزرجى الينبوعى (٩١٣ — ١٠٠١ م : ٣٠٠ — ٣٩١ ﻫ)

— ٢ —

واقد اتسع نطاق الرحلات عند المسلمين اتساعاً كبيراً بتأثير الحج والتجارة والرغبة فى نشر الإسلام . ولطلب العلم واقاء العلماء ، ولاقتناء الكنوز العلمية والاقتصادية ، وللقيام ببعض المهام السياسية ، حيث كان ملوك وأمراء المسلمين يوفدون الرسل والشعراء إلى مختلف أنحاء العالم :

ومنذ خلافة أبى بكر الصديق ، نجد : عبادة بن الصامت ، وهشام بن العاص ، ونعيم بن عبد الله ، يذهبون إلى القسطنطينية فى رسالة من الخليفة أبى بكر إلى ملك الروم يدعوه فيها إلى الإسلام ، ويقول عبادة بن الصامت: وأقبلنا حتى أنخنا تحت غرفة هرقل ، فقلنا : لا إله إلا الله والله أكبر ، والله يعلم لقد انتقضت الغرفة حتى كأنها عذق سعفة ضربها الريح : ولما لقوا

قيصر سألهم : ما أعظم كلامكم ؟ قلنا : لا إله إلا الله والله أكبر فالله يعلم أنه انتقض سقفه حتى ظن هو وأصحابه أنه سيسقط عليهم . . ثم دعاهم قيصر ليلا وعرض عليهم صندوقا فيه صور الأنبياء من آدم إلى محمد عليه السلام(١) .

واستمرت الرحلات السياسية خلال العصور ، فنجد عمارة بن حمزة يحمل رسالة من المنصور إلى ملك الروم(٢)

ومن الرحلات المشهورة رحلة سلام الترجمان إلى سور الصين الشمالى بأمر الخليفة العباسى الواثق بالله (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ : ٨٤٢ — ٨٤٧م) .

ثم رحلة سليمان السيرافى ، وقد زار الهند والصين مراراً ، وكتب وصف رحلته عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١م ، ولهذا الوصف ذيل ألفه فى القرن الرابع الهجرى مؤلف رحالة من سيراف اسمه أبو زيد حسن . وقد نشر هذه الرحلة المستشرق رينو عام ١٨٤٥ م ، وسليمان السيرافى أول رحالة مسلم يشير إلى الشاى الذى يشربه الصينيون كثيراً ويسمونه « ساج » .

وقد قام بعده ابن وهب القرشى برحلة إلى الصين نحو عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م .

وفى كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة أن بعض التجار المسلمين وصلوا إلى كوريا .

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى نجد أحمد بن فضلان يقوم عام ٣٥٩هـ/ ٩٢١ م برحلة إلى بلاد البلغار ، وهم الشعب الذى أسس فى بداية العصور

---

(١) راجع ص ١٤١ — ١٤٢ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه .
(٢) راجع ١٢٧ و ١٣٨ المرجع السابق .

الوسطى دولتين : أقدمها فى حوض الفولجا الوسطى (وهو نهر أتل كما تسميه المصادر الإسلامية) أما الأخرى فنى حوض نهر الطونة .

وقد زار ابن فضلان الأولى(١) على نهر الفولجا . ويذكر ابن رستة فى كتابه « الأعلاق النفيسة » الذى ألفه نحو عام ٢٩١هـ/٩٠٣م أن أكثر هؤلاء هؤلاء البلغار كانوا ينتحلون الإسلام ، بينما تذكر رحلة ابن فضلان أنهم لم يدخلوا فى الإسلام إلا قبيل الرحلة بأعوام .

وقد ذهب ابن فضلان مع وفد بعث به الخليفة المقتدر بالله العباسى عام ٣٠٩ هـ إلى ملك البلغار لتعليم شعبه شعائر الإسلام .

وقد خرج الوفد من بغداد فى الحادى عشر من صفر عام ٣٠٩هـ/الحادى والعشرين من يونيو عام ٩٢١م ، وساروا إلى بخارى فخوارزم فبلاد البلغار ، فوصلوها فى الثانى عشر من المحرم عام ٣١٠ هـ / الثانى عشر من مايو عام٩٢٢ م .

وقد أدت هذه البعثة مهمتها ، ولما عادوا إلى بغداد ، كتب ابن فضلان رحلته التى تعرف برحلة ابن فضلان . ويبدو أن ما كتبه هو الذى قدمه إلى الخليفة العباسى المقتدر بالله .

وقد نقل ياقوت الحموى جزءاً من رحلته فى مادة : أتل ، وبلغار ، وخرز ، وخوارزم .

ونشرت الرحلة فى روسيا عام ١٨٢٣ م ، وأفاد منها بروتولد الروسى

---

(١) تطلق كلمة بلغار على الشعب ، وعلى البلاد ، وعلى عاصمتها التى كانت تقع شرقى نهر الفولجا ولايزال بعض آثارها قائمة على مقربة من مدينة قازان الحالية على نحو ستة كيلو مترات من شاطىء الفولجا الأيسر .

فى الدراسة التى كتبها عن البلغار فى دائرة المعارف الاسلامية ، ثم عبدالوهاب عزام فى دراستين له عن البلغار المسلمين .

وفى عام ١٩٢٤ عثر العالم التركى أحمد زكى الوليدى فى مشهد على مخطوطة نفيسة احتوت على أربعة كتب ، منها رحلة أبى دلف ، ورحلة ابن فضلان .

وهذه الرحلة تعد أقدم وصف كتب لجزء من بلاد روسيا ، ولا يعرف رحالة سبق ابن فضلان إليها . ويصف فى رحلته حفل دفن زعيم روسى ، وقد رسم أحد الرسامين الروس منذ مائة عام هذا المنظر اعتمادا على وصف ابن فضلان وزين بهذا الرسم أحد جدران المتحف التاريخى فى موسكو .

وممن زار بلاد البلغار بعد ابن فضلان : أبو حامد الغرناطى الأندلسى صاحب كتاب « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » عام ٥٣٠هـ/١١٣٥م .

وقد تحدث المسعودى (ت ٣٤٦هـ — ٩٥٧) فى الجزء الأول من كتابه مروج الذهب ، عن البلغار . . وقد سقطت مملكة البلغار نهائياً عام ١٢٣٦م ، وخرب الروس بلادهم عام ١٣٩٩م كما تذكر دائرة المعارف الإسلاميه (٤/٩٩) .

ومن نتائج هذه الرحلات التى قام بها الرحالة المسلمون على مختلف الأجيال معرفتهم من الصينيين الأبرة المغناطيسية ، وقد أخذ العرب عن المسلمين فى الحرب الصليبية الثانية .

ومن نتائجها تدوينهم لكثير من المعارف الغنية فى تاريخ هذه البلاد وجغرافيتها القديمة التى لم يكتب عنها أحد قبل الرحالة المسلمين ، ولا كتب

عنها بعدهم أحد من الأوربيين إلا بعد أجيال طوال(١) .

(١) راجع : تاريخ الأدب الجغرافى العربى لـكراتشوفسكى ، الرحالة العرب لنقولا زيادة ، والرحالة المسلمون لزكى محمد حسن ، والرحلات لشوقى ضيف من سلسلات دار المعارف المصرية عن فنون الأدب العربى ، تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان ، وتاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، وحديث السندباد القديم لحسين فوزى ، والجغرافيا والرحلات عند العرب لنقولا زيادة ، ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة رحلات ، رحلة ابن فضلان بتحقيق الدكتور سامى الدهان (المتوفى فى أغسطس ١٩٧١) وهى من مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق .

— ٢ —

ويحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام .

ويعد من أشهر الرحالة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى ، وقد بهر العالم بما قام به من رحلات ، وما كتبه عن مشاهداته وأوصافه للبلاد التى رحل إليها وطاف بها .. وقد حفظ لنا ابن النديم فى كتابه « الفهرست » وياقوت فى « عجائب المخلوقات » ، و « آثار البلاد » مقتطفات كبيرة من وصف أبى دلف للبلاد التى جابها ، والأسفار التى قام بها رحالتنا العالمى المسلم أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى، فى أنحاء كثيرة من العالم، المعروف آنذاك . الهند والصين « وآسيا الوسطى ، وهى الأسفار والرحلات التى طار ذكرها ، وشهر أمرها بين الناس فى عصر أبى دلف وبعد عصره حتى اليوم، والتى نال أبو دلف بها فى حياته مجدا كبيراً ، قاده إلى قصور الملوك والوزراء والأمراء ، ونال بها بعد وفاته مجدا تليدا خالدا فيما كتبه عنه أعلام المستشرقين من كتابات ، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات ، وما سجل عنه فى دوائر المعارف من عجائب الكشوف الجغرافية .

يصفه ابن النديم (١) بالجوالة ، ويذكر القزوينى أنه كان جوالة مشهودا جاب البلاد وشاهد عجائبها (٢) ، وأنه كان سياحاً زار البلاد ، وأخبر بعجائبها (٣) .

---

(١) ١ /٣٤٦ الفهرست .
(٢) ٢/ ٢٦٧ آثار البلاد .
(٣) ٩٧ عجائب المخلوقات .

ويذكر كذلك القزويني بلاد بمى وعجائبها وهى من بلاد الترك، ثم يقول أخبر بهذه كلها، أعني بلاد الترك وقبائلها، مسعر، فإنه كان سياحة رآها كلها (١).

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد له الباحثون من المستشرقين بالدقة والصدق والواقع، وإن كان ياقوت الحموى يقول عنه: إنه كان يحكى عنه الكذب (٢)، ويعنى بذلك أن رحلاته كان بعضها من نسج الخيال، وقد تكفل لنا بالرد على هذا الاتهام كراتشوفسكى وسواه من المستشرقين.

ولقد كان أبو دلف أحد الباحثين المعدودين الذين مكنتهم وحدة الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى من القيام برحلات خطيرة، على جانب كبير من الأهمية.

فمع أن العالم الإسلامى فى عصر أبى دلف، وهو القرن الرابع الهجرى، كان مقسما إلى دول كثيرة، استقلت عن خلافة بغداد، وتركت التبعية السياسية للخلفاء العباسيين، إلا أنه كان موحد العقيدة واللغة والثقافة والحضارة، خاضعاً للتأثير الإسلامى وحده، ومن ثم كان فى إمكان أبى دلف أن يجوب البلاد، وأن يسير فى الممالك الإسلامية، للبحث والكشف والتنقيب، لا يحده حد، ولا يغله قيد، ولا يحول بينه وبين نهمه العلمى حائل.

وقد ألف أبو دلف «الرسالة الأولى» وتحتوى على رحلته عبر

---

(١) ٥٨٩ المرجع السابق.
(٢) ٣٢٦/٥ معجم البلدان لياقوت.

الصين والهند التى قام بها عام ٣٣١ هـ ٩٤٢ م ، وقد قام المستشرق الألمانى دور صور عام ١٩٣٩ بتحقيقها ، ويبدو أن أبا دلف جمع مادتها من الذاكرة بعد قيامه برحلته هذه بمدة تطول أو تقصر ، وتتضمن الرسالة إلى جانب صدقها الكثير من المعلومات التقريبية والخيالية عن هذه البلاد الواسعة ، التى ساح فيها .

وفى مقدمة هذه الرسالة يقول أبو دلف : (١) .

« إنى لما رأيتكما يا سيدى ، أطال الله بقاءكما ، لهجين بالتصنيف ، مولعين بالتأليف ، أحببت أن لا أخلى دستوركما ، وقانونى حكمتكما ، من فائدة وقعت إلى مشاهدتها ، وأعجوبة رمت بى الأيام إليها . ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ، ويصبو إلى استيفاء قراءته القلب ، فرأيت معاونتكما ، لما وشج بيننا من الإخاء ، وتوكد من المودة والصفاء » .

والظاهر — كما أرجح — أنه يخاطب أحد الملوك السامانيين أو الصاحب ابن عباد ، وأنه حين كتب هذه الرسالة أهدى منها نسخة إلى هذا ، وأخرى إلى ذاك ، وهذا يدل على أنه كتبها بعد عهد طويل من قيامه بالرحلة .

وقد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢ ، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها إلى الألمانية ، وشاركه فى ذلك المستشرق فراين فى « مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية » التى نشرها عن الشرق الأقصى .

وألقى المستشرق الروسى غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثا عنها فى المؤتمر

---

(١) ٥/٤٠٨ و ٤٠٩ معجم البلدان .

الدولى الثـــالث عشر للمستشرقين المنعقـــد فى بطرسبرج .

ودرسها روزن ، وماركفارت (١٩٠٣)، ووضح خط رحلة أبى دلف إلى الصين .

وكذلك فعل بارتولد ، ومينورسكى (١٩٦٧) الذى قال عنها : إن فى الرحلة سلسلة من الوقائع بعضها حقيقى ، وبعضها من نسج الخيال ، وفى وصف أبى دلف لرحلاته – كما يقول مينورسكى – خلط وتعقيد شديدان، وإن كان يعد خلاصة للمعارف الجغرافية آنذاك عن الصين والهند . ويشكك أخيرا هذا المستشرق فى حدوث رحلات أبى دلف .

ويرد عليه كراتشوفسكى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »[1] مؤكدا أن رحلة أبى دلف إلى الصين واقعة حقيقية لاشك فيها ، ويؤكد حدوثها روايات ابن النديم فى كتابه « الفهرست » عن أبى دلف[2] . بل إن الرجل لم يترك أدنى شك لدى خبير بالموضوع مثل فيران (١٩١٣)

ويؤكد دور صوير (١٩٣٩) أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال ، إذ أن بعض التفاصيل المتعلقة بها وجدت دلائل على صحتها فى سفارات متأخرة ، مثل سفارة شاهرخ ، كما أكد الباحثون دقة ملاحظات أبى دلف فى محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية ، وفى وصفه لمشاهده عامة .

وفى هذه الرحلة يذكر أبو دلف الأوانى الصينية وأنها كانت مفضلة فى الأسواق ، وأن الخزف الصينى كان يقلد فى بعض البلدان ، ولاسيما فى مليار وإيران .

---

(١) ص ١٨٩ من الكتاب .

(٢) ٣٤٦ و ٣٤٧ الفهرست ، ٢٥٠ و ٣٥١ الفهرست أيضاً .

وفيما بين عام ٣٣١ - ٣٤١ ﻫ : ٩٤٢ - ٩٥٢ م ، زار أبو دلف بتشجيع من الصاحب الوزير على ما أظن وكما أشار إلى ذلك الثعالبي في « اليتيمة » أماكن مختلفة في إيران وآسيا الوسطى في حماية الوالي على سيستان من قبل أبي محمد بن أحمد (٣٣١ - ٣٥٢ : ٩٤٢ - ٩٦٣ م) وألف أبو دلف في وصف هذه الرحلة ومشاهده فيها عبر أرمينية وأذربيجان وإيران رسالة سماها « الرسالة الثانية » ، ويقول في مقدمتها على طريقته نفسها في مقدمة الرسالة الأولى :

« جردت لكما ، يامن أنا عبدكما ، أدام الله لكما العز والتأييد ، والقدرة والتمكين ، جملة من سفري من بخارى إلى الصين ، ورجوعي منها على الهند ، وذكرت بعض أعاجيب مادخلته من بلدانها ، وسلكته من قبائلها ، ورأيت الآن تجريد رسالة ثانية ، تجمع عامة ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عاينته . لينتفع به المعتبرون ، ويتدرب به أولو العزة والطمأنينة ، ويثقف به رأي من عجز عن سياحة الأرض »(١) .

واللذان يوجه هنا أبو دلف إليهما هذه الرسالة هما اللذان وجه إليهما الرسالة الأولى ، كما يبدو من هذه المقدمة الموجزة الصغيرة .

ولهذه الرسالة الثانية في وصف رحلته في أواسط آسيا أهمية كبيرة ، كما سنذكر بعد .

وتبدأ وقائع هذه الرحلة التي تسجلها الرسالة الثانية من مدينة « الشيز » في جنوبي أذربيجان ، وتمتد لتشمل أماكن كثيرة في خراسان وإيران

---

(١) ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة نشر عالم الكتب - مطبعة مخيمر وقد وردت كلمة ثانية ، في الرسالة (ص ٢٩) محرفة إلى كلمة « شافية » ، وهو خطأ .

والقوقاز وأرمينية ، ومن هنا كانت الرسالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام ، والتاريخ الجغرافى والجيولوجى والأثرى لهذه البلاد ، وهى إلى جانب ذلك تحتوى على كثير من الأشياء الطريفة ، والمشاهدات العجيبة ، والنوادر الغريبة ، وبعضها مما يحير العقول(١) .

وتتميز هذه الرسالة بتركيز شديد ، ودقة متناهية ، وموضوعية غريبة ، كما تتميز بمادتها العلمية القيمة التى تضعها فى عداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافى لآسيا الوسطى . وتحتوى على معلومات جليلة متعلقة بالمصادر النفطية فى باكو ، وبالمعادن المفيدة فى أرمينيه ، وأبو دلف أحد الرحاله الأوائل الذين تحدثوا عن استخراج النفط فى باكو ، وما أروع ما كتبه عن معدنيات وطواحين تفليس(٢) ، ولا يستغنى عن دراستها مؤرخ أو جغرافى جيولوجى ، وفيها يذكر أبو دلف أكثر من أربعين موضعا يوجد فيها المعادن ، وأماكن أخرى فيها آثار للفرس أو للسامانيين .

ولقد حقق مينورسكى هذه الرسالة ، وطبعت بمصر عام ١٩٥٠ م فى ٣١ صفحة النص العربى - ١٣٦ صفحه الترجمة الانجليزيه والدراسة .

ثم طبعت فى موسكو بتحقيق خالدوف وبلغاركوف عام ١٩٦٦ م .

وطبع تحقيقهما فى القاهرة بترجمة محمد منير موسى عام ١٩٦٦ م .

وفى عام ١٩٢٤ عثر فى مدينة مشهد الايرانية على مخطوطة تشمل على أربع رسائل :

١ — رسالة أبى دلف .

---

(١) ص ٣ مقدمة الرساله الثانية .
(٢) ص ٢٢ مقدمة الرساله الثانية .

٢ — رسالة ابن فضلان .

٣ — رسالة فى أخبار البلدان لابن الفقيه .

٤ — رسالة أخرى .

وأصبح لهذه المخطوطة أهمية كبيرة فى تراث أبى دلف ، وفى تاريخ البحث العلمى الجغرافى القديم .

ورسالة أبى دلف فى مخطوطة مشهد تشتمل على رسالتيه الأولى والثانية وقد ذكرنا على أنهما كتاب واحد .

ويبدو أن هذا الكتاب كان قديما يسمى عجائب البلدان كما نقلنا عن عن القزوينى وياقوت ، وذكرهما بهذا الاسم كذلك بروكلمان .

وأبو دلف فى رحلاته يعنى عناية شديدة بذكر أماكن المعادن والآثار ، وطالما يقف أمام الأشياء موقف العالم المدقق الحكيم المجرب الذى يحاول فهم الأشياء والوصول إلى دخائلها .

ومن أهمية البحث الجغرافى الذى قام به أبو دلف أنه عرض لمدينة الشيز ، وهى بين المراغة وزنجان وشهرزور وتوجد الآن فى وادى ساركوتز فى الاتحاد السوفيتى . . ومن وصف أبى دلف لهذه المدينة : أمكن للعلماء الروس تحديدها واستخراج آثار تخت سليمان من تحت طبقاتها الأرضية ومن مثل تحقيقاته العلمية ماذكره فى صعوده إلى قمة جبل دبناوند فى فارس ودخوله كهفا فى هذا الجبل ورصده لظاهرة وجود نار مشتعلة فيه(١) .

ويذكر أبو دلف أنه سار فى مغارة خوارزم ، ورأى بها آثارا كثيرة

---

(١) الرسالة الثانية ص ٨٧ .

لجماعة من ملوك العرب والعجم ، ويتحدث عن انخساف بعض قراها تحت الأرض بنحو مائة قامة .

ويشكك بعض الباحثين فى وصول أبى دلف إلى خوارزم بدعوى أن معلوماته عن هذه البلاد عامة ضحلة ، ولكن ذلك لا يقف حجة لهذا الشك .

وبعد فقد كان أبو دلف ابن ينبع ، من أعظم الرحالين الجغرافيين المسلمين ، الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجرى . وقد نالت رسالتاه أعظم اهتمام فى عالم الاستشراق ، وأولاه المستشرقون كثيرا من العناية والدراسة والبحث .

وعمل أبى دلف فى ميدان الرحلة متعدد : فهو يظهر لنا فى صورة الرحالة الوصاف للجغرافية الاقليمية القديمة .

كما يظهر فى صورة الجغرافى المتمكن ، والأثرى المنقب ، والجيولوجى الدقيق العالم بطبقات الأرض وصخورها مما يرفع من منزلته بين العلماء .

ويظهر لنا كذلك فى صورة الطبيب الذى يعلم أماكن المصحات الطبيعية التى تلائم طبيعة المرضى والتى تساعدهم على الشفاء .

ويصدق عليه ما قاله المسعودى عن نفسه : « قطعنا بلاد السند والزنج ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بأواسط أرمينية وأذربيجان »(١) .

---

(١) مقدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) .

— ٣ —

وأبو دلف شاعر عربي كبير ، مجهول شأنه ، مغمور تاريخه ، لم يذكره إلا القلة من المؤلفين القدماء ، ونسيه المحدثون نسياناً تاماً .

وهو من الجزيرة العربية ، من ينبع عاش القرن الرابع الهجرى كله أو جله ، يجوب البلاد ، ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء ، تراه مطوفاً فى كل مكان من بخارى إلى الصين والهند ، ومن فارس إلى أرمينية وأذربيجان وطبرستان . وبلاد الأكراد ، ويصف كل ماشاهده ، ويدون كل مايلاحظه ، فى دقة تامة ، وعناية بالتفاصيل ، مما أذهل المستشرقين ، فكتبوا عنه جغرافياً من الطراز الأول ، ومن أشهر الرحالة فى القرن الرابـــع .

وأبو دلف من هذا الجانب مصدر أصيل لكل الجغرافيين ، الذين أتوا بعده ، ومن بينهم : ياقوت « معجم البلدان » ، والقزوينى فى كتابيه : « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد » .

والمصدر العربي القديم الذى ترجم لأبى دلف شاعراً ترجمة أدبية ، ليس فيها شيء من التفصيل عن حياته ، هو كتاب يتيمة الدهر ، لأبى منصور الثعالبى شيخ الأدباء فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى (المتوفى عام ٤٢٩ هـ) ، فقد ذكره الثعالبى فى الباب السادس الذى خصه بالشعراء الطارئين من الآفاق على الوزير الصاحب بن عباد ، وقال له عنه :

« أبو دلف الخزرجى الينبوعى ، مسعر بن مهلهل ، شاعر كثير الملح والطرف ، مشحوذ المدية فى الكدية ، خنق التسعين فى الإطراب والاغتراب وركوب الأسفار الصعاب فى خدمة العلوم والآداب » ويستمر الثعالبى فى الحديث عن أبى دلف . فيقول : «كان ينتاب — يقصد — حضرة الصاحب

بأصبهان ، ويكثر المقام عنده ، ويتزود كتبه — أى رسائله التى تتضمن التوصية — فى أسفاره » .

ويشير الثعالبى إلى معركة الهجاء التى دارت بين أبى دلف والشاعر السلامى (٣٣٦ — ٣٩٤ هـ) .

ويذكر شعراً لأبى دلف ، وقصيدته الساسانية الطويلة (١) .

وفى موضع آخر من اليتيمة يقول الثعالبى عنه : كان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبعى ، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحسد السلامى على منزلته (٢)

ويشير الثعالبى إلى أبى دلف فى بعض كتبه الأخرى إشارات عابرة ، مثل كتابه « لطائف المعارف » .

ونجد نقولا جغرافية كثيرة عنه فى : « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد »(٣) ، وهما للقزوينى ، « معجم البلدان » لياقوت وكراتشوفسكى يذكر ٢٤ اقتباساً لا يذكر فيها ياقوت اسم أبى دلف .

---

(١) راجع ٣ ٢٥٢ وما بعدها يتيمة الدهر ، للثعالبى — بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) ٢ : ٤٠٠ يتيمة الدهر .

(٣) فى كتاب « آثار البلاد » يوجد ٢٤ اقتباساً من « الرسالة الثانية لأبى دلف » ، وإن كان لا يشير إلى أبى دلف إلا فى سبع منها وفى عجائب المخلوقات توجد كذلك اشارات كثيرة له ، وأربع اقتباسات دون اشارة إلى اسمه .

وفى دائرة المعارف الإسلامية فى مادة « مسعر » ترجمة له تبين الكثير من دراسات المستشرقين عنه رحالة كبيرا ، وجغرافياً مشهوراً(١) .

وتجىء إشارات صغيرة عنه فى كتاب « بلاد ينبع » للشيخ حمد الجاسر(٢) .

وفى كتاب الأعلام للزركلى ترجمة لأبى دلف فى عدة سطور ومما جاء فيها عنه : شاعر رحالة وكان يكنى بالرحالة الحجازى ، قام برحلة ممتعة إلى الشرق الأقصى ، وكتب ما شاهده فى تلك الديار فى كتاب ضخم ، ونقله المستشرقون عنه إلى مختلف اللغات الأوربية ، تجاوز التسعين من عمره توفى نحو عام ٣٩٠ هـ(٣) .

ويلاحظ الشيخ حمد الجاسر على هذه الترجمة أمرين :

الأول أن الزركلى نسبه إلى ينبع البحر ، وهو من ينبع النخل .

والثانى قوله : فى « كتاب ضخم » . . ويقول العلامة الجاسر : إنه ليس مجلداً ضخماً بل رسالة ، وقد حققها المستشرق مينورسكى وطبعت فى مصر سنة ١٩٥٥ فى ٣١ صفحة النص العربى والترجمة الانجليزية والدراسة فى ١٣٦ صفحة .

وكلام العلامة الجاسر صحيح فى أنه ليس كتاباً ضخماً بل رسالة ،

---

(١) راجع الطبعة الانجليزية الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية وقد ترجم النص الانجليزى لهذا البحث الأستاذ وديع فلسطين — الطبعة العربية لم تصل إلى هذه المادة .

(٢) ١١٧ و ١٤٥ بلاد ينبع .

(٣) ٨ : ١٠٩ الأعلام للزركلى .

وأما قوله : « إن الرسالة حققها المستشرق مينورسكى الخ » فذلك ليس عن رسالة أبى دلف فى وصف رحلته إلى الشرق الأقصى ، وهى التى تسمى بالرسالة الأولى ، بل عن رسالة أبى دلف فى وصف رحلته فى آسيا الوسطى وهى التى تسمى الرسالة الثانية .

والرسالة الأولى لأبى دلف عنى بتحقيقها المستشرق الألمانى رود صوبر .

أما الرسالة الثانية فعنى بتحقيقها المستشرقون الروس ، فدرسها المستشرق كراتشوفسكى ، ومينورسكى ، وحققها مينورسكى ، ثم خالدوف ويولغاكوف معاً فى نصها العربى ، وهما مدرسان بجامعة لينينجراد .

وقد عاش أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى . . وشاهد كل أحداث هذا القرن وغرائبه ، بما ساد فيه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب ، وبما ساده من تطورات فكرية وسياسية كبيرة ، كان فى مقدمتها انتهاء نفوذ الخلافة العباسية ، باستيلاء البويهيين على بغداد عام ٣٣٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة فى أنحاء العالم الاسلامى الذى كانت من قبل تجمعه رابطة سياسية واحدة ، ومن هذه الدول :

١ - الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) .

٢ - الدولة الفاطمية بمصر والشام أيضاً (٣٥٩ - ٥٦٧ هـ) .

٣ - الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧ - ٣٩٤ هـ) .

٤ - السامانية فى تركستان ، وعاصمتها بخارى (٢٦١ - ٣٨٩هـ) .

٥ - الزيارية فى طبرستان ، ومن ملوكها الشاعر الأمير قابوس بن وشمكير (٣٦٦ - ٤٠٣) هـ .

٦ - الغزنوية فى غزنة والهند ، ومن أشهر أمرائها السلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) .

٧ - ودولة سجستان ومن أشهر أمرائها خلف بن أحمد ، وهو من أحفاد الليث(١) بن الصفار ، وامتدت هذه الدولة حيث حكمت نحو الأربعين ومائة عام (٢٥٤ - ٣٩٠ هـ) .

٨ - الدولة العلوية فى طبرستان ، ويذكر أبو دلف طائفة من ملوكها حتى عصره وقد حكمت ثلثى قرن (٢٥٠ - ٣١٦ هـ) .

---

(١) ٢ : ١٨٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه .

(٢) ٨٣ و ٨٤ الرسالة الثانية لأبى دلف - نشر عالم الكتب بالقاهرة .

— ٤ —

أسرة أبي دلف :

(١) يعرف تاريخنا الأدبي علمين ، كنية كل منهما هي أبو دلف :

أما الأول فهو القاسم بن عيسى العجلي الذي كنى بأبي دلف ، وهو عربي كريم ، وقائد عباسي مشهور ، كان مع الأمين على أخيه المأمون ، في صراع الأخوين على الخلافة ، فلما انتهى الخلاف بينهما بانتصار المأمون ، عفا عن أبي دلف ، فعاش في الكرج (= الكرك) بفارس ، ومات في بغداد عام ٢٢٥ هـ - ٨٤٠ م ، وكان من أشهر شعرائه الذين مدحوه : على بن جبلة (١٦٠ - ٢١٣ هـ : ٧٧٦ - ٨٢٨ م) ، وقد توارثت أبناء أبي دلف بعده حكم منطقة الكرج : ويسمون الدلفيين . والكرج قريبة من نهاوند بإيران ، ويقول عنها أبو دلف : إن فيها آثاراً لآل أبي دلف ، وأبنية حسنة جليلة تدل على مملكة عظيمة ، وهي الجادة - أي الحاضرة - بين الاهواز والرى وبين اصفهان وهمذان (١) .

وأما الثاني فهو صاحبنا أبو دلف الخزرجي الينبعي أو الينبوعي ، الذي نكتب عنه هذه الدراسة .

(ب) اسمه مسعر بن المهلهل .

ونسبته إلى الخزرج إحدى القبيلتين الكبيرتين في المدينة اللتين أطلق عليهما بعد الهجرة اسم « الأنصار » ، وهما الخزرج والأوس . وللخزرج في الإسلام وبالاسلام تاريخ كبير خالد ، ومن الخزرج بنو النجار أخوال

---

(١) ص ٧٤ الرسالة الثانية لأبي دلف - نشر عالم الكتب - القاهرة .

رسول الله لأن أم جده عبد المطلب « نجارية » .

أما الينبعى فهو نسبة إلى مدينة ينبع المشهورة فى الحجاز ، ويوصف أبو دلف أيضاً بالينبوعى ، وينبع وينبوع علم واحد لهذه البلدة المعروفة من بلاد الحجاز .

(ج) لا نعرف عن المهلهل والدهسعر ولا عن قومه شيئاً ، فكل المعلومات المتعلقة بحياة أبى دلف شحيحة ونادرة .. وقد عنى المستشرقون بأعمال أبى دلف الجغرافية وحدها ومن بينهم دور صوير ، وميتورسكى ، وكراتشوفسكى ولم يستطيعوا مع ما بذلوه من جهد علمى ، كشف ما غمض من حياة أبى دلف نفسها .

أما أم أبى دلف فنجد فى رسالة لابن العميد (١) ، كتبها وعيداً وتهديداً لأبى دلف ، ما يدل على أن صاحبنا ينتمى إلى ابنه محمد بن زكريا الذى كان يعاصر ابن العميد .

وقد أعيانى البحث فى المصادر القديمة عن شخصية محمد بن زكريا فلم أهتد إلى أثر له ، وقد استطيع فى المستقبل الاهتداء إلى ترجمة له تكشف عن شخصيته ، فأضيف إلى صورة أبى دلف مزيداً من الوضوح والرؤية .

* * *

وأبو دلف من ينبع « ويقال لها ينبوع أيضاً فى لهجة ، وينبع موضعان : ينبع النخل وينبع البحر ، وبينهما نحو اثنين وخمسين كيلو متراً . ومن إضافة ينبع إلى المضاف إليه نعرف المراد منها ، أما عند إطلاقها من الاضافة . ففى

---

(١) سأذكر فقرات من هذه الرسالة عند الحديث عن صلة أبى دلف بابن العميد ـ وراجعها فى صفحة ٢٨٩ من كتاب مثالب الوزيرين لأبى حيان التوحيدى .

القديم كانت تنصرف إلى ينبع النخل لشهرتها وقلة غناء ينبع البحر وفى العصر الحديث الأمر بالعكس فقد صارت ينبع البحر هى صاحبة الشهرة، فإذا أريد ينبـــع النخل قيل ينبع النخل دون إطلاق

وينبع النخل التى ينتمى إليها صاحبنا أبو دلف : هى ناحية واسعة فيها قرى وأودية وعيون ، وتقع غرب المدينة نحو الشمال ، وتبعد عنها بنحو خمسين ومائة كيلومتراً ، وتقع على طريق القوافل بين الحجاز والشام .. ويتبعها نحو عشرين قرية .

وكانت ينبع النخل مقرا لقبائل عربية كبيرة : كجهينة ، وحرب ، وغيرهما وكذلك مقر كثيرين من الطالبيين ، وقد استوطن على بن أبى طالب ينبع قبل أن يلى الخلافة وكان بها معجباً ، ويروون عنه أنه نظر إلى جبالها ، فقال لقد وضعت على نقب من الماء عظيم » (١) .

ووصف البشارى (٢) فى القرن الرابع الهجرى ـ الذى عاش فيه صاحبنا أبو دلف ـ ينبع ، فقال :

« ينبع كبيرة جليلة ، حصينة الجدار ، غزيرة الماء . أعمر من يثرب ، حسنة الحصن ، حارة السوق ـ كناية عن كثرة حركة البيع والشراء فيها ـ وعامة من يتسوق بالمدينة فى الموسم منها » (٣) .

وقد انتقل أناس من الخزرج إلى ينبع النخل ، فأقاموا بها ، ومن هؤلاء أسرة أبى دلف (٤) .

---

(١) ٢٧ بلاد ينبع ـ حمد الجاسر ـ منشورات دار اليمامة بالرياض .
(٢) فى كتابه « أحسن التقاسيم » .
(٣) ص ٢٧ و ٢٨ بلاد ينبع .
(٤) راجع ص ١٤٥ المرجع نفسه .

وجميع المعلومات التاريخية والجغرافية عن ينبع يمكن أن نجدها فى كتاب العلامة حمد الجاسر « بلاد ينبع » وفى مصادر أخرى قديمة وحديثة ، من بينها كتاب « جزيرة العرب فى القرن العشرين » .

وبلدة السويق فى العصر الحاضر هى مقر الإمارة فى ينبع النخل ، وقد أصبحت فى الزمن الأخير تابعة لإمارة ينبع البحر وأصبحت قاعدة تلك الناحية (١) .

وأغلب الظن أن أبا دلف ولد فى ينبع ، وهو ماذكره كراتشوفسكى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » (٢) أيضاً ، ويؤيد ذلك قول أبى دلف فى رسالته التى وصف فيها رحلته إلى الصين وهى رسالة الأولى ، : « لما نبا بى وطنى ، ووصل بى السير إلى خراسان ، ضارباً فى الأرض » (٣) ويذكر خالدوف وبولغاكوف فى تحقيقهما للرسالة الثانية لأبى دلف ذلك أيضاً ، أى أن ميلاده كان فى ينبع ، ولكنهما يخطئان فيقولان : إن مكان مولده هو فى مدينة ينبع الميناء على ساحل البحر الأحمر (٤) . ويقولان أثر ذلك : ومن غير المعروف زمن ومكان مولد ووفاة أبى دلف ، وهذا تناقض كبير .

ميلاد أبى دلف :

وتذكر بعض المراجع ، ومن بينها الأعلام للزركلى ، أن أبا دلف مات نحو عام ٣٩٠ هـ - ١٠٠١ م ، وأنه عاش نحو التسعين عاما ، فيكون ميلاده إذن فى خلافة المقتدر بالله العباسى عام ٣٠٠ - ٩١٣ م

---

(١) ص ٤٣ بلاد ينبع .

(٢) ص ١٨٨ (٣) راجع ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت .

(٤) ص ٨ الرسالة الثانية لأبى دلف - ترجمة محمد منير مرسى - نشر مكتبة عالم الكتب بالقاهرة .

ويذكر الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » أنه عمر تسعين عاماً ، فيقول عنه خنق التسعين في الأطراب والاغتراب، وركوب الأسفار الصعاب» ولكنه لا يحدد تاريخاً لميلاده ولا لوفاته .

نشأة أبي دلف الأولى :

ولا نعلم شيئاً عن حياة أبي دلف الأولى ونشأته . وبلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة ، وشب عربياً كريماً عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة، في وسامة ولطف . وكانت ينبع النخل آنذاك مركزا ، من مراكز العلم والأدب والشعر وصار أبو دلف شاعراً ، وعرف كذلك طبيباً ومنجماً ، وليست « ساسانيته » مناقضة لعزة نفسه ، فقد كانت ساسانية ظرف وفكاهة وأدب وطواف بالآفاق .

وفجأة ينبو بأبي دلف وطنه ، وتسير به الحياة إلى الأمير السامانى نصر ابن أحمد (٣٠١ - ٣٣١ هـ : ٩١٤ - ٩٤٣ م) ، فيحتل عنده منزلة عالية في دولته ، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير . ومهما كان ، فقد صار أبو دلف شاعر الأمير ونديمه ، وصار كذلك سفيره في كثير من المهام كما سنرى ذلك .

- ٥ -

(ا) والسامانيون(١) أسرة فارسية كبيرة لعبت دورا خطيراً فى القرن الثالث الهجرى حتى نال أميرها نصر السامانى (عام ٢٦١ هـ) فى عهد الخليفة المعتمد على الله استقلالا ذاتياً ، وظل يحكم بلاده من عاصمته سمرقند حتى وفاته سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م . . وخلفه من ذريته :

١ - إسماعيل السامانى (٩٧٩ - ٢٩٥ هـ) .

٢ - أحمد بن اسماعيل (٢٩٥ - ٣٠١ هـ : ٩٠٧ - ٩١٤م) .

٣ - نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ - ٣٣١ هـ : ٩١٤ - ٩٤٣ م) ، وهو الذى عاش فى ظلاله أبو دلف ، ولا نعرف شيئاً عن الظروف التى قادته إلى بلاط هذا الأمير ، ولا مقدمات صلته به . وفى عهد هذا الأمير السامانى كانت الدولة السامانية قد بلغت أوج عزتها وذروة مجدها .

٤ - نوح بن نصر (٣٣١ - ٣٤٣ هـ : ٩٤٣ - ٩٥٤ م) .

٥ - إلى ملوك آخرين طار صيتهم فى العالم الإسلامى ، ومنهم : نصر ابن نوح السامانى (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) ، ونوح بن منصور (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) .

وكانت بخارى قد صارت عاصمة السامانيين ، وأصبحت تزخر بالأدباء والعلماء والشعراء والحكماء .

وكان الجيهانى(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر وزيرا للسامانيين

---

(١) راجع ١١ : ٧٦ - ٨٢ دائرة المعارف الاسلامية .
(٢) راجع عنه ٢١٩ - ٢٢٣ تاريخ الأدب الجغرافى العربى -

(توفى عام ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م)، وكان يشجع الأدباء ، ويحتفى بالعلماء ، ولعله هو الذى احتضن أبا دلف ، أو اتخذه كاتباً له ، وعن طريقه توطدت صلته بالملك السامانى نصر بن أحمد .

(ب) وفى عهد الملك نصر بن أحمد وفد إلى بخارى وفد هندى برياسة الأمير الهندى كلاتلى فى سفارة هندية إلى بلاط الملك السامانى ، وأنجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم إلى بلادهم بعث معه الملك شاعره أبا دلف ليكون مرافقاً لهم .

وزار أبو دلف فى هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل مليبار ، ووصف

= لكراتشوفسكى وينقل القزوينى عن الجيهانى كثيراً فى المسالك والممالك الشرقية (راجع كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى) .

وينسب هذا الوزير إلى جيهان احدى مدن خراسان ، ويقول ياقوت عنه (٣ : ١٩٥ معجم البلدان) : إنه كان أديبا فاضلا . وقد ألف الجيهانى كتابا فى صورة العالم ـ أى فى الجغرافيا ـ بعنوان « المسالك فى معرفة الممالك» وذلك نحو عام ٣١٠ هـ : ٩٢٢ م ، وهو مفقود .

والجيهانى هو الذى شجع أبا دلف وابن فضلان على أعمالهم الجغرافية .

وهو الذى أغرى أبا زيد البلخى (٢٣٥ - ٣١٨ هـ) الفلكى بالانتقال إلى بخارى ، وكان بين البلخى والجيهانى صلة وثيقة ، ولكن البلخى اعتذر له ، وألف البلخى كتابه « صور الأقاليم» عام ٣٠٨ هـ ٩٢٠ م بتشجيع من الجيهانى ، وفى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت مخطوط بعنوان « ذكر المسافات وصور الأقاليم لأبى زيد البلخى »وهو برقم ١٤ جغرافيا ـ ويذكر الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار أن نسبة هذا المخطوط إلى البلخى خطأ وأنه كتاب ابن خرداذبة المطبوع بعنوان « المسالك والممالك » .

ذلك كله فى كتاب ألفه بعنوان «عجائب البلدان»، والظاهر أنه مجموع رسالتيه فى وصف رحلاته(١).

وفى آخر حكم نصر بن أحمد السامانى وفد على بخارى كذلك وفد صينى، ويقص أبو داف قصة هذا الوفد، فيقول (٢):

«إن رسل ملك الصين جاءوا ليخطبوا ابنة الملك السامانى لملكهم، فأبى نصر بن أحمد ذلك، واستنكره، لحظر الشريعة له، فلما أبى ذلك عرضوا عليه أن يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين، فأجاب إلى ذلك، فاغتنمت قصد الصين معهم».

وكان ذلك نحو عام ٣٣١ هـ : ٩٥٢ م، وقد عبر أبو داف هو والوفد الصينى تركستان الغربية، وتركستان الشرقية وبلاد التبت، ودخل الصين من مدينة «مقام الباب»، فوادى المقام، فسندابل العاصمة.. ويقول أبو داف(٣):

---

(١) كنت أظن أنه كتاب مستقل مفقود، ولكن أبا داف يبدو أنه قسمه إلى رسالتين، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلا عن الاسم الأصلى وهو «عجائب البلدان»، وقد جرى على ذلك بروكلمان، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبى داف، وإنما ذكر مكانها كتاب «عجائب البلدان».

(٢) ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت.

(٣) ٥ : ٤١٤ معجم البلدان.. وفى مروج الذهب للمسعودى المؤرخ (ت ٣٤٦هـ) ج ١ صفحة ٣٤٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد: وقد رأيت ببلخ شيخا جميلا ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط.. فهل يقصد المسعودى بذلك أبا دلف؟

ودخلت على ملكهم ، فخاطبته الرسل بما جاءوا به من تزويجه ابنته من نوح بن الملك الساماني نصر بن أحمد ، فأجابهم إلى ذلك ، وأحسن إلى وإلى الرسل ، وأقمنا في ضيافته ، حتى نجزت أمور المرأة ، وتم ما جهزها به ، وحملت إلى خراسان ، إلى نوح بن نصر ، فتزوج بها . ويقول أبو دلف :

وأقمت بسندابل العاصمة مدة ، ألقى ملكها في الأحايين ، فيفاوضني في أشياء ، ويسألني عن أمور من أمور بلاد الإسلام ، ثم استأذنته في الانصراف فأذن لي بعد أن أحسن إلى » .

وغادر أبو دلف الصين إلى الهند حتى رجع إلى بلاده عن طريق سجستان .

وزادت هذه الرحلة من مكانة أبي دلف في دولة السامانيين ، ومن منزلته في عصره ، وفي الحياة الإسلامية بصفة عامة .

— ٦ —

في ظلال البويهيين :

(أ) وتنقضى هذه المشاهد كلها ، ونرى ابن ينبع الكبير يعيش في ظلال دولة البويهيين ، ولا ندرى كيف كان ذلك ، ولا متى كان ؟

ترك أبو دلف بخارى والسامانيين إلى البويهيين ، ووزيرهم الشهير ابن العميد ، ثم وزيرهم الكبير الصاحب بن عباد ، وإلى عواصمهم الكبرى يتنقل بينها : اصبهان والرى ، وبغداد ، وأصبح رفيع المكانة عند عضد الدولة الملك البويهى نفسه .

(ب) وتاريخ البويهيين حافل بالانتصارات الكبيرة فهذه الأسرة الفارسية(١) التى بسطت نفوذها على خراسان وفارس والعراق ، انتهى الأمر بزعيمها أحمد بن بويه إلى دخول بغداد فى الحادى عشر من جمادى الأولى عام ٣٣٤ هـ فى خلافة المستكفى بالله ، وأصبح بجوار الخليفة سلطانا أو ملكاً على الشعوب الاسلامية ، ولقب « معز الدولة » (٣٣٤ — ٣٥٦هـ) وخلفه ابنه عز الدولة (٣٥٦ — ٣٦٧ هـ) ، ثم عضد الدولة (٣٦٧-٣٧٣هـ) وغيرهما من ملوك البويهيين .

واستبد البويهيون بالخلفاء استبداداً كبيراً ، ولهم الملك والنفوذ والسلطان .

---

(١) ينسب البويهيون أنفسهم إلى بهرام جور (٨ : ٢٩٧ ابن الأثير) وبهرام جور هو القيصر الساسانى بهرام الخامس (٤٢٠ - ٤٣٨م) وأحمد معز الدولة ، والحسن ركن الدولة (٣٢٠ — ٣٦٦ هـ) ، وعلى عماد الدولة : حكم هؤلاء الأخوة الثلاثة العالم باسم الخليفة العباسى . وأقام معز الدولة فى بغداد ، وركن الدولة فى الرى ، وعماد الدولة فى شيراز .

وصار الذى فى أيدى العباسيين إنما هو أمر دينى اعتقادى لا ملك دنيوى كما يقول البيرونى (ت عام ٤٤٠ هـ) فى كتابه « الآثار الباقية » (١) . وحتى صار الخليفة لا يأمن على نفسه وحياته من بطش البويهيين متى أرادوا .

خلعوا المستكفى بالله بن المكتفى (٣٣٣ – ٣٣٤ هـ) وولوا مكانه المطيع لله بن المقتدر (٣٣٤ – ٣٦٣ هـ) ثم خلعوه ومات بعد عام ، وولوا مكانه ابنه الطائع لله (٣٦٣ – ٣٨١ هـ) ، وخلعوه وقبضوا عليه وعذبوه . وولوا مكانه القادر بالله (٣٨١ – ٤٢٢ هـ) ، فقال فى ذلك الشريف الرضى :

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه
لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى
يا قرب ماعاد بالضراء يبكينى (٢)

ومن أشهر وزراء البويهيين وزيران :

أولهما : أبو الفضل محمد بن العميد (٣٠٠ – ٣٦٠ هـ) وكان إمام عصره فى الأدب والكتابة والبلاغة ، كما كان له مجده وهيمنته وسلطانه السياسى فى دولة البويهيين ، وكان وزيراً لركن الدولة البويهى (٣٢٠ – ٣٢٦ هـ : ٩٧٢ – ٩٧٦) وذلك من عام ٣٢٨ هـ : ٩٣٩ م .

---

(١) ٢ : ١١٣ المرجع .

(٢) راجع ٢ : ٨٦٧ ديوان الرضى ، ٣ : ٢٠٢ تجارب الأمم لمسكويه وكتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » .

وقد بدأ أبو دلف يتصل به ، والظاهر أنه أقبل عليه ثم أعرض عنه ، فهجاه أبو دلف، ورد عليه ابن العميد ، مهدداً برسالة طويلة رواها أبو حيان التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزين » (١) وجاء فيها :

« الآن علمت أيها الشيخ أنك لى مكايد، وإلى جميع ما أنهاك عنه مخالف وعلى ديدنك المعروف ثابت ، وبفضلة لسانك مسحود . . »

إلى أن يقول ابن العميد :

« تقاعست عنى بلا عذر ، ووقفتنى بين وصل وهجر . فلم أدر كيف أعاطيك ؟ وعلى ماذا أعاتبك ؟ لأنك مشهور بقحة ، ومذكور بسلاطة ، ومعتاد للبهت ، وجار على الكذب » .

« وأول ذلك أنك تدعى بنوة محمد بن زكريا من ناحية ابنه ، وقد شاهدت محمداً وما حلف بنتاً » .

ثم يقول ابن العميد فى غضب ظاهر :

إن فى الموت خلاصا منك ، ومفارقة لمثلك ؛ والله ما أندب إلا حسن ظنى بك ، ومباهاتى أهل مجلسى بفضلك ، وقولى : « أبو دلف وما أدراك ما أبو دلف ؟ لا تنظروا إلى هزله ، فإن وراء ذلك جدا ، وهو المرء الذى قد جمع الله له بين المنظر والمخبر ، وبين الدعوى والبينة ، وبين القول والحجة وبين الضمان والوفاء ، وبين الصداقة والشفقة » .

« فما زلت أقول هذا وشبهه ، وأصحابى يشيعون قولى بمثله فى الظاهر ، ويخالفونى بعلمهم فى الباطن ، حتى كان الملج لهم ساعة هذه ، لأنى احتججت إلى علمك بخيبت عهدى ، وأقبلت عليك فأعرضت عنى ، ووهبت لك كلى ، فبخلت ببعضك على . . ولقد استمدت بمعرفتك تجنب مثلك . » .

---

(١) ص ٢٨٩ — ٢٩٢ المرجع المذكور .

ويقول أبو حيان التوحيدى(١) :

قلت لأبى دلف : ما أجبته عن هذا الكلام ؟

قال : عملت شيئاً لم أجسر على إظهاره ، وخفت صولته ونكايته وشره وغائلته .

وتوفى ابن العميد عام ٣٦٠ هـ وولى ابنه أبو الفتح منصب أبيه فى عهد ركن الدولة ، ثم فى عهد مؤيد الدولة الذى كان يؤثر تلميذ ابن العميد الصاحب بن عباد ويقدمه وانتهى الأمر بمقتل أبى الفتح الوزير عام ٣٦٧هـ .

أما الوزير الثانى من وزراء البويهيين الكبار : فهو الصاحب بن عباد (٣٢٤ — ٣٨٥ هـ : ٩٣٦ —٩٩٥م) الوزير البويهى الكبير طيلة ثمانية عشر عاماً (٣٦٧ - ٣٨٥) .

وصار أبو دلف قريب المنزلة من الصاحب(٢) ، يجلس فى مجالسه فى أصبهان والرى منادما ، ومادحاً ، وكان الصاحب نادرة الدهر ، وأعجوبة العصر (٣) ، وظل وزيراً مدى ثمانية عشر عاماً (٣٦٧ - ٣٨٥ هـ) ، وكانت له خزانة كتب فيها نحو ربع مليون كتاب(٤) .

وقد احتف بالصاحب من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل

---

(١) مثالب الوزيرين .

(٢) راجع عنه : ٢/٢٦٨ — ٢٧٠ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان — كتابى الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى — ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت .

(٣) ١ : ٧٥ وفيات الأعيان .

(٤) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت .

وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، وملك رق المعاني . فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين ، وجمعت حضرة الصاحب بن عباد باصبهان والري وجرجان مثل : أبي الحسن السلامي ، وأبو سعيد الرستمي ، والبديع الهمذاني ، والقاضي الجرجاني ، وأبي القاسم بن أبي العلاء ، وأبي دلف ، والصابي ، وسواهم ، ممن يطول ذكرهم كما يقول الثعالبي في « يتيمة الدهر »(١).

ويذكر الثعالبي أبا دلف من شعراء الصاحب ومنادميه وجلاسه(٢).

ويقول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبي دلف مسعر بن مهلهل الينبعي ، يشعر ويتطبب ويتنجم (٣).

وكان الأدباء يجدون في ظل الصاحب أمناً وأماناً لهم ، مما حل بالبلاد في عهد البويهيين من فقر مدقع ، فقد صارت العراق - كما يقول المقدسي - بيت الفتن والغلاء(٤) واحترف أكثر العلماء والأدباء صناعة الوراقة ، كأبي حيان التوحيدي (٣٢٠ - ٤١٤ هـ) وغيره .

واتصل أبو دلف بعضد الدولة ٥) الملك البويهي في بغداد ، وجلس في

---

(١) ٣/١٠٩ اليتيمة . (٢) ٣ : ١٨٩ المرجع نفسه .
(٣) ٣ : ٤٠٠ المرجع . (٤) ١١٣ أحسن التقاسيم .
(٥) من شعراء عضد الدولة : المتنبي ، والسلامي ، وغيرهما ، ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده أبو علي الفارسي الذي أهداه كتابه « الايضاح » (٣ : ٦٧ ذيل تجارب الأمم لمسكويه)

مجالسه شاعراً ومنادماً ، وتصور لنا القصة الآتية مكانة أبي دلف عند هذا الملك البويهي الكبير . وقد رواها الثعالبي في كتاب « لطائف المعارف » :

جرت بين أبي علي الهائم وأبي دلف الخزرجي في مجلس أنس لعضد الدولة بشيراز مطايبة ومداعبة ، ومحاضرة ، ومذاكرة .

فقال أبو علي لأبي دلف :

صب الله عليك طاعون الشام ، وحمى خيبر . وطحال البحرين ، ودماميل الجزيرة ، وسناقر دهستان(١) ، وضربك بالعرق المدني(٢) ، والنار الفارسية ، والقروح البلخية .

فقال له أبو دلف :

يامسكين ، أتقرأ « تبت » على أبي لهب وتنقل التمر إلى هجر .

بل صب الله عليك : ثعابين مصر ، وأفاعي سجستان ، وعقارب شهروزور ، وجرادات(٣) الأهواز .

وصب علي برود اليمن ، وقصب مصر ، وديابيج الروم ، وخزوز السوس ، وحرير الصين ، وأكسية فارس ، وحلل أصبهان ، وعمائم الأبلة ، وسقلاطون(٤) بغداد وسنجاب (٥) خرخير(٦) ، وسمور(٧) بلغار ، وثعالب

---

(١) السنقر والسنقور : طائر من الجوارح أعظم من الصقر وأجمل منه ودهستان : بلد مشهور قرب خوارزم وجرجان .

(٢) مرض يصيب الإنسان

(٣) نوع من الحشرات . (٤) ثياب من الحرير موشاة بالذهب .

(٥) حيوان تصنع منه الفراء .

(٦) موضع ينسب إليه جنس من الترك .

(٧) دابة يتخذ من جلدها فراء ثمينة .

الخزر (١)، وفنك (٢) كاشغر ، وفاقم (٣) التغزغز ، وحواصل (٤) هراة، وتكك (٥) أرمينية ، وجوارب قزوين .

وأفرشني : بسط أرمينية ، وزلالي قاليقلا ، ومطارح (٦) ميسان، وحصر بغداد .

وأخدمني : خصيان الروم ، وغلمان الترك ، وسراري بخارى ، ووصائف سمرقند .

وحملني على : عتاق البادية ، ونجائب الحجاز ، وبراذين طخارستان ، وحمير مصر ، وبغال برذعة .

ورزقني : تفاح الشام ، ورطب العراق ، وموز اليمن ، وجوز الهند ، وباقلاء الكوفة ، وسكر الأهواز ، وعسل أصبهان وتمر كرمان ، ودبس أرجان ، وتين حلوان ، وعنب بغداد ، وعناب جرجان ، وإجاص بست ، ورمان الري وكمثرى نهاوند ، وسفرجل نيسابور ، ومشمش طوس ، ومابين مرو ، وبطيخ خوارزم .

وأشمني : مسك تبت ، وعود الهند ، وعنبر الشحر ، وكافور فنصور (٧) وأترج طبرستان ، ونارنج البصرة ، ونرجس جرجان ، ونيلوفر السيروان (٨)

---

(١) قبائل على سواحل بحر الخزر (قزوين) .
(٢) ثعلب صغير .
(٣) حيوان فروه من أفخم الفراء .
(٤) الجلود تلبس للتدفئة .
(٥) رباط السراويل (٦) بسط .
(٧) بلد قرب الصين . (٨) بلد بالجبل .

وورد جور ، ومنثور بغداد ، وزعفران قم (١) .

فأعجب عضد الدولة بكلام أبي دلف ، ووفور حظه من طوافه بالشرق والغرب ، ووقوفه على خصائص البلدان في كل مكان من العالم الإسلامي .. ولم يملك إلا أن صاح بملء فيه بهذه العبارة العجيبة التي لم يقلها ملك في أحد من الأدباء أو الرعية ، قال عضد الدولة في تعجب ظاهر :

« لله درك يا أبا دلف . (٢) .

ملك يا أبا دلف ينادم الملوك » .

وأمر له بخلعة وصلة حسنة .

وتدل هذه القصة على ما يلي :

١ – كثرة طواف أبي دلف بالعالم الاسلامي ، ووقوفه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلد من بلدانه .

٢ – حضور بديهته ، ووفرة أدبه .

٣ – ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة .

٤ – وفرة حظه بين منادمة الملوك وحسن مجالستهم .

وتوفي عضد الدولة عام ٣٧٣ هـ ثم توفي بعده بزمن ليس بطويل وزيره الصاحب ، وذلك عام ٣٨٥ هـ .

---

(١) ٢٣٤ — ١٣٩ لطائف المعارف للثعالبي — بتحقيق الابيارى والصيرفي .

(٢) ٢٣٩ المرجع السابق .

وتقاذفت الأيام بأبي دلف وشهد نهاية صديقيه الصاحب وعضد الدولة ومرت به السنوات ، من فقر لغنى ، ومن غنى لفقر ، ولم يجد كريما كالملك الساماني ولا كالصاحب الوزير ، ولا كعضد الدولة البويهي .

ورأى الحياة من حوله لم تعد تحتفي بالأدب ، ولا تعير الأدباء جانبا من رعايتها .

وشاهد نتائج رحلاته وطوافه بالبلاد ، وتدوينه للأرجاء ، تصبح وكأنها ليست شيئا مذكورا .

وتذكر زملاءه الشعراء : المتنبي ، السلامي ، القاضي الجرجاني ، وأبا سعيد الرستمي ، والبستي .

وأقرانه من الأدباء والكتاب : الخوارزمي ، البديع الهمذاني ، الصابي ، الصاحب ، ابن العميد .

وقد طوت كل هؤلاء الأيام ، ومضت بهم الحياة إلى مصيرها المحتوم .

فأسلم نفسه للمقادير ، إلى أن لقي ربه نحو عام ٣٩١-١٠٠١ م كما أرجح ، أو عام ٣٩٠ هـ كما ذكر الزركلي في « الأعلام » ، والعلامة حمد الجاسر في كتابه « بلاد ينبع » نقلا عن « الأعلام » .

— ٧ —

١ ــ أبو دلف كاتبا :

أمامنا نصوص نثرية كثيرة لأبي دلف ، منها رسالتاه في وصف رحلاته عبر الصين والهند وآسيا الوسطى ، ومنها رسائل نثرية صغيرة .

وهذه النصوص تظهر لنا بوضوح شخصية أبي دلف الأدبية .

إنه كاتب متعمق المعانى ، كثير التجربة ، عظيم الخبرة ، دقيق الأفكار .

وهو إلى جانب ذلك سمح الأسلوب ، عذب اللفظ ، واضح الصياغة ، وضوح معانيه ، ليس فى أدائه تعقيد ، أو اغراب أو تكلف أو حوشية ، أو معاظلة .

أسلوبه أقرب الأساليب إلى سماحة أسلوب المطبوعين ، ووضوح أساليب المعاصرين ، وكأنه أسلوب صحفى معاصر ، مطبوع على البيان الجيد ، متمكن من اللغة والبلاغة .

وقد كان أبو دلف يعيش فى عصر المطبوعين على البيان ، وفى ذروتهم ابن العميد ، والصاحب ، والخوارزمى والبديع ، والصابى ، وأبو حيان ، وغيرهم من أعلام البلاغة والكتابة والنثر الفنى .

وأبو دلف يتخذ من الرسالة مادة لعمله العلمى ، ويبعد عن قيود الصناعة البديعية وزخارفها ووشيها ، مع التركيز الشديد فى رسائله ، ومع الوصف الدقيق للأشياء التى يصفها .

ومقدمتا رسالتيه تمتازان بأسلوبهما الفنى السهل ، ومع ذلك فإن سعة ثقافة الرجل فرضت نفسها على كتابته ، فليس هناك كلمة أو حرف قد جىء بها أو به لغير ما داع يتطلبه المعنى والغرض المسوق له الكلام .

وأبو دلف قلما يعنى بالحديث عن نفسه وتجاربه فى كتاباته ، فهو كاتب موضوعى أكثر منه كاتبا وصفيا .

وهو جدير باهتمامنا ، وعنايتنا وتقديرنا لعلمه وتعدد ثقافته ، وسعة جوانب شخصيته .

ويبدو أن اتصاله الوثيق بالسامانية والسامانيين ، قد قرب أسلوبه من واقع الحياة ، ومن حاجة العصر إلى الدراسات الطبيعية والطبية والعلاجية

والأثرية والجيولوجية . وجعل جانب العلم أغلب عليه ، وأظهر على أدبه من جانب الخيال والعاطفة .

ومن العسير أن نفترض أنه لم يحى حياة الساسانيين ، فأدبه قطعة من صميم حياتهم ، وليس فيه أثر للتقليد أو الصنعة أو الزيف ، وصلة أبى دلف الوثيقة بهذا الوسط الاجتماعى المتميز جعله نموذجا حيا للساسانى الخالص[1] وجعل من أدبه وتجاربه صورة واضحة متكاملة نظر إليها مثل البديع الهمذانى فى اكبار وإجلال وتقدير ، واتخذها نموذجا فنيا فى عمله الأدبى الجديد فى فن المقامة ، مما سنحيط به بعد قليل .

---

(١) حب أبى دلف للفن وظروفه جعله يحترف الأدب الساسانى احترافا مبدعاً حتى لم يبق فرق بين الأصل والصورة . والطبع والصنعة ، وكذلك كنا نرى فى عصرنا أناسا يرتدون — من أجل الظرف والفكاهة — رداء أشعب فى جشعه وطمعه ، وهم أعز نفسا ، وأكرم طبعا . وعلى أية حال فهناك فرق بين النموذج والأصل أو الحقيقة ، ونحن مضطرون لأن نقول هنا ماقلناه من ساسانيته لأن أبا دلف صور نفسه فى قصيدته الساسانية بهذه الصورة الساسانية الخالصة ، وإذا علمنا أن أبا دلف عاش فى قصور الملوك ونال جوائزهم ، وكانت له ألف حرفة — كما يقولون — أدركنا أنه لم يكن ساسانى التكسب ، بل ساسانى الفن وحده .

— ٧ —

أبو دلف .. شاعراً

(ا) عاش أبو دلف عالم ينبع وأديبها وشاعرها فى عصر ازدهار الشعر ونهضته فى القرن الرابع الهجرى ، عصر المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ) ، والشريف الرضى (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ) ، وأبى فراس الحمدانى (٣٢٠ - ٣٥٧ هـ) والرفاء (٣٦٦ هـ) ،والسلامى (٣٩٤هـ) ، وكشاجم (٣٥٠ هـ) ، والخالديين وابن الحجاج (تـ ٣٩١ هـ) ، والوأواء الدمشقى (تـ ٣٩٠ هـ) ، والصنوبرى (٣٣٤ هـ) ، وقابوس بن وشمكير (٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م) وابن سكرة (٣٨٥ - ٩٩٥ م) ، والبستى (٣٢٠ - ٤٠٠ هـ) ، وسواهم من أعلام الشعر العباسى .

وشهر - أول ما شهر ابن ينبع - بالشعر ، فقصد به ملوك الساسانيين ووزراءهم يمدحهم ، وينشد فيهم القصائد الطوال ، ثم ذهب إلى البويهيين ، ملوكهم ووزرائهم ، فمدحهم بقصائده الجياد .

ومن الأسف أن شعر أبى دلف أو ديوانه يعد مفقودا حتى اليوم ، ولا نعرف له إلا القليل جدا من شعره ، مما سجله الثعالبى فى « اليتيمة » ، ومن أهم ماحفظه الثعالبى لنا من هذا التراث الشعرى قصيدة أبى دلف - أو رائيته الساسانية ، التى سوف نتحدث عنها بعد قليل .

(ب) وأشهر أغراض شعره : المدح - والهجاء - والفكاهة ، وأهم أغراضه الشعرية على الاطلاق هو شعره الساسانى الذى سنتعرض له .

ولنبدأ بذكر مقتطفات مما بقى من شعره ، لنتعرف إلى شاعريته ، ونقف على مدى أصالته .

١ — كان أبو عيسى بن المنجم الطبيب من جلساء الصاحب ، وكان الصاحب قد أهداه دابة فارهة . فكان يركبها كلما قصد مجالس الوزير ، وهلكت الدابة أو قل نفقت ، فطلب الصاحب من شعرائه أن يكتب كل منهم قصيدة فى رثاء البرذون الراحل ، وينشدها فى مجلسه ، ويقدمها إلى أبى عيسى ، فاجتمع الشعراء ، ثلاثة عشر شاعرا ، فى مجلس حافل من مجالس الصاحب الوزير ، وألقى كل منهم قصيدة(١) . وقام شاعرنا أبو دلف فأنشد أرجوزة طويلة فى رثاء الفقيد ، ضمنها أحر عواطفه ، فماذا قال الشاعر فى هذا الموضوع ؟ استمعوا إلى أبى دلف ينشد(٢) :

دهـــر علـى أبنـائه وثاب
يا لك دهـــراً كله عقـاب
أصبح لا يردعـــه العتـاب
واهـا لنـــاء ما له إيـاب
لكل قلب بعـــده اكتئاب
ذو نسب تحســـده الأنساب
قد كملت فى طبعـــه الآداب
كأنما غـــرته شهـــاب
كأنما لبـــاته محـــراب
لا خـــبر منـك ولا كتاب
تناوبتك للردى أنيـــاب
تجزع من أمثالهـــا الأحباب
وكنت لو طالت بك الأوصاب
يخف فى مصرعك المصاب

---

(١) ٣ : ٢١٣ - ٢٣٦ يتيمة الدهر .
(٢) ٣ : ٢٢٣ - ٢٢٥ المرجع .

وأنــت فرد ما له أتراب
قل لأبي عيسى : وما الاسهاب
بنـافع : تم لك الشـــواب
فاسكن فهذا الصاحب الوهاب
في جـــوده وفضله منـاب

٢ - ويقول أبو دلف أيضاً يصف ترفه وشجاعته :

إني امرؤ كسروى الفعال أصيف الجبـال وأشتو العراقا
وألبس للحـــرب أثوابها وأعنـــق الدارعـــين اعتناقا

يقول ابن الفقيه (١) : اختار أبو دلف بفضل رأيه أن يصيف الجبال، ليسلم من سمائم العراق وذبابه وسخونة مائه وهوائه ، ويشتو بالعراق ليسلم من زمهرير الجبال وكثر رياحها ووحولها .

٣ - ولما طوت الأحداث حياة أبي دلف المترفة فأحالته فقيرا بعد غنى قال (٢) .

ألم ترني حين حال الزمان أصيف العراق وأشتو الجبالا
سموم المصيف وبرد الشتاء حنـانيك حالا أزالتك حالا
فصبرا على حـدث النائبات تأبى الحـــوادث إلا انتقـالا

٤ - ووقف أبو دلف أمام بعض آثار تدمر في الشام، فقال :

ما صورتان بتدمر قد راعتا أهل الحجى وجماعة العشاق

---

(١) ٢٤١ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه - طبعة بريل ١٣٠٢ هـ .
(٢) ٢٤١ المرجع السابق .

غبرا على طـــول الزمان ومره · لم يسأما من ألفـة وعنـاق
فليرمين الدهـر من نكباته · شخصيهما منـــه بسهم فراق
وليبلينهما الزمان بـــكره · وتعاقب الإظـــلام والاشراق
كى يعـلم العلمـــاء أن لا دائم · غير الإله الواحـد الخـلاق

٤ ـ ولأبى دلف حـكم مأثورة مشهورة ومنها أبياته السائرة (١) :

هى المقادير تجرى فى أزمتها · فاصبر فليس لها صبر على حال
دع المقادير تجرى فى أعنتها · ولا تبيـــتن إلا خالى البـــال
ما بين طرفة عين وانتباهتها · يغير الله من حال إلى حال

وليس بين أيدينا نصوص من حـكمه لأن شعره مفقود إلا النماذج التى رواها الثعالبى .

٥ ـ ويذكر الثعالبى أن الصاحب الوزير بنى قصرا بأصبهان ، وانتقل إليه ، واقترح على شعرائه أن يقولوا فيه شعرا . . وفى يوم حافل اجتمع شعراؤه الثلاثة عشر فى مجلس الصاحب ، ومن بينهم شاعرنا أبو دلف (٢) ، فأنشد كل منهم قصيدة طويلة فى مدح الصاحب وصف القصر ، وقد ذكر الثعالبى هـذه القصائد ومن بينها قصيدة أبى دلف . ومطلع قصيدة أبى دلف هو :

رأينـــا طلعـــة الدار شموســـا مـــع أقـــار

(١) كتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبى ، ومن الطريف أن هذه الأبيات لشهرتها رويت بروايات مختلفة ، ونسبت لكثير من الشعراء ، منهم : الشافعى والواثق العباسى ، وإسحاق الموصلى ..

(٢) ٣ : ٢٠٢ ـ ٢١٣ اليتيمة .

ولی مسألة بعد فعاجلنی بإخبار
بنيت الدار فی دنياك ، أم دنياك فی الدار ؟

٦ ـ ولننتقل إلى قصيدة أبي دلف الساسانية المشهورة العجيبة .. وقبل أن نذكرها نذكر مدلول « الشعر الساسانى » .

(ج) الشعر الساسانى له بذور قديمة فى شعر الصعاليك . وفى مزاح أشعب وطبقته ، وفى أدب الجاحظ وبعض كتاباته .

وقد عم الفقر البلاد الاسلامية فى العصر البويهى ، كما ذكرنا آنفاً ، وما أقسى ما قاله أبو حيان فى كتابه « الامتاع والمؤانسة » (١) : القوت لم يكن إليه سبيل إلا بإخلاق المروءة ، وتجرع الأسى ، ومقاساة الحرفة ، ولذع الحرمان ، والصبر على ألوان وألوان ، أو مايقوله ابن لنكك البصرى :

جار الزمان علينا فى تصرفه وأى دهر على الاحرار لم يجر ؟

وكان كثير من الساخطين والمشعوذين والمحتالين والسائلين والجواة يجوبون البلاد ، ويطوفون بالأقاليم ، ويتفننون فى اختراع الحيل للحصول على المال ، ويظهرون أحيانا إن صدقا وإن كذبا أنهم مجاهدون أحيانا أو من أبناء السبيل ، أو ممن نهبت أموالهم فى الطريق ، أو مرضى ، أو غير ذلك ، فأطلق على هؤلاء بنو ساسان ، أو الساسانيون (٢) وكان جامع الاهواز مأوى الكثير منهم (٣) .

وظهر الشعراء والأدباء الذين يقولون شعرهم وأدبهم فى الاستجداء

---

(١) ٢ : ١٤٣ الكتاب المذكور .
(٢) ١١/٤٦ و ٤٧ دائرة المعارف الاسلامية .
(٣) ٧ أحسن التقاسيم للمقدسى .

وفى الاحتيال على أخذ المال من أى طريق ، وقيل لجماعة هؤلاء الشعراء والأدباء أيضاً : ساسانيون ، وقيل لأدبهم وشعرهم : أدب وشعر ساسانى ؛ وكم هناك من فرق بين المدح وبين الاستجداء والاحتيال على الناس ؟ .

وللساسانيين لغة واصطلاحات خاصة لا يعرفها إلا من كان منهم ، وتعرف هذه اللغة باسم « مناكاة بنى ساسان » ، وكان الصاحب يحفظ منها الكثير حفظاً عجيباً ، كما يقول الثعالبى فى اليتيمة (١) ، وكان يعجبه من أبى دلف وفور حظه من هذه اللغة فى شعره ، وبخاصة فى قصيدته الساسانية الطويلة ، التى كتبها وقدمها (٢) إلى الصاحب ، ووصف فيها حيل بنى ساسان وأساليب حياتهم ، وقد اختار منها الثعالبى فى اليتيمة نحواً من مائتى بيت .

هذا هو معنى الشعر الساسانى بإجمال ، فمن هو ساسان الذى نسب إليه ؟

قيل : هو أمير من الأسرة الساسانية (٣) الفارسية المالكة ، حزن لما تولت أخته الملك وحرم هو منه ، فاشترى غنماً ، وجعل يرعاها ، ويعير بأنه راعى غنم ، فنسب إليه كل من احترف الكدية .

وقيل (٤) : إن الساسانيين كانوا شراذم الأمراء من بنى ساسان ، جاء الاسلام فذلوا بعد عز ، وافتقروا بعد غنى ، ورحلوا من مكان إلى مكان ، فصارت نسبتهم إلى الساسانيين نسبة عار وذل ، بعد أن كانت نسبة شرف ومجد .

---

(١) ٣/١٧٦ اليتيمة .

(٢) ٢١٨ « الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى » — طبعة عام ١٩٤٩ م .

(٣) أسرة فارسية حكمت إيران ، أولهم أردشير (٢٢٦ — ٢٤١ م) ، وآخرهم يزدجرد الثالث (٦٣٢ - ٦٥١ م) الذى سقطت الامبراطورية الفارسية فى عهده فى أيدى المسلمين (راجع ١١ /٤٧ — ٥٥ دائرة المعارف الاسلامية و ١ : ١٤٢ « ظهر الإسلام لأحمد أمين) .

(٤) هو رأى محمد عبده فى شرحه لمقامات البديع — ص ٩٧ .

وقيل أن ساسان كان رجلا من عامة الناس، ماهرا فى الحيلة والاستجداء، فنسب إليه هؤلاء.

وكان من الساسانيين شعراء دقل الحرمان مواهبهم ، وأنضج الألم عبقريتهم ، ومنهم شاعرنا أبو دلف ، وشاعر آخر ضاهاه فى رفعة المنزلة فى الأدب الساسانى ، وهو الأحنف العكبرى ، الذى قيل عنه ، إنه آدب بنى ساسان فى بغداد ، وقال الثعالبى عنه : هو فرد بنى ساسال اليوم بمدينة السلام (١) .

---

(١) ١١٧/٣ اليتيمة - ٢٢٤ بديع الزمان للشكعة .

ولقد ذكر الجاحظ - فى « المحاسن والأضداد » وفى « البخلاء » ص ٣٦ - الكدية والمكدين .. وفى المحاسن والمساوىء للبيهقى نصوص عن الجاحظ فى ذلك (٦٢٢ - ٦٢٤ المحاسن للبيهقى) .

ويذكر بديع الزمان فى مقاماته اللصوص وحيلهم - راجع المقامة الرصافية - كما يذكر الكدية ، فى مقامته الساسانية ، التاسعة عشر ، يدافع عن الكدية ، ويذكر الكثير من بواعثها وقد ذكر التوحيدى (١٤٣/٢ الإمتاع والمؤانسة) الساسانيين راثياً لحالهم .

وفى مقامات الحريرى المقامة الساسانية التاسعة والأربعون ، وفيها يوصى أبو زيد السروجى ابنه وولى عهده وكبش الكتيبة الساسانية من بعده بصناعة الكدية ، وبالزهد فى غيرها من الصناعات ، ولو كانت إمارة أو تجارة أو زراعة أو صناعة .

وأدوات صناعة الساسانية كما صورها الحريرى: الفطنة والذكاء والوقاحة وأن يكون الساسانى أجول من قطرب ، وأسرى من جندب ، وكذلك الجد والمثابرة ، فلا يسأم الطلب ، ولا يمل الدأب ، وعليه بالاقدام ولو على =

وقد أكثر العكبرى من تصوير بؤسه وحرمانه ، فيقـــول :

العنـكبوت بنت بيتاً على وهن   تأوى إليه وما لى مثلها وطن

ويقول أيضاً :

عشـــت فى ذلة وقـــلة مال   واغتراب فى معشر أنـذال

بالأمانى أقول لا بالمعانى   فغذانى حلاوة الآمال (١)

ودالية الأحنف الساسانية مشهورة وفيها يقول :

على أنى بحمـــد الله فى بيت من المجـــد

بإخـــوانى بنى ساسا ن أهـــل الجـــد والجـــد

لهم أرض خراسان فقاشـــان إلى الهنـــد

إلى الروم إلى الزنج إلى البلغـــار والسنـــد

قطعنـــا ذلك النهج بلا سيـــف ولا غمـــد

وقد هزت هذه القصيدة أبادلف، فعارضها بقصيدته الساسانية المشهورة التى حشر فيها الخليفة المطيع لله العباسى (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) - الذى لم يكن يملك فى ظلال البويهيين من الأمر شيئاً ، حشره فى جملة الساسانيين الصعاليك الفقراء ، وكان ذلك مما يتندر به الصاحب وعضد الدولة ، وهو على أى حال تندر مر لأنه يشير إلى الحقيقة المرة كاملة ، إذا كان الخليفة فى ظل

= الضرغام ، مع تحليه بالبلاغة ، بأن يكون أخلب بصوغ اللسان ، وأخدع بسحر البيان الخ .

ولصفى الدين الحلى قصيدة ساسانية طويلة فى ١٤٥ بيتاً .

(١) راجع ٣ : ١١٧ - ١١٩ اليتيمة .

البويهيين لا شأن له بشيء من أمور الخلافة والسلطان ، ويعيش دائماً في فقر وحرمان .

قصيدة أبي دلف الساسانية (١) :

قصيدة طويلة ساسانية ، ذكرها الثعالبي في اليتيمة ، وشرح كثيرا من اصطلاحاتها الساسانية ، ولها أهمية كبيرة ، لا في شعر أبي دلف ، ولا في الشعر الساساني ، وحدهما بخاصة ، بل في الشعر العباسي عامة .

وقد اهتم بها المستشرقون اهتماماً شديداً ، فعنوا مثلا بما جاء فيها من وصف الأواني الصينية (٢) .

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين ، ولا يقاربها في هذا الباب أثر أدبي آخر إلا مقامات البديع .

وقد استخدم أبو دلف بكثرة في القصيدة كلمات غامضة من اللغة السرية لآل ساسان ، وقد شرحها الثعالبي وكشف عن مغاليقها ، ولولا ذلك لما فهمنا عنها شيئاً . وكان أبو دلف يجيد هذه اللغة تماماً وقد علم الصاحب إياها بنجاح . وقد أعلن أبو دلف أنه نفسه من زمرة الساسانيين .

يقول شاعرنا من هذه القصيدة :

جفون دمعها يجـــرى لطول الصد والهجـــر
وقلب ترك الوجـــد به جـــرا على جمـر
لقـــد ذقت الهوى طعميـ ـن من حـــلو ومن مـــر

---

(١) ٣ : ٢٥٤ - ٢٧٢ اليتيمة .
(٢) « الرحالة المسلمون في العصور الوسطى » ، د زكي حسن .

ومن كان من الأحرا ر يسلو سلوة الحر
كأمثالى ، وفى الغرب ة أودى أكثر العمر
وشاهدت أعاجيباً وألواناً من الدهر
على أنى من القوم ال بهاليل بنى الغر
بنى ساسان والحامى ال حمى فى سالف العصر
فنحن الناس كل النا س فى البر وفى البحر
أخذنا جزية الخلق من الصين إلى مصر
إلى طنجة ، بل فى كل أرض خيلنا تسرى
لنا الدنيا بما فيها من الإسلام والكفر
فإن ضاق بنا قطر نسر عنه إلى قطر

ويقول أبو دلف فى القصيدة أيضاً :

ومنا شعراء الأر ض أهل البدو والحضر
ومنا سائر الأنصا ر والأشراف من فهر

ويستطرد أبو دلف ، فجعل الخليفة المطيع لله العباسى من جملة الساسانيين :

ومنا قيم الدين ال مطيع الشائع الذكر
وكان معز الدولة ثم ابنه عز الدولة قد ساموه الذل والهوان (١) .

---

(١) ٦/٧٦ و ٣٠٧ « تجارب الأمم » لمسكويه .

ثم يقول أبو دلف عفا الله عنه :

سقى الله بنى ساساً غيثاً دائم القطر
ألا إنى حلبت الدهر من شطر إلى شطر
وجبت الأرض حتى صرت فى التطواف كالخضر
وللغربة فى الحر فعال النار فى التبر
وما عيش الفتى إلا كحال المد والجزر
فبعض منه للخير وبعض منه للشر
فإن لمت على الغربة مثلى فاسمعن عذرى
أمالى أسوة فى غر بنى بالسادة الطهر
فإن أظفر بآمالى شفيت لغلة الصدر
وقد تخفق فوقى عز ة ألوية النصر
وإما تكن الأخرى فلا أبت مع السفر
ولا عدت متى عدت بلا عز ولا وفر

هذه هى أبيات من القصيدة الساسانية ، التى نظمها أبو دلف ، وأنشدها الصاحب ، وطارت شهرتها بين الأدباء وقد أتينا على أبيات قليلة منها بعيدة عن اصطلاحات الساسانيين المعوبصة .

ولا نقول عنها إلا أنها وثيقة أدبية كبيرة(١) الدلالة فى الشعر العباسى ، وأنها من أرفع نماذج الساسانى وهى حافلة بالبلاغة والصور والأخيلة العجيبة .

---

(١) بعد أن كتبت ذلك وجدت آدم متز « فى الحضارة الإسلامية ، ح ٢ : ١٠٧ يقول عنها : إنها وثيقة اجتماعية فى القرن الرابع .

— ٨ —

ولقد كان ابتكار البديع الهمذانى (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ - ١٠٠٧ م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقامة حدثاً أدبياً جديداً فى الأدب العربى .

فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها . ونزعة القصة فيها ، وهذا الحوار الذى طالما دار بين بطلها أبى الفتح الاسكندرى وراويتها عيسى بن هشام ، كما بهرهم هذا النموذج الفنى الرفيع الذى تمثل شخصية الساسانى أبى الفتح البطل .

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتاناً شديداً .

وليس هناك إلا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة فى الأدب العربى ، وصاحب الفضل فى إنشائها ، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاسم بن على البصرى (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) فى مقدمة مقاماته ، فقد جعل ابتداع المقامات راجعاً إلى بديع الزمان ، وعلامة همذان ، وكذلك جعل الثعالبى فى « اليتيمة » البديع أبا عذرتها ، والواضع لأصولها وخطتها ويتابعهم فى ذلك كثيرون منهم مارون عبود مثلا ، إذ يقول(١) إن خطة المقامات من عمل البديع ، فهو الذى ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف عام ، وعبثاً تحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع .

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول(٢) : فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى .

---

(١) ٢٤ « بديع الزمان » لمارون عبود .

(٢) ص١٦ « مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته » - مازن مبارك .

هذا هو الرأى السائد فى نشأة المقامة ، ولكن الحصرى صاحب كتاب « زهر الآداب » يذهب فى كتابه(١) إلى أن البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك(٢) أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامة ، وإن كان له فضل فى نشأتها ، وينفى مؤلف كتاب « بديع الزمان رائد القصة القصيرة » وهو الدكتور د مصطفى الشكعة (٣) أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع .

ويجعل آخرون البديع محتذياً حذو أستاذه ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فى رسائله الحوارية .

ويذكر آخرون ، ومن بينهم الدكتور شوقى ضيف(٤) أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن أهل الكدية ، ومع جواز ذلك فى المضمون ، فإن شكل المقامة الفنى يبقى جديداً كل الجدة عند البديع : وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة فى أى عمل أدبى أو غير أدبى .

ويجعل بعض المستشرقين أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات ، ويذكر آخر أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر فى نشأة المقامة ، وهذا كله كلام يعوزه الدليل ، ولا تنهض به الحجة (٥) .

---

(١) ١ : ٢٢٥ « زهر الآداب » .

(٢) « النثر الفنى » لزكى مبارك .

(٣) ص ٢٠٧ « بديع الزمان » للشكعة .

(٤) ٢٠ « المقامة » للدكتور شوقى ضيف - طبع دار المعارف .

(٥) راجع ١٤٦ « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » للمؤلف .

ويذهب آخرون إلى أن المقامة مقتبسة من أصل : فارسى ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت فى الأدب الفارسى قبل بديع الزمان ، إذ لم تعرف المقامة فى الأدب الفارسى إلا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان فأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخى الذى بدأ بكتابتها عام ٥٥١ هـ وتوفى بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨ هـ/ ١١٦٤ م) كما يقول براون ، ويؤكد محمد تقى بهار[١] أن المقامة من اختراع البديع ، وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان له صداه فى الأدب الفارسى ، وأن حميد الدين قلد البديع والحريرى فى مقاماته ويذكر الأنورى إعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين .

إن هذه القصة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفنى الملتزم ، والصياغة الطريفة ، والصنعة الجديدة ، والفكرة الساسانية ، التى دعيت مقامة ، قد أنشأها بديع الزمان الهمذانى، لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة فى عصره .

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانياً هو أبو الفتح الاسكندرى، وهو الذى مثل كل أدوارها ، ونهض بجميع فصولها وقام بكل أحداثها

وشخصية أبى الفتح ــ كما تبدو من خلال المقامات ــ شخصية رائعة حقاً ، فهو بطل الموقف كله فى المقامة ، وهو ــ كما يصوره الهمذانى ــ عالم وأديب وشاعر ، وهو ناقد بليغ ، ومغامر محتال ماهر ، مشرد فى الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد أمامه إلا الكدية والاحتيال بكل أسلوب من أجل المال أو الطعام .وهو إلى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها

---

(١) « تاريخ تطور النثر الفارسى » ــ محمد تقى بهار .

عركها وعركته يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية ، ويهز الناس بفصاحته وبلاغتـــه .

وكنية أبى الفتح لعل البديع رمز بها إلى فتوحات هذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية .

أما وصف الاسكندرى الذى لازمه فقد يكون معززاً لذلك المعنى على أنه نسبة إلى الاسكندر ، فتكون فتوحات أبى الفتح فى أموال الناس شبيهة بفتوحات الاسكندر .

وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر فى مقاماته قوله «اسكندرية دارى»(١) نسبة إلى الاسكندرية لا إلى الاسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ -٣٢٣ق م). ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين ، فتكون نسبته إلى الاسكندرية مقصوداً بها إلى الرمز إلى شبهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الاسكندر التى تنسب إلى مدينته .

ويقودنا ذلك إلى التساؤل : أية اسكندرية كان يعنى البديع ، وكان ينتسب إليها أبو الفتح الساسانى ؟

فى المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثاً عن نفسه : إنى امرؤ من أهل الاسكندرية من الثغور الأموية ، وفى المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول : من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية ويكرر أبو الفتح نسبته إلى الاسكندرية فى مواضع كثيرة أخرى .

فإذا رجعنا إلى ياقوت(٢) وجدناه يذكر أن الاسكندر بنى ثلاث عشرة

---

(١) راجع مثلا فى المقامة الأربعين ـ العلمية ـ قول البديع :

اسكنـــدرية دارى   لو قـــر فيها قرارى

(٢) ١/٢٢٥ معجم البلدان .

مدينة سماها كلها باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعده ، فمنها : اسكندرية مصر ، والاسكندرية التي صار اسمها سمرقند ، والتي صارت مرو ، والتي سمت بعد باسم بلخ ، واسكندرية الأندلس التي على النهر الأعظم - نهر اشبيلية - وهي التي رجحها الإمام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس في القرن الرابع الهجري عصر البديع . إلا أني وجدت رحالة عربياً في القرن الرابع - هو أبودلف - يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند ، ويقول عنها : إن الخليفة الأموي مقيم بها(١)، فهل كانت هذه المدينة قديماً تسمى الاسكندرية أيضاً ، ليصبح أمامنا احتمال جديد آخر ، ويذكر باحث عراقي أن الاسكندرية بين بغداد والحلة(٢)، ولكن حاصلتها إذن بالثغور الأموية ؟ .

ويذهب د. عبد الوهاب عزام إلى أن صحة الكلمة « الآموية » نسبة إلى نهر آموي(٣) - جيحون - وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة هي مدينة الاسكندر على نهر آموي .

ومع ذلك كله فلا نزال نسير في بيداء سحيقة .

فمن هو أبو الفتح الاسكندري إذاً ؟

١ - هناك رأي سائد أنه شخصية أسطورية خيالية محضة ، كشخصية راوي المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريري في مقدمة مقاماته :

---

(١) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٣٠٩/٥ معجم البلدان .

(٢) يعد رسالة دكتوراه عن مقامات الحريري ، وهو طارق العوسج ، وهو مدرس بمكة المكرمة حالياً .

(٣) ٢٣٤ بديع الزمان للشكعة نقلا عن محاضرات د. عزام في كلية الآداب عام ١٩٤٤ م .

كلاهما مجهول لايعرف ، ونكرة لاتتعرف ، وهذا ما رجحته منذ عشرين عاماً فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١) ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسى إيوار ، فيقول : وضع البديع شخصاً خيالياً ابتكره وسماه أبا الفتح ، وذهب بعض الباحثين إلى أن عيسى بن هشام راوية المقامات كان شيخاً للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩هـ) مؤلف تاريخ همذان ، وينقل ذلك عنه ياقوت فى معجم الأدباء ولعل ذلك وهم ناشىء من قول البديع فى مطلع كل مقامة من مقاماته : حدثنا عيسى بن هشام ، ولو ذهبنا إلى أن أبا الفتح هو الذى كان أستاذاً للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث، وأكبر انطباقا على الموضوع .

وممن ذهب إلى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب « بديع الزمان » الدكتور الشكعة الذى يقول: حاولنا أن نجد لبطلى المقامات صدى تاريخياً فلم نعثر لهما على أثر والغالب أنهما من ابتكار خيال البديع نفسه(٢) .

٢ — وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ويذهب إلى ذلك بعض المستشرقين ، إلا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين ، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية .

وأنا معهم فى ذلك . ولكنى أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبى الفتح بطل المقامات البديعية

يذهب باحث عراقى(٣) سبق الاشارة إليه إلى أن أبا الفتح هو البديع نفسه ،

---

(١) ص ١٤٧ الكتاب المذكور طبع القاهرة ١٩٥٧

(٢) بديع الزمان ص ٢٣٢ .

(٣) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريرى .

ومن قبل قلت ذلك فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١) حيث ذكرت أنه قد يكون فى حياة أبى الفتح شىء من صفات البديع نفسه ، وشىء من أخلاقه . ولكنى أخالف ذلك اليوم ، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل .

ويذهب باحث آخر(٢) إلى أن الكدية أو الساسانية التى كانت صناعة أبى الفتح « نجد من أعلامها فى عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة : كابن الحجاج (ت ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (ت ٣٨٥) وأبى الورد ، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبى حيان التوحيدى ، بل البديع نفسه ، ومن يشبهه كل الشبه كأبى دلف والأحنف العكبرى » . . ويجمل هذا الرأى أن أشباه أبى الفتح الاسكندرى كثيرون فى عصر البديع ، وأن أقربهم شبهاً به هو أبو دلف والأحنف . وهذا الرأى لا يأتى لنا بجديد ولا بأمر مؤكد فى البحث على أية حال ، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين له .

٣ — ورأيى الذى أذهب إليه اليوم هو أن أبا الفتح إنما هو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البديع ، وهو أبو دلف الخزرجى وحده .

وهذا الرأى لا يسبقنى فيه باحث ، وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب فى القرن الرابع . ودليلنا عليه هو ما قاله الثعالبى فى « يتيمة الدهر »(٣) قال :

أنشدنى بديع الزمان لأبى دلف ، ونسبه فى بعض المقامات إلى أبى الفتح الاسكندرى .

---

(١) ١٥٧ و١٥٨ الكتاب المذكور .

(٢) ص ٢٣٤ « الأدب فى ظل بنى بويه » للزهيرى — طبع مصر ١٩٤٩ .

(٣) ٣ : ٢٥٤ اليتيمة .

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور(١)
لا تلتزم حالة ولكن در بالليالى كما تدور

ومن هذا النص نعرف الحقائق الآتية :

١ — أنشد البديع الثعالبى شعراً لأبى دلف .

٢ — وهذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته إلى أبى الفتح ، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتح هو أبو دلف نفسه بإقرار البديع .

٣ — كان البديع راوية لشعر أبى دلف ، ويبدو لى أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم .

وإذن يكون أمامنا رأى جديد نجزم به ، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف أستاذه وصديقه ومعاصره بطلا للمقامات ، وكنى عنه بأبى الفتح، وكان أبو دلف أروع نموذج ساسانى يصلح بطلا للمقامات لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صوره البديع فى شخص أبى الفتح الاسكندرى ، ولأن شهرة وتجارب أبى دلف كانت تصلح معيناً يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قد كان .

بل إنى أضيف إلى أن ذلك أن البديع الهمذانى حين سمع قصص أبى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد واستمع إلى فكاهات هذا الشيخ وسمره فى مجالس الملوك والوزراء رأى أن هذه الصورة الفنية تصلح أساساً لفن جديداً ابتكره وسماه « المقامة » ، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب الذكى بابتكار فن المقاومة فى الأدب ، العربى ، فى القرن الرابع ، وفى عصر أبى دلف .

---

(١) هذا الشعر فى المقامة القريضية إحدى مقامات البديع .

— ٤ —

وقد أطلعت بعد نشر هذا الرأى والانتهاء منه بزمن على دليل آخر يؤيدنى فى هذه القضية ، فى كتاب « النماذج الانسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة يقول مؤلفه د . محمد غنيمى هلال ما نصه :

على أن ثمة شخصية تاريخية واقعية استمل منها الهمذانى نموذجه الأدبى وهو الشاعر أبو دلف ، وكان معاصراً لبديع الزمان ، وكان بديع الزمان يعجب به ويستدعيه إلى مجلسه ، ويحسن إليه ويحفظ من شعره ، والجانب الواقعى من أبى دلف قد أمد - دون ريب - بديع الزمان بالمادة الغفل لمقاماته ماثلة فى شخصية الشاعر المذكور وأدبه ، وقد ترك هذا الجانب الواقعى كذلك أثراً فى تصوير باطن نفسى لنموذج أبى الفتح .

ومع مافى هذه الجملة القصيرة من ذهاب إلى ما قلناه ، من أن شخصية أبى دلف هى شخصية أبى الفتح الاسكندرى بطل مقامات البديع ، فإن فيها على قصرها أخطاء كثيرة هى :

أولا : قـــوله : وكان — أى أبو دلف — معـاصراً لبديع الزمان .

فإن الأولى أن يقال : وكان البديع معاصراً لأبى دلف لأن أبا دلف كان قد بلغ الستين على حين كان البديع ابن عامين ، وكان أبو دلف نديم الملوك ومسامرهم ومحدثهم ، والذى تفتح له أبوابهم دون حجاب .

ثانياً : قوله : وكان — أى بديع الزمان يستدعيه — أى أبا دلف — إلى مجلسه أليس الأولى العـكس ، أيستقيم أن يذهب شيخ عظيم كبير السن إلى شاب صغير .

ثالثاً : قوله : وكان أى البديع — يحسن إليه ، أى إلى أبى دلف . أبو دلف العظيم محدث الملوك وطرفة الدنيا ، أكان فى حاجة إلى إحسان شاب صغير فقيراً . . كلا فقد كان أبو دلف فى ثراء مما ناله من عطاء الملوك ورفدهم عندما كان البديع لايزال شاباً مجداً طالبا للشهرة وللمال معاً .

متنبي المغرب

— ١ —

ابن هانىء الأندلسي متنبي المغرب، هكذا قال عنه النقاد، وجعلوه بجوار المتنبي قرينا له ونظيراً، وجعلوا موهبته الشعرية تضارع موهبة المتنبي وشاعريته.

ولقد عاش ابن هانىء في ظلال دولتين: دولة بني أمية في الأندلس، ودولة الفاطميين في المغرب.

أما دولة بني أمية فقد قضى في ظلالها أكثر من ربع قرن من حياته الأولى، ففي الوطن الأندلسي ولد ونشأ، وهذب وتعلم، واتصل بالحياة العامة كارها لها، مبغضاً للإقامة فيها، ناقماً عليها، موليا وجهه شطر المغرب الأقصى، داعياً لحق الفاطميين في ميراث جدهم الرسول الكريم، وائتمر الملأ به ليقتلوه، فخرج من الأندلس خائفاً يترقب، حتى وصل إلى عدوة المغرب الأقصى، فعاوده الأمل، وأضاء الرجاء له سبيل العيش في الحياة، وسعى - على وئام بينه وبين بيئته والمجتمع الذي يعيش فيه - إلى ماكان يتطلع إليه من آمال كبار، في ظلال الدولة التي طالما كان قلبه يهفو إليها، ويشيد بنفوذها.

— ٢ —

ولد أبو القاسم محمد بن هاني بن محمد الأزدي في قرية من قرى إشبيلية تدعى «سكون» عام ٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م، من أسرة ذات حسب ومجد، وأدب وعلم، يتصل نسبها بسلالة المهلب بن أبي صفرة الأزدي القائد الإسلامي المشهور في دولة بني أمية، وسواء أكان من سلالة يزيد بن حاتم

ابن قبيصة بن المهلب الذى وطد للمنصور ثانى خلفاء بنى العباس دعائم ملكه فى شمال إفريقية إلى أن توفى عام ١١٠ هـ ، أو من أحفاد أخيه روح بن حاتم الذى ولى فلسطين ثم شمال إفريقية بعد موت أخيه يزيد ، سواء أكان هذا أو ذاك ، فإن ابن هانىء على أى حال ينحدر من سلالة أزدية قحطانية يمنية ، لها ماضيها الحافل ، وتاريخها المجيد ، ولها أثرها فى نفس الشاعر وفى أدبه ، فقد ملأ ذلك نفسه شعوراً بهذا الماضى ، وفخراً به ، وعزماً على مواصلة الجهاد لتجديد ذلك العهد الذى أعيا على الأيام أن يتبدد ، وكان يقرنه الشاعر بمجده الذى شاده بكفاحه فى الحياة :

ذرنى أجدد ذلك العهد الذى أعيا على الأيام أن يتقشبا

ولم يقبل الشاعر أن يعيش كلا على هذا الماضى فى مستقبل حياته ، أو يحيا عالة عليه ، بل سعى وناضل فى الحياة :

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا
وبالهمة العلياء يرقى إلى العلا فمن كان أرقى همة كان أظهرا
ولم يتأخر من يريد تقدماً ولم يتقدم من يريد تأخراً

وكان أبو الشاعر هانىء من قرية من قرى المهدية ، عاصمة ملك الفاطميين الأولى ، وكان شاعراً أديباً ، كما يقول الذهبى(١) وابن خلكان(٢) ، ثم هاجر من قريته بالمغرب إلى الأندلس ، وعاش فى إشبيلية ، وانتقل منها بعد إلى إلبيرة .. وفى إشبيلية ولد ابنه محمد بن هانىء ، فنشأ وترعرع فى بيئتها الحافلة بألوان الحضارة والعلم والأدب ، وبأسباب المجد السياسى الذى

---

(١) ٨١ تاريخ الإسلام .
(٢) ٢/٥ وفيات الأعيان .

كسبه الأمويون فى الأندلس . وخاصة فى عهد ملكهم الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ)

— ٣ —

اختلف ابن هانىء إلى مجامع العلم والأدب فى إشبيلية ، يثقف نفسه ، ويهذب عقله ويكون ملكاته تكوينا يصل بينه وبين الحياة بأسباب الطموح والأمل .

ثم رحل إلى قرطبة العاصمة الأولى لملك بنى أمية والتى كانت تزخر بالجامعات والعلماء ، وبأسباب الحضارة وألوان الثقافة ، فعكف على تزويد نفسه فيها بأكبر قسط من الثقافة والمعرفة ، والظاهر أن رحيله إليها فى بدء حياته كان لهذا الغرض وحده دون سواه .

كانت الثقافة الأندلسية فى هذا العهد وفى ظلال الناصر تنال من عناية الدولة والشعب ، ورعاية الحكومة والملك ، كل ما كان يطمح إليه محب للعلم والمعرفة ، وكان الناصر وولى عهده الحكم يبذلان جهودا كبيرة لنشر العلم ، وتشجيع العلماء ، فأقيمت الجامعات ، وفتحت دور الكتب التى جمعت بمجموعاتها من شتى بلاد الشرق ، وساعدت الدولة العلماء فى رحلاتهم العلمية إلى بغداد وسواها من عواصم الثقافة الإسلامية فى الشرق الاسلامى ، واستقبل الناصر كثيرا من الوافدين عليه من العلماء والأدباء ، كالقالى وسواه(١) ، فشعت فى آفاق مدن الأندلس أضواء العلم والثقافة ، وامتلأت

(١) ولد القالى عام ٢٨٨ هـ ، وحصل ثقافته اللغوية والأدبية فى بغداد ، ثم هاجر إلى الأندلس عام ٣٢٨ هـ ، فاستقبله ولى العهد ورحب به ، وتلقى عليه كثيرا من المحاضرات ، ودعاه إلى إلقاء محاضراته فى مسجد قرطبة ، والتى دونها فى كتابه « الأمالى » وظل كذلك حتى توفى بها عام ٣٥٦ هـ .

عواصمها بأسباب الحضارة والمدنية والعمران ، وأخذت مشاعل النور ترسل أشعتها ، فتضيء ظلمات الحياة فى الغرب ، وتزيد اشتعال النور وتألق الضوء فى الشرق ، وتملأ الحياة قوة ونشاطاً ومدنية وترفاً .

وكانت السمة الغالبة على الثقافة الأندلسية حينذاك هى الدراسات الدينية واللغوية والأدبية الواسعة ، أما الدراسات العقلية فقد تجهموا لها وناوأوها ، وصرفتهم بيئتهم المتزمتة بألوان الجمال عنها ، فرأوها عبثاً لاخير فيه وحاولوا البعد بين أنصارها وبين التفكير الحر ، ولكن الحرية الفكرية التى غرس بذورها الناصر وابنه الحكم لم تحل بين آثار التفكير العقلى وانتقال عدواه من الشرق إلى الأندلس ، على يد الراحلين عنها والوافدين إليها من العلماء والمفكرين ، الذين أحصاهم صاعد الأندلسى فى كتابه « طبقات الأمم » .

ومن ذلك نستطيع أن نحدد ألوان الثقافات التى تلقاها ابن هانىء فى دراسته وتفرغ لتحصيلها ، فهى ثقافة دينية واسعة ألم بها الشاب الناشىء حين درس القرآن وعلومه ، وأجاده حفظاً ، مما نفعه فى مستقبله الأدبى ، وصبغ أسلوبه بصبغة القرآن القوية المطبوعة ، حتى كان ابن هانىء فيما بعد المجيد فى الاقتباس من الذكر الحكيم وآياته فنجد له قوله :

ألا أيها الوادى المقدس بالطوى   وأهل الندى إنى إليك مشوق

ونجده يقول :

كانت جناناً أرضهم معروشة   فأصابها من جيشه إعصار

ويقول لأمير « الزاب » :

لعمرى لقد أبدت يوم الوغى به   كما أبدت كفاك بالأنمل العشر
كذلك ناجى الله موسى نبيه   فنادى أن اشرح ما يضيق به صدرى

وهب لى وزيراً من أخى أستعن به
وأشـــد به أزرى وأشركه فى أمرى

إلى غير ذلك مما يلاحظ القارىء فيه روح التأثر بأساليب الذكر الحكيم وبجانب هذه الثقافة الدينية ثقافة لغوية واسعة ، تراها فى كل قصيدة من قصائد الشاعر واضحة ملموسة ، ولعل ابن هانىء كان ممن جلسوا إلى القالى وسمعوا محاضراته اللغوية فى مسجد قرطبة ، كما جلس إلى سواه من علماء اللغة وأساتذتها . . ومما نمى فيه الثقافة اللغوية أيضاً إدمان قراءته للشعر الجاهلى فى عهد دراسته الأدبية ، واحتذاؤه حذوه فى نظم القريض وصياغته ، فوق مخالطته للقبائل العربية التى كانت نازلة فى مدن الأندلس ، ومحتفظة بروحها العربية الأولى ، ولا يكاد يضارع ابن هانىء فى هذا المحصول اللغوى الواسع شاعر سواه غير أبى الطيب المتنبى الشاعر الحكيم . وبجانب ذلك كله كانت الثقافة الأدبية الواسعة مكملة لجوانب هذه الثقافات فى شخصية شاعرنا ابن هانى ، فقد ورث عن والده حب الأدب والميل إليه ، والشغف بالشعر والظهور فى ميدانه وفى شتى أغراضه ونواحيه ، وأعان ذلك دراسته وحفظه لأشعار العرب وأخبارهم وأيامهم وأدبهم وشعرهم ، واتصاله بالبيئات الأدبية فى الأندلس . وساعد على ظهور ملكة الشعر فى نفسه روحه الأدبى الموهوب ، وفطرته الشعرية الموروثة ، وعناية والده الأديب الشاعر به ، وتوجيهه إياه إلى كل ما يفيده فى مستقبله الأدبى . وإلى كل ما ينمى ملكاته ، ويفجر فى قلبه ينابيع الشاعرية والإلهام .. هذا كله فضلا عن حياة الشاعر فى بيئة الأندلس الأدبية الحافلة بالأدباء والشعراء ، والتى لقى الأدب والشعر فيها رعاية وتشجيعا أمدهما بأسباب الحياة والقوة والنضج ، وكما قرأ ابن هانىء الشعر الجاهلى وتأثر به فقد اطلع على شعر كثير من المحدثين ، وعلى شعر المتنبى ، الذى عاصره وتأثر به ، وقرأ ديوانه ، كما ترشدنا إلى ذلك

قصيدته الحادية والعشرون من ديوانه الذى نشرته مكتبة المعارف بتعليق الدكتور زاهد على .

وفى قصيدة ابن هانىء الفائية التى مطلعها :

أليلتنا إذ أرسلت واردا وحفا   وبتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفا

وهى القصيدة الحادية والثلاثون فى ديوانه ، وصف دقيق للنجوم وهيآتها وحركاتها فى إشراقها وغروبها ، وقد يدل ذلك على إلمام ابن هانىء ببعض فنون من الفلسفة ، ويروى لنا التاريخ الأدبى أن ابن هانىء كان متهما فى الأندلس بمذاهب الفلاسفة(١) ، وأنه تعرض بسبب ذلك للقتل ، مما دعاه إلى الهجرة إلى المغرب ، ونحن نستبعد إلمام ابن هانىء ببعض فروع الفلسفة لأن تراثه الشعرى بعيد كل البعد عن روح الفلسفة ومذاهبها فى التفكير ، وقد يكون الشاعر قرأ أو درس شيئا من ذلك إلا أنه على أى حال لم يفرغ لهذا اللون من الثقافة ، ولم يشرب قلبه حب مذاهب الفلاسفة ، وهجرته سنبين أسبابها الصحيحة فيما يلى من هذه الدراسة .

وإذا فثقافة ابن هانىء تستمد عناصرها من القرآن واللغة والأدب والشعر ، ومن أثر الوراثة الذى كان له مظاهر فى نفس الشاعر وعقله ، ومن أثر البيئة التى كان يعيش فيها ، ثم من تجارب الحياة الطويلة والكفاح المستمر ، والرحلة الدائمة ، التى تركت آثارها الكبيرة فى عقلية الشاعر وتفكيره وفى أدبه وشعره .

وأخذ ابن هانىء الشاب يسير فى غمار الحياة ، ويخطو خطوات وئيدة فى ميدان الطموح والمجد ، وكان قد نضجت روح الشاعرية فى نفسه ، فنظم

---

(١) الذهبى ٨١ .

الشعر يصور فيه عواطف الشباب وآماله وآلامه فى الحياة .

ثم دفعته همته وماضى أسرته الحافل إلى السعى فى طلب الشهرة والمجد ، ورأى الحياة العامة فى الأندلس تسمح له أن يطمح إلى أعلى مناصب الدولة . بعد ماحصل من ثقافة جعلته شاعراً لايقل عن غيره من الشعراء الممتازين فى بيئته .

فبدأ يتصل برجالات الدولة ، وخاصة أمير إشبيلية ، بعد أن عاد إليها من رحلته الثقافية فى قرطبة ، وأعزه الأمير واصطفاه ، ودفع منزلته لديه وأكرم مثواه ، واتخذه شاعره ونديمه ، ولعل الشاعر قد اضطر إلى هذا الاتصال الأدبى اضطراراً ، لفقر جامح ألم به ، أو لموت والده صغيرا وذهاب ماكان يعينه على شئون الحياة من مال .

وقدر ابن هانئ يد الأمير عليه ، فشكره ونوه به ونظم قصائده فى الثناء عليه والإعجاب به ، وإن كان ديوانه خلواً من ذلك ، وليس فيه بيت أو قصيدة فى أمير إشبيلية ، بل ولا فى تصوير حياته فى الأندلس ، ولعل شعره الذى نظمه فيها ضاع فى أثناء هجرته ، أو أنه لم يعن الرواة الذين رووا شعره بجمعه ، مع ماجمعوه من شعره الذى نظمه وهو مقيم فى دولة الفاطميين ، فلم يلتفتوا إلا إلى شعره الذى أيد به هذه الدولة ورجالاتها .

واستمرت المودة بين الشاعر والأمير حينا من الزمان ، ولكن ابن هانئ كان برماً بالحياة فى الأندلس ، مبغضاً الدولة الأمويين من ملوكها ، منكرا لحقهم فى الخلافة الإسلامية .

ولا شك عندى فى أن ابن هانئ ورث هذا الروح عن والده فيما ورثه عنه من ميراث ، فقد كان ابن هانئ من قرية من قرى « المهدية » موطن الدعوة للخلافة الفاطمية وعاصمة دولتها الناشئة ، ثم رحل عنها إلى الأندلس

لظروف قاهرة لم يروها لنا التاريخ ، فلا بدع إذاً أن يكون هانئ والد الشاعر يعمل على مناصرة الفاطميين ويستمع وهو في الأندلس لأحاديث نشأتهم في المغرب ، ويتلقف أنباء انتصاراتهم ، في ظل الراية البيضاء المرفوعة على المهدية وما يتبعها من بلاد ، والتي تشير إلى معنى الخصومة السياسة للعلم الأسود المرفوع في بغداد . وللراية الخضراء التي تظلل بني أمية في قرطبة والأندلس .

ولم يلبث أن علم أمير إشبيلية أشياء عن ابن هانئ فأشار عليه أن يغيب عن المدينة مدة ، حتى ينسى في خلالها أمره ، وتسكن فيها ثورة الناس عليه فامتثل الأمر ، وخرج من المدينة خائفاً يترقب .

ترى أين تكون وجهة هذا الشاعر البائس وإلى أي بلد يسير ؟ .

فكر الشاعر فلم يجد أمامه إلا غاية واحدة يجب أن يسير إليها ، وإلا ناحية واحدة لا مناص له من أن يقصدها ، ورأى نفسه تحدثه : هيا إلى بلاد المغرب ، وإلى المهدية من بلاد المغرب خاصة فهي بلاد الآباء والأجداد التي تتلاقى فيها ذكريات الماضي الطويل .

وصمم الشاعر على الهجرة ولم يجد سبيلا إلى الحياة الآمنة سواها ، فهاجر إلى عدوة المغرب ، وهو في سن السابعة والعشرين أو السادسة والعشرين على ما يقولون .

* * *

هاجر إذاً إلى المغرب عام ٣٤٧ هـ ، أو عام ٣٤٦ ، وبذلك انتهت حياته الأولى التي قضاها في الأندلس ، وانتهى به المطاف إلى دولة الفاطميين .

ولم يكن الشاعر يحمل على كتفيه في هجرته مالا ولا نشبا ، ولكنه

كان يحمل فى صدره عاطفة ملتهبة وكان يحمل معه فنه وشاعريته ، ويسعى بهما قدما إلى أبعد غايات الطموح ومجد الحياة .

ويصور لنا ابن هانىء هذه الهجرة وذكرياتها وأسبابها وما لقى خلالها من اضطهاد كاد يودى بحياته ، فى قصيدة من قصائده ، قال فيها متحدثاً عن نفسه :

ومستكبر لم يشعر الذل نفسه   أبى بأبكار المهاول فاتك
ولو علقته من أمية أحبل   لجب سنام من بنى الشعر تامك
ولما التقت أسيافها ورماحها   شراعا وقد سدت على المسالك
أجزت عليها عابراً وتركتها   كأن المنايا تحت جنبى أرائك

والشاعر فى هذه القصيدة قوى العاطفة ، متأجج الشعور ، ولكن روحه الشعرية لم تخلص بعد من سمات التكلف الفنى ولم يخلص لها بعد الفن المطبوع ، ويندفع ابن هانىء فى تيار عواطفه ، فيحمل على بنى أمية الأندلسيين حملة ثائرة ساخطة ، ويرميهم بالبخل والجبن وشتى الرذائل ، يقول فيما يقول:

ولم تدم فى حرم دروع أمية   ولكنهم فيها الإماء العوارك
إذا حضروا المداح أخجل مادح   وأظلم ديجور من الكفر حالك
إلى آخر ما يقول .

— ٤ —

استقر الشاعر أخيراً فى المغرب ، أو على الأرجح فى المهدية وطن والده الأول ، من بين بلاد المغرب كافة ، وأخذ ينتهز الفرص السانحة ليذيع شعره ، ويظهر شاعريته ، فساعدته الظروف على ما يريد .

كان ذلك على ما أرجح عام ٣٤٧هـ بعد انتصار جوهر على خصوم الدولة الفاطمية فى سجلماسة وفاس ومكناسة وسواها من بلاد المغرب ، وبعد أن قضى على الثائرين ووطد دعائم ملك الفاطميين فى أطراف هذه البلاد ، ورجع من هذه الأعمال الحربية ظافراً منصوراً .

ونظم ابن هانىء قصيدة ذكر فيها هذا الفتح وأثره ، وجوهراً وبطولته وحزمه ، ومجده الحربى ، وولاءه للخليفة المعز ، واصطفاء الخليفة له ، ويقول فيها :

وأبيض من سر الخلافة واضح تجلى فكان الشمس فى رونق الضحى
أريك به نهج الخلافة مهيعا يبين ، وأعلام الخلافة وضحا

إلى آخر ما يقول ، من قضائه على ثورات الثائرين ، وفتن الخارجين على المعز . وذهب الشاعر إلى القائد فأنشده قصيدته وسط جيشه ومعسكره فسر بها القائد ، ثم أمر للشاعر بهدية .

وفى ديوان الشاعر ظل للصلة المستمرة بين الشاعر والقائد ، فقصيدته فى وداع جوهر وهو سائر لفتح مصر عام ٣٥٨ هـ ، وقصيدته فى فتح مصر وتهنئة المعز بهذ الفتح والثناء على جوهر قائده الفاتح المظفر ، فيهما أثر لبقاء هذه الصلات .

وفى الديوان أيضاً قصيدة نظمها ابن هانىء عام ٣٤٨ هـ مدح بها المعز ووصف هدية جوهر إليه ، بعد تسخيره بلاد المغرب جميعاً ، وتوطيد الملك الفاطمى فيها ، ومطلعها :

ألا هكذا فليهد من قاد عسكرا وأورد عن رأى الإمام وأصدرا

وهذه القصيدة أرجح أن الشاعر نظمها أثناء اتصاله الأول بجوهر ، فقد يكون جوهر بعد هذا الفتح سعى بجيشه ، وفى حاشيته ابن هانىء ، لمقابلة المعز ، وقدم إليه هديته ، فنظم ابن هانىء هذه القصيدة فى مدح المعز وقائده ، ووصف هدية قائده إليه .

نستطيع من ذلك كله أن نقول إن الشاعر اتصل بجوهر فى أواخر عام ٣٤٧، وظل فى حاشيته عدة شهور، إلى مابعد مطلع عام ٣٤٨ هـ، ولكن صلات جوهر القليلة، دعته إلى أن يقصد بشعره أحد الأمراء ليعيش فى ظلاله، وفعلا سار الشاعر ميمما وجهه شطر أمير عرف بالبذل والسخاء، وبالاغداق على الأدباء والشعراء، فألقى رحاله فى فنائه، وعاش أثيرا لديه، مقربا عنده، وذلك هو أمير «الزاب» و «المسيلة» جعفر بن على.

وقد عهد الخليفة المنصور الفاطمى فى بدء توليه العرش عام ٣٣٤هـ إلى جعفر ابن على القائد الفاطمى بولاية الزاب والمسيلة، وأنزل معه أخاه يحى بن على يساعده فى ولايته، وعنى جعفر بأمور إقليمه، فبنى القصور والمتنزهات، وأقام له فيه سلطانا ومجدا، وقصده العلماء والشعراء، وظل فى ولاية هذا الإقليم حتى توفى الخليفة المنصور عام ٣٤١ هـ، فأقره المعز على ولايته لما جلس على العرش بعد وفاة أبيه.

وسمع ابن هانى بأمر الأمير وجوده وأريحيته، فهرع إليه عام ٣٤٨، يمدحه ويشيد بذكره بقصيدة أرجح أنها القصيدة الخمسون فى ديوان الشاعر، التى أفاض فيها فى الثناء عليه، والاعجاب به ووصف جهاده وبطولته، وآدابه النبيلة، ومما يقول فيها:

خلقت شهابا تضىء الخطوب　　واست شهابا يضىء الظلم
وإنك من معشر طفلهم　　يتوج قبـــل بلوغ الحلم
ولســـت أبالى بأى بدأت　　بفخرى بكم أو بمدحى لكم
فشملى لشملكم جامـــع　　وشعبى بشعبكـــم ملتئم

وابن هانىء فى هذا البيت يريد أن يؤكد الصلة التى تجمع قومه الأزديين

بقوم الأمير ، ثم يقول :

حمدت لقاءك حمد الربيع　　وشمت نوالك شيم الديم

ثم يذكر عسف الزمان به وتحالف الخطوب عليه ، ويصور عفافه وبعد همته ، الذين كانا من أسباب محنته كما يقول ، فيقول :

أذم إليك اعتوار الخطوب　　وصرف الحوادث فيما أذم
وما أعان عـــلى الزمان　　عفاف يدى وعـلو الهمم
لسانى من العرب الأكرمين　　وفى أول الدهر ضاع الكريم

وتلقى الأمير الشاعر بالتقدير والعطف ، ودعاه إلى الإقامة فى كنفه ورعايته ، فامتثل ابن هانىء فى نشوة من البشر والفرح ، وأقام فى ظلاله يمدحه ويشيد بذكره ، أو يمدح أخاه يحيى ، أو ابنه إبراهيم .

وفى ظلال جعفر وأسرته عادت الطمأنينة إلى نفس الشاعر ، فقد كفى شر الحاجة ، وأمن غائلة الأحداث ، وركن إلى ألوان من ترف الحياة ونعيمها وهدوئها وطمأنينتها ، وفرغ الشاعر لفنه وشعره ، بعد أن كان قلبه نهبا موزعا لا يفيق من آلام الحياة وخطوبها ، لقد كان قبل اتصاله بجعفر يزجى لآماله السحاب ، فلا ينجلى إلا عن سراب خادع ، وسحاب مبدد :

قد كنت قبل نداك أزجى عارضا　　فأشيم منه الزبرج المنجابا
لم تدننى أرض إليك وإنما　　جئت الســماء ففتحت أبوابا

ولم لا ؟ وقد أخذ جعفر بضبعه ، وأنقذه من صولة الخطوب :

صرفت عنان الشعـــر إلا إليـــكم
وفيـــكم فإنى مااستطعت له صـــرفا
أبا أحمد قـــد كان لى فى الأرض موئل
فلم أبـــغ لى ركنا سواك ولا كهفـــا

وما الشمس تكسو كل شيء شعاعها
بأسبغ عندى من نداك ولا أضفى
أخذت بضبعى والخطوب رواغم
فسمت زمانى كله خطة خسفا
أمنت بك الأيام وهى مخوفة
ولو بيديك الخلد أمنتنى الحتفا

وهكذا كانت مدائح ابن هانىء فى جعفر وأسرته ، وكانت كذلك مراثيه البليغة فى أمه وفى حفيده : أبن ابنه إبراهيم بن جعفر بن على ، والتى تبلغ كلها سبعة وعشرين قصيدة ، كانت جميعها تفيض عاطفة وقوة وروحا ، وتصدر عن إخلاص ووفاء وشعور بأيادى هذه الأسرة عليه ، وتقديره لحدبها به ومعونتها الصادقة له فى الحياة . ولعل فى هذه الأبيات التى نظمها من قصيدة طويلة فى جعفر ، ماينم عن روح ابن هانىء وعواطفه نحو هذه الأسرة الكريمة :

خليلى أين الزاب عنا وجعفر ... وجنة خلد بنت عنها وكوثر ؟
فقبلى نأى عن جنة الخلد آدم ... فما راقه فى ساحة الأرض منظر
خليلى ما الأيام إلا بجعفر ... وما الناس إلا جعفر ، دام جعفر

لقد كان ابن هانىء قبل اتصاله بجعفر بائسا محروما ، لايجد له نصيرا يخفف عنه عبء الحياة ، وكان كثير الشكوى من زمنه والأحداث التى كان يصبها عليه ، فبدل بالشقاء نعيما ، ومحى بر أسرة جعفر به ورعايتها له آلامه وبؤسه ، فابتدأ حياة جديدة فيها أمل ورجاء ، وطمأنينة وصفاء ، ونعمة ورخاء .

وكانت شاعريته فى هذه الفترة يقظة قوية مشبوبة ، يثيرها فى نفسه إلهام الشباب وحوافز الأمل ، والعزم على الظهور فى هذا المجتمع الجديد ، وكثرة

أيادي جعفر عليه . لقد كان في نضرة الشباب ، ومتعة الحياة ، وبهجة الأمل ، وكان يرى أن جعفر ليس بغريب عنه ، ولا بقصي منه . فهو من عنصره ونجاره وأصله القديم ، ثم كان مع ذلك يعيش وسط خصومات أدبية أبطالها شعراء المغرب وأدباؤه الذين أخمل ذكرهم ابن هانىء ونظمه الجيد الممتاز ، كانت كل هذه البواعث حافزاً له على تجويد فنه ، وصقل شعره ، والابداع في ما يسحر به من قريض ، فكان يخرج قصائده إخراجا فنيا خلابا ، فتخرج وهي مستوية الأطراف ، جميلة السبك ، جزلة اللفظ في عذوبة ، يشيع فيها أثر التأنق والتهذيب . على أن الشاعر لم يكن مدفوعا إلى ذلك كله ببواعث مادية صرفة ، بل كان يصدر عن عقيدة قوية غلابة ، كان إذ جعفر من أشد الذائدين عن الفاطمية وسلطانها السياسي ، وهي التي أخلص لها الشاعر منتهى ما في وسعه من إخلاص ، فمدحه وكأنه كان يمدح القركزة التي آمن بها ، وكافح من أجلها طول الحياة .

ومهما كانت الأسباب فإن شعر الشاعر في هذه الفترة القصيرة الحافلة كان بعيداً عن سمات التكلف ، مصبوغا بصبغة الشاعرية المطبوعة ، وبدأت تظهر فيه شخصية الشاعر الفنية بوضوح وجلاء ، وتظهر فيه كذلك صورة حياته التي خضعت لألوان الحياة الجديدة المترفة في ظل جعفر وأسرته .

وعاش ابن هانىء في الزاب نحو عامين ، لم يكن همه فيها إلا حضور مجلس الأمير والاتصال برجال الدولة ، والمتعة بنعيم الحياة وجمالها ، وتصوير جوانب هذه الحياة كلها في شعره ومدائحه التي كان ينشدها الأمير وقومه .

ولم يكن ابن هانىء يشعر بأنه غريب في هذه البيئة ، ولا كانت أيادي جعفر عليه توقفه مواقف الهوان أو الذلة ، ولا كانت قصائده فيه وسيلة للسؤال والاستجداء فحسب بل كان يرى في صلات النسب بينه وبين جعفر حافزا له على التنويه به ، والاشادة بمآثره ، ويرى فيها مايعزز مكانته لديه ، ويرفع مقامه عنده ، أليست أسرة جعفر يمانية قحطانية يعربية ، وأليست هي من بكر أحلاف قومه الأولين ؟

إنا لتجمعنا وهذا الحى من   بـكر أذمة سالف لم تخفر
أحلافنا فـكأننا من نسبة   ولداتنا فـكأننا من عصر

وكانت هذه الصلة البعيدة بين الشاعر والأمير تمد ابن هانىء بروح ملؤها الشعور بالـكرامة والعزة فى ظل جعفر ، وتؤيده بأسباب الحياة والقوة فى تلك البيئة وبين خصومه والحاقدين عليه من الأدباء والشعراء ، كالزهرانى كاتب الأمير الذى أخمله ابن هانىء ، وصور الخصومات الأدبية التى نشأت بينه وبينه فى قصيدته التاسعة والعشرين التى هجا فيها الزهرانى شر هجاء .

وأصبحت هذه الخصومات وسواها لا تضير الشاعر بشىء ، مادام قوم الأمير هم بنو عمه ، وأعيان معشره ، وأملاك قومه ، والخضارم من نجره ، كما يقول .

فإذا ما أردنا أن نضع هذا الانتاج الفنى للشاعر فى هذه الحقبة موضعه من تراث الشاعر الأدبى ، فإن حـكمنا عليه أنه من روائع الآثار الأدبية فى حياة ابن هانىء الفنية .

وعلى أى حال فقد سارت قصائد ابن هانىء فى جعفر وأسرته ، وتحدث بها الناس ورواها الأدباء والرواة وأنشدت فى مجلس المعز وهو فى القيروان ، فأرسل إلى جعفر يطلب منه ابن هانىء ، وامتثل الأمير الأمر ، وأعد للخليفة هدية نفيسة أرسلها إليه ، وكان فيها ابن هانىء الشاعر . بل كان هو أغلى ما فيها من نفائس

وفى عام ٣٥٠ هـ وصل الشاعر إلى القيروان عاصمة الخلافة الفاطمية ، فسعى إلى الخليفة ومثل بين يديه ، وأنشده شعره ومدائحه فى الخلافة ، وجلال الدولة وعظمة أيامها ، وتصوير عزها الشامخ . ومجدها المـكين .

والتاريخ الأدبى والسياسى لا يرشدنا بالتحديد إلى العام الذى اتصل فيه

الشاعر بالمعز ، ولكن دراسة تراث ابن هانىء الشعرى ومدائحه المعز ، تهدينا إلى هذه الحقيقة المجهولة فى ثنايا تاريخ ابن هانىء الأدبى المجهول .

وكذلك لاترشدنا المصادر الأدبية على القطع واليقين إلى أول قصيدة أنشدها ابن هانىء فى مجلس المعز الفاطمى لأول عهده بالمثول بين يديه .

على أن لابن هانىء فى المعز إحدى وعشرين قصيدة من أطول القصائد الفنية وأبلغها وتبلغ نحو نصف تراثه الأدبى ، وقراءة هذه القصائد قراءة واسعة ، وتفهمها تفهماً تاريخياً ، وتذوقها تذوقاً أدبياً يهدينا إلى كل ما نريد .

ومن بين قصائد الشاعر فى الخليفة أربع قصائد تستوقف نظر الباحث المتمهل ، وتعطيه الدليل الملموس على رأيه فى هذه المشكلات الأدبية .

فأولى هذه القصائد نظمها الشاعر عام ٣٤٨ ﻫ فى وصف هدية جوهر للمعز ، ومطلعها .

ألا هكذا فليهد من قاد عسكرا   وأورد عن رأى الإمام وأصدرا

وفيها يشيد بالخليفة وبجوهر ويصف هدية جوهر إليه ، وهذه القصيدة قد تدفعنا إلى القول بأن اتصال ابن هانىء بالمعز كان عام ٣٤٨، لاعام ٣٥٠ﻫ كما نقول . ورأيى فى ذلك أن هذه القصيدة نظمها الشاعر حين كان فى حاشية جوهر لما التقى القائد بالخليفة بعد الظفر الحربى الذى ظفر به فقدم إليه هديته التى وصفها ابن هانىء فى هذه القصيدة ، وهذا رأى مقبول ، فضلا عن أنه يترك لابن هانىء عامين يقضيهما فى الزاب وفى نظم قصائده المأثورة فى جعفر بن على وأسرته .

والقصيدة الثانية ذكر الديوان أنه قيل عنها إنها أول شعر مدح به ابن هانىء الخليفة المعز ، وفيها يقول الشاعر :

ملك أناخ على الزمان بكلكل   فأذل صعباً فى القياد جموحا

ويصف فيها أسطول المعز وقوته، وتتبع بنى أمية لحركاته البحرية. ويذكر مأتمهم الذى تجاوبت به الدنيا، ورزء فقيدهم الذى فقدوه، ويدعو إلى القضاء على دولتهم فى الأندلس، فيقول:

وأمية تحفى السؤال وما لمن   أودى به الطوفان يذكر نوحا؟
تتجاوب الدنيا عليهم مأتما   فكأنما صبحتهم تصبيحا
ليسوا معايبهم ورزء فقيدهم   كاللابسات على الحداد مسوحا
أنفذ قضاء الله فى أعدائه   لتراح من أوتارها وتريحا

إلى أن يقول:

أعليك تختلف المنابر؟ بعدما   جنحت إليك المشرقان جنوحا
أم فيك تختلج الخلائق مرية   كلا وقد وضح الصباح وضوحا

والقصيدة قوية رائعة، ويتجلى من قراءتها أنها نظمت على أثر انتصار حربى لجيوش المعز. ولكن لا ندرى فى أى عام كان هذا الانتصار، ونتساءل: من هو هذا الفقيد الذى لبست أمية رزءه فى الأندلس، وتجاوبت بمأتمه الدنيا؟ لم يفصح الشاعر بشىء، ولا يبعد عندى أن يكون هو الملك الناصر الذى توفى عام ٣٥٠ هـ. وإذا يكون تاريخ القصيدة هو هذا التاريخ، وإذا صح أنها أول ما أنشده ابن هانىء أمام الخليفة، فيكون إذاً بدء اتصاله به هو عام ٣٥٠ هـ.

والقصيدة الثالثة هى الكافية التى ذكر فيها هجرته وبواعثها، والتى حللنا جانباً منها فى هجرة الشاعر وفيها يقول:

سقى الكوثر الخلدى دوحة هاشم   وحيت معز الدين عنا الملائك

ويدعو فيها المعز إلى القضاء على دولة بنى أمية فى الأندلس ، ثم يذكر نفسه وشعره والخصومات الأدبية بينه وبين الشعراء والتى يصورها فى قـــوله :

أرى شعراء الملك تنحت جانبى ... وتنبو عن الليث المخاض الأوارك
تخب إلى ميدان سبق بطاؤها ... وتلك الظنون الكاذبات الأوافك
تسىء قوافيها، وجودك محسن ... وتنشد إرنانا ومجدك ضاحك
أبت لى سبيل القوم فى الشعر همة ... طمـــوح ونفس للدنية فارك
وماسرنى تأميل غير خليفة ... وأنى للأرض العريضة مالك
نحول وإقتار وفى يدك الغنى ... فحيا وإنى بين هاتين هــالك

والقصيدة ليس فيها أى إشارة تاريخية تدل على تاريخها الأدبى ، ولكنى أرى أنها من أوائل القصائد التى نظمها ابن هانىء فى المعز ، بل لا يبعد عندى أن تكون أولها كلها ، لأن ذكر هجرة الشاعر ووصفه لحالته ، ودعاء الخليفة إلى العطف عليه والعناية به ، وبيان إخلاصه لعقيدته، وأن هذا الاخلاص كان سبب محنته فى الأندلس ، كل هذا دليل على ما أقول ، ويؤيده تصويره لهذه الخلافات الأدبية التى نشبت بينه وبين شعراء الدولة مما يرشدنا إلى أن القصيدة نظمت قبل أن يدعم مركز الشاعر فى بلاط المعز .

أما القصيدة الرابعة فهى نونيته : التى نالت إعجاب الخليفة ، وكوفىء عليها الشاعر مكافأة طائلة بلغت خمسة عشر ألف دينار ، وذكر الديوان أنه قد قيل فيها إنها أول ما أنشده الشاعر بالقيروان من شعر فى المعز ، ومطلعها :

هل من أعقة عالج يبرين ... أم منهما بقر الحدوج العين ؟

ويحرض فيها المعز على العبور إلى الأندلس والقضاء على دولة بنى أمية

فيها . والقصيدة رائعة ، قوية فى نظمها وفى روحها وفى الفكرة التى تملأ جوانبها بالحياة الفنية المشبوبة ، وهى على أى حال من أوائل القصائد التى نظمها ابن هانىء فى المعز إن لم نجزم بأنها أولها .

وإذا فأستطيع أن أقول : إن القصيدة الأولى نظمت قبل اتصال الشاعر بالمعز بعامين ، وأما القصائد الثلاث الباقية فقد نظمت كلها عام ٣٥٠ هـ ، وهو العام الذى اتصل فيه ابن هانىء بالمعز ، وأول قصيدة أنشأها فى مجلسه هى الكافية ثم تلتها الحائية ثم النونية .

وعلى أى حال فقد أقام ابن هانىء فى فناء الخليفة ، واستظل بظله ، وعاش فى القيروان عاصمة دولته ، يروح ويغدو كل يوم إلى الخليفة ، ينشر أمامه الثناء المحبر والشعر الساحر ، والقوافى البليغة التى يشيد فيها بالدولة والخليفة .

وبذلك ابتدأت صفحة جديدة فى حياة الشاعر ، فعاش فى مجد الملك وظله ، وبين سمع الزمان وبصره .

والدولة الفاطمية تنتهى نسبها إلى فاطمة الزهراء ، وكانت عاصمتها الأولى هى « المهدية » التى تنسب إلى أول الخلفاء الفاطميين المهدى .

وقد حكم المهدى هذه الدولة الجديدة نحو ربع قرن (٢٩٦ - ٣٢٢ هـ) ، ولما توفى خلفه على العرش ابنه القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) ، ثم خلفه بعد وفاته ابنه المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) ثم حكم المعز الدولة بعد أبيه .

هذه خلاصة التاريخ السياسى لعصر المعز الفاطمى ، الذى كان كله عصر كفاح وجلاد ، وقد شاهد ابن هانىء كثيراً من هذه الأحداث التاريخية العظيمة ، واتصل بالمعز خلالها اتصالا وثيقاً ، ونظم فيها كثيراً من أجمل قصائده وتغنى بمجد الدولة ، وناضل عنها خصومها السياسيين ، فلنتحدث

إذاً عن التاريخ الأدبي لابن هانيء في هذه الفترة فهو وحده صورة واضحة لعصر المعز : ولأحداثه التاريخية الحافلة .

كانت قصائد ابن هانيء في أول اتصاله ببلاط المعز تدور حول إثبات وجود الشاعر والتمكين لنفسه ولشخصيته في الدولة ، وتصوير آلامه والخطوب التي احتملها ، وشكر أيادي الخليفة التي تغدق عليه المال والعطاء ولكنها مع ذلك كله لم تخل من الحديث عن مجد الدولة .

وفي انتصارات الفاطميين الحربية والبحرية على الروم عام ٣٥١ هـ إلى عام ٣٥٤ هـ ، نظم ابن هانيء كثيراً من القصائد الرائعة التي صور فيها هذه الانتصارات الباهرة أبلغ تصوير ، ثم كان فتح مصر عام ٣٥٨ فألهم الشاعر بقصائد جميلة ، ثم نظم ابن هانيء بعد ذلك قصائد هي صورة صادقة لما تلا ذلك من أحداث حتى وفاته عام ٣٦٢ هـ

« ومعزيات » ابن هانيء هي قصائده التي أنشدها المعز ، والتي بينا مكانتها في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع ، وهي ثروة أدبية ، ومجد أدبي لابن هانيء وفنه .

لا أستطيع أن أحلل كل هذه القصائد « المعزيات » التي تبلغ إحدى وعشرين قصيدة ، في هذه الفصول الموجزة .

ومن هذه القصائد همزيته التي هي أول قصيدة في ديوان الشاعر ، مدح بها المعز وهنأه بشهر رمضان ، وقد بدأها بغزل ظهر في مطلعه بمظاهر البداوة التقليدي في الغزل فصور الشاعر عزة قوم حبيبته ، وغلوهم في الغيرة عليها ، وأشار إلى ذكريات التلاقي ومآسي الفراق ، وإلى بعض مظاهر الجمال في خلقها ، ثم خلص من ذلك إلى نفسه وإلى مدح الخليفة .

ثم وصف أسطوله وقوته ، وسطوته على الأعداء ، ويستمر في الإشادة به

ومن معزيات ابن هانيء قصيدته التي مدح بها المعز ، وذكر الفتح الذي

كسبه جيشه فى صقلية . والذى قتل فيه « منويل » ، واجتاز المسلمون بعده البحر إلى جنوب إيطاليا ، ولابد أن هذا الفتح هو النصر الكبير الذى تم قبيل سنة ٣٥٤ هـ . . . ومطلعها :

يوم عريض فى الفخار طويل ماتنقضى غــرر له وحجول

ويقول فيها :

سل « دمط منويل » وأنت عذرته فى أى معــركة ثوى منويل

ويشيد بهذا النصر إشادة بالغة طويلة ، إلى أن يختمها بقوله :

شهد البرية كلها لك بالعــلى إن البرية شاهـــد مقبول

وهناك قصيدة أخرى نظمت أيضاً فى تلك المعارك الحربية بين المسلمين والروم ، ومطلعها :

قامت تميس كما تدافع جدول وانساب أيم فى نقا يتهيــل

ويقول فيها :

نصر الإله على يديك عباده والله ينصر من يشاء ويخذل

لن يستفيق الروم من سكراتهم إن الذى شربوا رحيق سلسل

ويتهكم ببنى العباس الذين خذلوا فى ثغور الشام أمام الروم ويستمر فى الاشادة بانتصار المعز على الروم فى صقلية إلى أن يقول :

ذا المجد لا يبغى سواه وذا الذى يبنى لآل محمـــد ويؤثل

والقصيدة جيدة يشيع فيهـــا الحب وحرارة العاطفة ، ويتجلى من روحها أنها نظمت فى الاشادة بالنصر الفاطمى على جيوش الروم وأسطولهم عام ٣٥٤ هـ .

وله قصيدة أخرى فى الإشادة أيضاً بهذه الانتصارات الكبيرة فى صقلية وجنوب إيطاليا، بدأها بالغزل ثم خلص إلى مدح المعز فأفاض فى وصف بأسه وقوته الحربية ونكايته بالروم. ويقول :

إذا ذكروا آثار سيفك فيهم فلا القطر معدود ولا الزمل محسوب
وفيما اصطلوا من حر بأسك واعظ وفيما أذيقوا من عذابك تأديب

ويتهكم ببنى العباس وبضعفهم أمام الروم فى الشرق، وببنى أمية فى الغرب تهكمه بالروم، ويتفاءل المعز ودولاته بملك العالم الإسلامى، ويقول فيهـــا :

إذا مامدحنا كم تضوع بيننا وبين القوافى من مكارمكم طيب
فإن أك محسودا على حرمدحكم فغير نكير فى الزمان الأعاجيب
أفى كل عصر قلت فيه قصيدة على لأهل الجهل لوم وتثريب
وماغاظ حسادى سوى الصدق وحده
ومامن سجايا مثلى الافك والحوب
وما قصد مثلى فى القصيد ضراعة ولا من خلالى فيه حرص وترغيب
أبن موضعى فيهم، ليفخر غالب يبين بسيماه، ويدحر مغلوب
وقد أكثروا فاحكم حكومة فيصل ليعرف رب فى القريض ومربوب

والقصيدة طويلة جيدة، نظمت كسابقاتها فى انتصارات المعز على الروم فى صقلية، ووجد الشاعر فيها مجالا للسخرية بالعباسيين والأمويين، وتفاءل للدولة الفاطمية بالمجد وسيادة العالم الإسلامى، ويظهر من روحها الأخيرة أن الشاعر كان معرضاً لحملات خصومه من الشعراء، فطلب من المعز أن ينصفه منهم، ويحكم بينهم وبينه، عليه أو له، وهناك ظاهرة واضحة فى هذه القصيدة وهى روح التأثر الفنى بالمتنبى وفنه .

فإذا ما تركنا هذه المرحلة التاريخية فى حياه الشاعر والدولة ، وجدنا قصيدة تصور هـذا العهد التاريخى الذى تلا عام ٣٥٤ ، ومطلع هذه القصيدة :

تقدم خطى أو تأخر خطى   فإن الشباب مشى القهقرى

خلص فيها من ذكر شبابه الراحل ، ومشيبه النازل ، وذكريات لهوه وصباباته وهواه وحبه ، وشغفه بالصيد على الخيول الكريمة التى يصفها وصفاً ممتعاً ، وخلص من ذلك كله إلى الاشادة بالمعز ، إلى أن يقول :

فأهون علينا بسخط الزمان   إذا ما رآنا بعـــين الرضا

والقصيدة توكيد لحق الفاطميين فى الخلافة ، ونضال سياسى ضد الأمويين وهى تصور سياسة المعز واتجاهاته بعد عام ٣٥٤ هـ .

وقد مكث الشاعر نحو أربع سنوات ينظم الشعر فى المعز ، يضمنه عواطفه نحوه ونحو دولته ، وآماله الواسعة بملك الفاطميين العالم الاسلامى ، وقصائده فى هذه الفترة خالية من ذكر المعارك الحربية والانتصارات الظافرة لأنه لم تقع فيها معارك ولا أحداث تاريخية كبيرة .. ومن بين قصائده هذه قصيدة مدح بها المعز وهنأه بعيد الفطر ، ووصف موكبه إلى المصلى ، والمظلة والخيل التى امتطاها . إلى آخر ما ألم به الشاعر فى هذه القصيدة من معان وأغراض ، ومطلعها :

قمن فى مأتم على العشاق   ولبسن الحداد فى الأحداق
ومنحن الفراق رقة شكوا   هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دمع   طليق ومهجـــة فى وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى   آذنوا بالفراق قبل التلاقى

والقصيدة صادرة عن ذوق مترف يناسب حياة الشاعر المترفة بعد أن ألقى الأعباء عن كاهله . ووطدت مكانته فى الدولة ، وهى تصور عهد الاستقرار السياسى الذى انتهت إليه دولة المعز ، بعد توطيد دعائمها فى المغرب، وبعد انتصاراتها العظيمة على الروم فى صقلية والبحر الأبيض ، أى بعد عام ٣٥٤ هـ .

ثم يدخل عام ٣٥٨ هـ ، فتبتدىء مرحلة جديدة فى حياة الفاطميين ، وكيانهم السياسى ، ويسير جوهر بجيش لجب لفتح مصر فيودعه ابن هانىء متمنياً له التوفيق فى أغراضه الحربية والسياسية الكبيرة ، فإذا ماعاد من تشييع جوهر وجيشه دخل المعز ينشده قصيدته التى مطلعها :

سقتنى بمـا مجت شفاه الأراقم　　　وعاتبنى فيها شفار الصوارم

بدأها بالغزل التقليدى ، ثم خلص منه إلى أناشيده فى المعز فيقول :

فشيعت جيش النصر تشييع مزمع　　　وودعته توديع غير مصارم

ثم يذكر الجيش وينوه بقائده تنويها بالغاً .

وبعد قليل يصل إلى المعز نبأ فتح مصر على يد قائده جوهر ، فيصور ابن هانىء الفتح وأنباءه ونتائجه السياسية تصويراً باهراً فى قصيدة مطلعها :

يقول بنو العباس : هل فتحت مصر ؟
فقـــل لبنى العباس : قد قضى الأمر

وقيل إن الشاعر بدأها بدعوة المعز إلى فتح بغداد :

تجهز إلى بغداد قد فتحت مصر　　　وأنجز صرف الدهر ماوعد الدهر
تقول بنو العباس هل بلغ المدى　　　فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وهو يدل على طموح الفاطمين السياسى ويسترسل ابن هانىء فى قصيدته استرسالا جميلا، فيصور الفتح وأثره ومداه وماترتب عليه من نتائج ويصف الجيش الفاتح ، ودخوله الاسكندرية ، ورسول القاهرة إلى جوهر ، ثم سيره إليها ، وقضاءه على الدولة الإخشيدية ، ويدعو الشاعر العالم الاسلامى إلى أن يستظل بلواء الفاطميين .

ويقول فى أواخرها :

حبيب إلى بطحاء مكة موسم تحي د م،ذا ، فيه مكة والحجر

إلى أن يقول :

رضينا لكم أهل مصر بدولة أطاع لكم فى ظلها الأمن والوفر

لكم أسوة فينا قديماً فلم يكن بأحوالنا عنكم خفاء ولا ستر

وفى ختامها يقول :

ألا إنما الأيام أيامك التى لك الشطر من نعمائها ولى الشطر

والقصيدة من أجمل شعر ابن هانىء .

ولما وطد الفاطميون مكانتهم فى مصر عزموا على التوغل فى الفتح لأخذ الشام والعراق ، ويصور ابن هانىء ذلك قصيدة له وأشار فيها إلى اندفاع الفتح الفاطمى ، وسيره فى طريقه دون هوادة ، ويقول فيها :

فتربصوا فالله منجز وعده قد آن للظلماء أن تتكشفا

هذا المعز ابن النبى المصطفى سيذب عن قبر النبى المصطفى

وكأنى بلواء نصرك خافقاً قد حام بين المروتين ورفرفا

والقصيدة طويلة ، وتاريخها الأدبى يمكننا أن نحدد له عام ٣٥٩ ه .

وفى عام ٣٦٠ هـ قضى المعز على ابن الخزر الثائر فى المغرب ، والذى نقض نقض عهد الطاعة للخلافة ، وعاث فى الأرض فساداً نحو عامين ، ولما قتل جلس المعز يستقبل تهانىء رجال دولته ثلاثة أيام ، وكان بين هذه التهانىء قصيدة ابن هانىء ، التى يقول فيها :

ليعقد التاج هذا اليوم مفتخراً   إن كان توج يوم سائر المثل
فيه الربيعان : من فصل الربيع ومن   وقائع النصر تشفى من جوى الغلل

والقصيدة طويلة ، تقارب المائة ، وهى كسابقاتها دعاية قوية للدولة وسيادتها .

وفى عام ٣٦١ هـ انتصرت جيوش المعز على القرامطة فى الشام ، وبلغ هذا النصر المعز ، فنظم ابن هانىء فيه قصيدة .

وبقيت من « معزيات » ابن هانىء قصيدة طويلة جدا ، تبلغ مائتى بيت وهى أطول قصائد الشاعر ، وقد قيل إنه نظمها وبعث بها إلى المعز بالقاهرة وهو مقيم بالمغرب وأنها آخر قصائده ومطلعها :

أصاخت فقالت : وقع أجرد شيظم

وقد نقد ابن رشيق هذا المطلع فى عمدته(١) ، والقصيدة يبدؤها الشاعر بالغزل ثم يخلص إلى المعز ومدحه ، ووصف جيشه وبطولته إلى قوله :

قصارا ملك الأرض لا ما يرونه   من الحظ فيها والنصيب المقسم

ويستمر فى تفاؤله لدولة المعز ، ويصور حالة الشرق وضعفه ، واستبداد بنى بويه بأمر الخلافة العباسية ، إلى أن يقول :

سوام رتاع بين جهل وحيرة   وملك مضاع بين ترك وديلم

ويهدد بنى أمية بانتقام الفاطميين ، ويطلب الخليفة أن يحسم دا.هم ويستمر فى تهكمه بهم ، إلى أن يقول :

---

(١) العمدة ٨١/١

وعندى على بعد المزار ونأيه	قصائد تترى كالجمان المنظم
إذا أشأمت كانت لبانة معرق	وإن أعرقت كانت لبانة مشئم
تطاول عن أقدار قوم جلالة	وتصغر عن قدر الإمام المعظم
ولما تلقتك المواسم آنفا	تربصت حتى جئت فردا بموسم
ليعلم أهل الشرق والغرب أننى	بنفسى لا بالوفد كان تقدمى

والقصيدة جميلة ، وأستبعد أنها أرسلت للمعز فى مصر ، لأن المعز وصل الاسكندرية فى شعبان ، والقاهرة فى رمضان عام ٣٦٢ هـ ، والشاعر لقى مصرعه فى رجب من هذه السنة ، فإما أن يكون ابن هانىء أرسلها بعد فراقه المعز وقبل أن يصل المعز مصر ، وإما أن يكون قد أرسلها إليه والمعز فى برقة يرتب أمور الدولة قبل رحيله إلى القاهرة ، وقد دخل المعز برقة فى شوال عام ٣٦١ هـ ، ولم يرحل عنها إلا بعد أربعة أشهر أو يزيد ، واعتذر الشاعر للمعز فى القصيدة عن عدم مصاحبته له فى رحلته إلى مصر بأن أهله تركهم فى الزاب ، ولولا ذلك لما كان له فى الزاب أمل ولا حاجة ، وذلك معقول غير بعيد ، ولا يبعد أيضاً أن يكون الشاعر نظمها وهو مسافر إلى الزاب لزيارة أهله وأصدقائه ، وأرسلها إلى المعز فى عاصمته بالقيروان قبل أن يرحل إلى مصر ، وذلك أيضاً غير بعيد .

وأخيراً فهذه أهم معزيات ابن هانىء التى نظمها فى الإشادة بالمعز ودولته وفى الدفاع عن حق الفاطميين فى الخلافة ، ومناضلة أعدائهم من الأمويين والعباسيين وسواهم من الثائرين والروم ، وهى قصائد تحتل فى الأدب العربى مكانها المتميز .

— • —

وفى أثناء هذه الحقبة التى قضاها الشاعر فى بلاط المعز اتصل بكثير

من الأمراء ورجالات الدولة ، ومدح بعضهم بقصائد جميلة . ومن هؤلاء :

١ - الأمير طاهر والأمير عبد الله إخوة الخليفة المعز الفاطمى فقد مدحهما بقصيدته :

امسحوا عن ناظرى كحل السهاد وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد

٢ - أبو الفرج الشيبانى ، وهو صاحب أعمال الصعيد ، ومسخر جبل أوراس بالمغرب عام ٣٤٦ هـ، كما يقول الشاعر، ويتجلى من القصيدة الخامسة فى ديوان ابن هانىء أن أبا الفرج كان من ولاة الصعيد فى عهد الاخشيديين ، ثم سار إلى الفاطميين وكان قائداً فى حملة جوهر على مصر ، ومرشداً للجيش الفاتح ، ومن هذه القصيدة :

أنت السبيل إلى مصر وطاعتها ونصرة الدين والإسلام فى حلب

ألست صاحب أعمال الصعيد بها قدماً وقائد أهل الخثم والطنب

وكم تخلف فى أوراس من سير سارت بذكرك فى الأسماع والكتب

ثم يصف مساعدته لجوهر فى فتح مصر ، إلى أن يقول :

فقد سرى بسراج منك فى ظلم وقد أعين بسيل منك فى صبب

وإذا كان معنى ذلك أنه يمدحه بأنه رائد جوهر إلى مصر، فتكون هذه القصيدة قد نظمت بعد عام ٣٥٨ هـ .

ولابن هانىء فيه قصيدة أخرى ، أكد فيها صلات النسب البعيد بينه وبين هذا القائد واسترسل فى مدحه والتنويه به ، إلى أن يقول :

ومن مواهبه الرايات خافقة والعاديات إلى الهيجاء تستبق

وله فيه كذلك قصيدة لامية جميلة ، ويقول فيها :

فنى كل سمعى من مساعيه قبلة يصلى إليها كل مجد ونائل

ويقول منها فى قومه :

أولئك من لا يحسن المجد غيرهم ولا الطعن شزرا بالرماح الذوابل
فلم يدر إلا الله ما خلقوا له ولاما أثاروا من كنوز الفضائل

٣ – جعفر بن فلاح القائد الفاطمى الذى قتل فى أثناء نزاله للقرامطة بالشام عام ٣٦٠هـ ، وفى ديوان الشاعر عدة أبيات فيه .

٤ – أفلح الناشب عامل برقة وواليها للمعز ، وله فيه قصيدة نونية منهـا :

حيوا جلالة قدره فكأنما حيوا أمين الله فى الأيوان

ومن هذه القصيدة نعلم أن أفلح كانت الدولة وكلت إليه بعد فتح مصر القضاء على ثورات آل قرة من عرب البحيرة ، فنجح فى ذلك ، نجاحه فى توطيد دعائم الملك والأمن فى برقة ، ولعل هذه الثورات قامت بتحريض العباسيين عند قدوم جيش القرامطة إلى مصر عام ٣٦٠ هـ فيكون ذلك هو تاريخ هذه القصيدة .

٥ – أبو عبيدالله الحسين الكاتب صديق ابن هانىء ، ومدحه بقصيدة صغيرة ذكر فيها بلاغته ومنها :

تمشى البلاغة خلفكم وأمامكم ويطيب مانطقون بالأقدام

وبعد حياة حافلة ، خرج الشاعر مع المعز ، يودعه فى سفره إلى مصر عام ٣٦٢هـ وهو على عزم اللحاق به ، بعد أن يعود إلى أهله ، فيهيئهم للسفر معه إلى القاهرة : وبعد أن رحل المعز وودعه الشاعر ، تآمر عليه بعض خصومه من رجال السياسة والأدب والشعر ، وأسفرت هذه المؤامرة عن اغتيال الشاعر لسبع ليال بقين من رجب عام ٣٦٢هـ ، وهو فى سن الثانية والأربعين .

وطويت حياة رجل كان الأثير العزيز عند المعز ورجال دولته ، وختمت صفحة شاعر ممتاز خلده شعره بين كبار الشعراء فى عصره .

ووصل نعيه إلى المعز وهو سائر فى طريقه إلى مصر فحزن وجزع وقال : « لقد كنا نرجو أن نفاخر به أهل المشرق فلم يقدر لنا ذلك » ، ولكن حم القدر ، وحان الأجل ، ولكل أجل كتاب .

— ٦ —

ولقد كانت أخلاق ابن هانى أخلاق الرجال الذين يعتزون بأنفسهم ومحتدهم ، ويقدرون الواجبات الملقاة على كواهلهم فى الحياة ، ويصورها لنا ابن هانىء فى صورة من السخاء والنبل والوفاء والشرف وبعد الهمة والأنفة من الموبقات .

إنى لآنف أن يميل بى الهوى   أو أن يرانى الله حيث نهانى

وغزل ابن هانىء التقليدى البرىء ووصفه القليل للخمر ومجالسها وسقاتها، لا يصوران لنا ابن هانىء فى مظهر ينافى هذا المظهر النبيل ، وإن كان خصوم الشاعر أذاعوا عنه ـ فى حياته وبعد حياته ـ أنه كان صاحب لذات ولهو ودعارة ، ولعلهم استندوا إلى آثاره الأدبية القليلة فى الراح ومجالسها ، على أنها وحدها لا تكفى لهذا الحكم الذى حكم به عليه بعض المؤرخين ، فضلا عن أن ابن هانىء لم تكن أحاديثه عن صبابات الهوى أو نشوة الراح حديث المستهتر ، فوق أنها لا تنبع من أعماق قلبه . وخلجات مشاعره ، إنما كان الشاعر مقلدا فى غزله وخمرياته . وكان يجارى فى هذه الناحية الفنية سواه من الشعراء .

لقد كان ابن هانىء فى شغل بنفسه وحياته ونضاله عن أن يحيا حياة المجون واللهو ، كان رجل كفاح ، ورجل طموح ، شغلته حياة الكفاح والطموح عن حياة اللذة والهوى والمجون .

ثم إن اتصاله بالمعز ، أيضا مما ينأى به عن حياة اللهو والاستهتار والمجون ،

وإذا رأى ابن هانىء فى اللهو راحة للنفس والفكر ، كما يقول ليحيى بن على ، فانما كان اتجاهه إلى اللهو البرىء ، والمتعة التى لاتبعده عما ألفه وشب عليه وتمسك به من تقوى وورع وجلال خلق ودين .

لحياة ابن هانىء الشخصية إذاً كما يصورها لنا شعره كانت مثالا للسمو الخلقى ، والطهر النفسى ، والبعد عن شهوات الحياة وأطماعها . ويدعم من ذلك مكانة ابن هانى فى بلاط المعز وعند رجالات الدولة وعظمائها وحسن تقديرهم إياه .

شخصية الشاعر ، كانت سماتها الغالبة عليه ، الشعور بالنفس ، والاعتداد بالماضى الذى خلفه له الآباء والأجداد ، والبعد بنفسه عن حياة الرذائل والطمع الكاذب فى الحياة ، وكان يكمل هذه الجوانب كلها خلقه الطيب ، ووفاؤه النادر ، ونبل نفسه وصدره ، فوق ثقافته وأدبه ، وشعره الذى كان يعتز به ابن هانى كل الاعتزاز .

ثم نمى هذا الشعور المتغلغل فى أعماق نفس الشاعر مجده الذى ناله فى قصور الأمراء والقواد وعند الخليفة .

وكل هذه البواعث فى نفس ابن هانىء ، جعلت شخصيته فى الحياة التى يعيش فيها قوية ، واضحة الأثر ، لها تقديرها الأدبى عند العامة والخاصة من الناس .

لم يكن ابن هانىء إذاً رجل لذة وترف كما كان أبو نواس ، ولا رجل ثورة اجتماعية وفلسفة إنسانية كما كان المتنبى ، ولم يكن كذلك رجل فلسفة عقلية ، ولا ناقدا اجتماعيا مسرفا فى التشاؤم من الحياة وخطواتها البعيدة عن جادة الحياة كما كان المعرى ، إنما كان رجل فكر سياسى .

ولقد نال ابن هانى من التوفيق فى حياته ماقلما ناله شاعر قبله ، واستمد

من هذا الظفر قرة ومجدا ومالا ، عاش فى ظلالها إلى آخر شبابه وصدر دجواته ، إلى أن وافاه أجله .

على أن كثيراً ممن يقرأون شعر ابن هانىء يتخيلونه شاعراً مداحا لحسب، استجدى بشعره الأمراء والقواد والمعز ، ويحسبون فنه فنا شعريا خالصاً لاحياة فيه ولا روح ، وابن هانىء نفسه يرد على مثل هؤلاء الناس فيقول :

وما كنت مــــداحا ولـكن مفوها
يلبى إذا نادى ويـكفى إذا استـكفى

ويقول :

وما قصد مثلى فى القصيـــد ضراعة
ولا من خلالى فيه حرص وترغيب

وفى الحق أن ابن هانىء مغامر سياسى ، كانت تسير معه فى مغامرته دولة ويؤيده ملك وشتى معانى الحياة .

ومذهب الشاعر فى الحياة كان مذهبا عمليا سار به إلى هذا التوفيق الذى كسبه وعاش فى ظلاله بعد هجرته إلى المغرب ، وهو فى هذا بعكس المتنبى الذى كان يريد أن يسير على ضوء مايتمنى من مثل وآمال كبار ، فطمح فى الملك ، وخاصم الأمراء والولاة ، وسار فى طريق آماله ، فإذا هى تنكشف عن سراب كسراب الصحراء ، وعن فشل فيما نشده الشاعر من غايات وأغراض وأمان .

فالحياة ومتعها عند ابن هانىء سراب ، فالحب ضحكة وبكاء ، والدهر ألفة وشتات ، والناس ظاعن ومودع ، ومقيم يبكى على راحل ، والناس يبكون من الدنيا على غير طائل ، والعاجل المرجو كالآجل ، وآجلها المخشى كعاجلها ، والأيام عون لكل وغد ، مما هو مألمة لنفس العزيز . .

أيها الصب لاترع فالليــالى فرحات تشوبهـــا ترحات
هـكذا الحب ضحـكة وبـكاء وكذا الدهر ألفــة وشتات

وقد خاض الشاعر أحداث الليالى والأيام :

غرض ترامانى الخطوب فذا قـــوس وذا سهم وذا وتر

فجزعت حتى ليس بى جزع وحذرت حتى ليس بى حذر

ومع هذه الآلام فقد عاش فى طموح وإقدام وجد ، وطلب المجد من طريق السيوف ، فوق طلبه بأدبه وفنه :

طلب المجد من طريق السيوف شرف مؤنس لنفس الشريف

وابتعد عن الذلة والهوان ، فذل العزيز لا يطاق :

إن ذل العزيز أفظع مرأى بين عينيه من لقاء الحتوف

وكان لا يبالى بالفقر ، فالغنى شجن من الأشجان :

لا أرهب الاقتار بعد تيقنى أن الغنى شجن من الأشجان

- ٧ -

ولقد كان لبيئة الأندلس المترفة ، وحضارتها الزاهية فى عهد الناصر ، والمنافسة السياسية بين بغداد وقرطبة والمهدية ، كان لذلك أثره فى ازدهار الأدب والشعر فى الأندلس الوطن الأول للشاعر ، ثم كان لتنوع مظاهر الحياة والطبيعة فى الأندلس أثر فى تلوين الشعر بلون خاص ، شاع فيه الوصف ودقة التصوير وتنقل الخيال وسلامة الأسلوب ، والتأنق فى الأداء ، وأوحت هذه الحياة الشاعرة إلى الأندلسيين روح الشعر وإلهام القريض فنظموه فنا يتحدث عن البيئة ومشاهدها ، والعواطف وأسرارها ، والمجتمع وحياته ، والشعراء وحياتهم الخاصة التى كانوا يحيونها : والآمال واللذات والمشاعر التى كانت تجيش بها نفوسهم ، وتختلج بها صدورهم . وأصبح هذا الشعر يمثل جانبين واضحين فى الشعر الأندلسى :

أحدهما طبيعة البادية التى كانت ماتزال نفوس العرب فى الأندلس

تحن إليها ، وتؤمن بها ، وتسير على نهجها فى التفكير والمعرفة والأخلاق .

والثانى طبيعة الحضارة التى كانوا يعيشون فيها ، والترف الذى يملأ حياتهم ، والجمال الذى كان يتيم قلوبهم ويسحر أبصارهم فى كل واد وبقعة من بقاع الأندلس الغارقة فى الشعر والسحر والجمال .

ويمثل هذا الاتجاه الفنى فى الشعر الأندلسى قبل ابن هانىء بقليل ، ابن عبدربه أديب الأندلس وشاعرها ومؤلفها . والمتوفى عام ٣٢٨ ه ، فى عهد الناصر ، أى بعد ثمانية أعوام من ميلاد ابن هانىء وقد حفل « العقد الفريد » لابن عبد ربه بشتى المقطوعات والقصائد الشعرية ، التى نظمها ، والتى صور فيها ألوان الجمال فى بيئة الأندلس الساحرة ، والتى صيغت فى أسلوب عذب جميل يكاد يسيل رقة وجمالا وخصباً .

وفى هذا الوسط الأدبى نشأ ابن هانىء واستمد ثقافته الأدبية ، ونظم القريض واتصل بالحياة فى إشبيلية وفى قصر أميرها ، فهل كان شعره صورة لهذه البيئة الاجتماعية والأدبية التى نشأ فيها وعاش فى ظلالها ؟

لا يستطيع الباحث الإجابة على هذا السؤال ، لأن شعر الشاعر فى الفترة التى قضاها فى وطنه حتى هجرته منه إلى بلاد المغرب وهو فى سن السابعة والعشرين ، قد ضاع كله ، ولم يبق منه أثر قليل أو كثير ،

ومع هذا فنستطيع أن نقيس فن ابن هانىء قبل هجرته بفنه الذى نظمه بعد هجرته مباشرة ، ونستطيع أن نقول على ضوء هذا القياس : إن الفن الأدبى للشاعر فى الأندلس لم يكن يصور بيئته ، ولايجارى فن أمثاله من الشعراء الأندلسيين ، ولا يساير روح الترف الأدبى والحضارة الفنية فى الأندلس وطن الشاعر ، فما السر فى ذلك والسبب فيه ؟

لعل مرجع ذلك إلى أن شخصية الشاعر الفنية لم تكن ظهرت بعد فى

إنتاجه الفنى ، إنما كان مقلداً لسواه من الشعراء ، لم يقلد المحدثين منهم . الذى يجارى أدبهم وفهم روح الحياة فى القرن الرابع الهجرى ، وإنما قلد الشعراء الجاهليين الذين عكف على حفظ أشعارهم . وتأثر بها فى إنتاجه ونزعاته فى فهم الفن ، وفى القريض ، طول هذه الفترة .

ووفد ابن هانىء على المغرب ، فوجد فيه شعراء ، اتخذهم أنداداً لاأساتذة ، كان من شعرائه على التونسى الشاعر ، الذى قال فيه ابن هانىء لما هجاه شعراء المغرب بعد هجرته : « لا أجيب منهم أحدا إن أن يهجونى على التونسى فأجيبه »(١) . وكان منهم عبد الله ابن الحسن الجعفرى ، ومقداد ابن الحسن الكتامى وسواهم من الشعراء . فاذا كان موقفه منهم ؟ وماذا كان موقفهم منه ؟ .

لقد بذ ابن هانىء بفنه جميع هؤلاء الشعراء فحسدوه ونقموا عليه ، ثم أخذوه فى هجائه والزراية به وبفنه ، ولكن ابن هانىء عصف بهؤلاء الشعراء جميعا ، وأخمل مكانتهم ، فصاروا بعد قليل من بقائه فى المغرب رعاعاً فى دولة القريض ، من حيث صار ابن هانىء أمير الشعر فى المغرب كافة ، وكان هجاء خصومه الشعراء له لايزيده إلا إجادة وإبداعاً ، وفتن الأمراء والخليفة بفنه ، ورآه الشاعر مؤلفا من نظام كواكب :

صنع يؤلف من نظام كواكب
طلعت لغــير كثير والأحوص

ويصور الشاعر اختلاف نزعاته الفنية والنفسية عن نزعات سواه من الشعراء فيقول :

---

(١) ١/٧١ العمدة لابن رشيق .

أبت لى سبيل القـــوم فى الشعر همة
طمـــوح ونفس للـــدنية تارك

ويقول للمعز :

فإن أك محسوداً على حر مدحكم فغير نـكير فى الزمان الأعاجيب
أفى كل عصر قلت فيه قصيدة على لأهل الجهل لوم وتثريب
أبن موضعى فيهم ليفخر غالب يبين بسيماه ، ويدحر مغلوب
وقد أكثروا فاحكم حكومة فيصل
ليعرف رب القـــريض ومربوب

وقد حكم المعز له فأصبح شاعر الخليفة والدولة وأمير القريض فى دولة الفاطميين ، وجميع نقاد الأدب يسلمون لابن هانىء زعامة الشعر فى المغرب كافة ، ويقولون إنه لم يبذه أحد من الشعراء فى المغرب أو الأندلس، ممن سبقوه أو جاءوا بعده ، ويرون أن فنه ارتفع بمميزاته الخاصة والعامة عن مستوى الفن والشعراء فى المغرب والأندلس ، وأنه كان طبقة وحده فى البلاغة الأدبية وفى الانتاج الشعرى فى شتى عصور المغرب الأدبية ، وإن كان يرى بعض المحدثين أن ذلك إجحاف بأمثال ابن زيدون . . . ورأيى فى ذلك أن ابن زيدون كان صورة من صور بيئته الأدبية ، أما ابن هانىء فقد كان وحدة بيئة أدبية خاصة ، وشخصية فنية مستقلة بعيدة عن شخصية ابن زيدون وغير ابن زيدون ، كما كان المتنبى شخصية فنية مستقلة ولذلك قال النقاد : « ابن هانىء متنبى المغرب وأبو الطيب متنبى المشرق » .

وقد وضع الشعراء فى المغرب والأندلس فن ابن هانىء — بعد عصره — موضع الإكبار والتقدير ، ونهجوا نهجه فى مذاهب الشعر ومعانيه وخيالاته وأساليبه ، وجعلوه مذهباً أدبياً لهم على مر العصور الأدبية ، ونبغ شعراء

في الأندلس والمغرب كابن الحداد وابن عائشة وسواهم من الشعراء الذين كانوا تلامذة له في فن الشعر ونظمه ، مما تراه مفصلا في الذخيرة ونفح الطيب ، وذلك مظهر لمكانته في الشعر في بلاد المغرب طول عهده بالحياة الأدبية .

— ٤ —

والاتجاه الفني عند ابن هانى ينزع إلى روح البداوة ، التي تأثر بها فيما قرأ من شعر الجاهليين والاسلاميين ، وهو كما يقول أبي الفرج الشيباني كان ولاشك ممن لا يحتذى حذو المحدثين في اتجاههم الفني في نظم القريض بل كان يرجع إلى الشعر الجاهلي يأنس به وينزع منزعه ويحاكيه ، ويقول من قصيدته في الشيباني ، وقوله في ممدوحه صورة لنفس نزعاته الأدبية التي سار عليها ، يقول :

من لا يفاخر بالطائي(١) في زمن
ولا الخزاعي(٢) في عصر الخزاعي
ولا الفرزدق أيضاً ، والفخار له ،
ولا جرير ولا الراعي النميري
لكن بعلقمة الفحل الذي زعموا
في الشعر أو بامرىء القيس المراري

فهو لا يفاخر بالمحدثين كأبي تمام ودعبل ، ولا بالاسلاميين كالفرزدق وجرير والراعي ، ولكن يجعل فخره في الفن بعلقمة وبامرىء القيس .

---

(١) هو أبو تمام الشاعر م ٢٣١ هـ
(٢) هو دعبل الشاعر ٢٤٩ هـ

وإن كان الفتح بن خاقان يذكر فى مطمح الأنفس(١) أنه كان يتبع فى أغراضه الفرزدق وجرير .

وبعد فشعر الشاعر صورة لهذه الروح ، وذلك الاتجاه والنزعة الفنية ، فهو لا يمثل ترف المحدثين ولهوهم وخيالهم الفنى وإغرافهم فى التصوير ، وتهويلهم فى التمثيل والخيال ، وإنما يمثل روح الجد والإقدام والبداوة والقوة ، والصدق فى التصوير والتعبير ، ومذهبته التى مطلعها :

أصاخت فقالت : وقـــع اجرد شيظم
وشامت فقالت : لمـــع أبيض مخذم

التى حاكى بها معلقة عنترة فى روحها وأسلوبها واتجاهها الفنى ، هذه المذهبة صدى لهذا الاتجاه . كما أن خلو شعره من آثار الامعان فى المعانى والأخيلة كذلك أثر لهذا المذهب الشعرى الذى نزع إليه الشاعر ، وكذلك هو فى أسلوبه ينهج منهج الجاهليين فى قوة الطبع وضخامة الأسلوب وجزالة الألفاظ وإشراق الديباجة ، وفى كثرة الأساليب المختارة التى تمثل روح البداوة فى التعبير والأداء ، ولعل هذا الروح أثر من آثار الوراثة فيه .

ومعانى الشعر عند ابن هانىء قريبة واضحة تشبه معانى الإسلاميين ، وإن كان الشاعر يحاول فى أحيان كثيرة أن يبرزها بأسلوبه وصنعته فى مظهر جديد مبتكر .

وفى شعره ألوان من الخيال الواقعى المجرد . وقد يحيد الشاعر أحيانا عن نهج الفن الواضح ، فيمدح ممدوحه بالجمال كما يقول فى جعفر بن على :

وسنان من وسن الملاحة طرفه   وجفونه سكران من خمر الصبا

---

(١) ٨٤ مطمح الأنفس .

يقول فى أبى الفرج الشيبانى وكأنه يغازله :

أهواه والصعدة السمراء تعذلنى والقلب يدلى بعذر فيه عذرى

وقد يقبح أحيانا فى صوغ معانيه وتصويرها ، كما يقول :

وأحمل أيامى على ظهر غارة وتحملنى منها على مركب وعر

ويأخذ عليه كثير من النقاد مبالغاته ، وإسرافه فى معزياته .

وأسلوب ابن هانى له ميزاته الخاصة التى تميزه عن أساليب من سواه من الشعراء :

هو فيه بدوى جزل ، يرق حينا ، ويبلغ فى الجزالة والقوة والحوشية مبلغاً كبيراً أحيانا أخرى .

وكان فى طبع ابن هانىء ميل إلى نوع من الغرابة والتكلف ، حتى حسبه بعض النقاد من الشعراء الذين يبهرون بألفاظهم ، ومن هؤلاء النقاد المعرى وابن رشيق وابن خلكان .

وكثيراً مانرى الشاعر قد عمد إلى التهويل والتفخيم ، أو إلى الصنعة وتكلف أساليب البديع فى شعره ، فيجيد ، وتخفى قوة أسلوبه مظاهر التكلف فى صناعته الفنية أحيانا ، ويشذ عن الجودة طبعه وصناعته فى أحيان أخرى .

وظاهرة واضحة فى أسلوب ابن هانىء هى كثرة إطنابه وتفصيله ، مما كان يؤدى به فى بعض الأحيان إلى النزول عن مستواه الشعرى ، فتراه يكرر كثيراً من الصفات التى لا طائل تحتها والتى لا حظ فيها إلا إظهار مقدرة الشاعر اللغوية : وهذه الظاهرة سبب من أسباب طول نفسه فى شعره ، الذى امتاز به ابن هانىء ، ويشاركه فيه ابن الرومى ، إلا أن منشأه عند ابن الرومى المعنى وبسط الحديث فيه ، وعند ابن هانىء الأغراض والبواعث الفنية التى نظم فيها ، وجانب اللفظ الذى كان يؤثره .

وأسلوبه على العموم سليم مطبوع ، لا يشذ منه عن سلامة الطبع إلا القليل جداً من أبياته ، مثل قوله :

«لو كنت قبل تكون جامع شملنا» ، مما تلحظ فيه أثر التعقيد ، ومثل قوله :

ماكنت أحسب أن أرى بشرا كـــذا
ليثـــا ولا درعا يســـمى غابا

فكلمة «كذا» هنا نازلة مردودة فى حكم الذوق الأدبى .

وهذا القليل النادر من الأبيات التى خان فيها ابن هانىء طبع الشعر واستواء التأليف وقوة النظم ، لا يكاد يقاس بشذوذ المتنبى فى فنه ، ولا بشذوذ غير المتنبى من الشعراء الممتازين .

وجودة ابتداءات القصائد ، وحسن انتهاءاته فيها ، سمة لابن هانىء فى شعره ، حتى ضرب المثل بمطلعه :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

وقرن بمطلع معلقة امرىء القيس «قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل» فى الجودة والجمال ، وابن هانىء فوق ذلك مجيد فى اقتباسه من أساليب القرآن الكريم ، ومجيد فى حسن تخلصه إلى المدح فى كثير من قصائده ، ويمتاز أسلوبه بقوة البيان ، وحسن السبك والتأليف ، وقوة الارتباط بين أجزاء البيت الشعرى ، وتلاحم أجزاء القصيدة فى شعره ، كما يمتاز بخلوص شعره من سمات التعقيد والغموض معا ، وتشيع فى إنتاجه روح الطبع والشاعرية القوية ، وفى أسلوبه كثير من الجمال فى صوره البيانية من الاستعارة والتشبيه والمطابقة والمقابلة ، ويشبه الممدوح بهذه الصور الشعرية المجتمعة فيقول :

كبدر الدجى ، كالشمس ، كالفجر ، كالضحى
كصرف الردى ، كالليث ، كالغيث ، كالبحر

وفى شعره أساليب مختارة كثيرة جيدة ، تساير الطبع ، وتستدعى الاعجاب .

وموضوعات شعره، كثيرة منوعة :

فمن مدح سياسى يشيد فيه الشاعر بالدولة ومبادئها ورجالاتها وأعمالها وأيامها، وبنفوذها الروحى ومستقبلها الباسم، مما كان يصدر عن عقيدة قوية، ولقد امتاز هذا «الشعر السياسى» بكثير من المعانى الخصبة، كما امتاز بالقوة والروعة وسعة خيال الشاعر فيه وهو فى هذا الجانب الفنى يضارع المتنبى.

ومن وصف رائع لجيوش الدولة وأساطيلها، ولأيامها وانتصاراتها، وللمعارك العظيمة التى خاضتها، وللخيول التى كانت تقتحمها، وللأبطال المعلمين الذين كانوا يسيرون بالدولة من مجد إلى مجد، ويكللون هامتها فخاراً على فخار. نعم لم يكن ابن هانىء وصافا للطبيعة كما كان ابن المعتز وابن خفاجة، ولم يكن وصافاً للعواطف الإنسانية كما كان المتنبى وأبى العلاء، إنما كان وصافا مجيداً لحياة النضال السياسى والحربى الذى شغل الدولة والناس فى عصره وفى بيئته، أما أوصاف الشاعر التى لا تتصل بهذه الناحية، فهى كلها من الأوصاف التقليدية التى لا تمت إلى نفس ابن هانىء بصلة، وهو فى كثير منها ناب عن الذوق والإجادة، كما فى وصفه لرجل أكول، وكما فى وصفه الراح ومجالسها وآلات الغناء التى تكون فيها، فهذه الأوصاف وسواها لا تبلغ شيئاً من وصفه الممتع البالغ حداً كبيراً من الجمال والسحر، عندما كان يصف الجيوش وآلات القتال والمعارك الحربية الضخمة. والشاعر فى هذا الباب يضارع أبا الطيب، فهما فى هذه الناحية صنوان. ووصف ابن هانىء مفعم بألوان الخيال وصوره التى كان يستعين بها فى تصوير المعنى الذى يريده.

وللشاعر هجاء ولكنه هجاء ضعيف، لأن الهجاء بعيد عن نفسيته، وكان إذا أراد أن يهجو إنساناً صور من يهجوه بالنفاق والكيد للدولة ومبادئها

كما فعل مع الوهرانى كاتب أمير الزاب ، فهو هجاء سياسى لاغير ، أما الهجاء الفنى الذى تراه عند ابن الرومى مثلا فليس للشاعر فيه نصيب .

ولابن هانىء غزل يبدأ به قصائده ، ولكنه فى جملته غزل تقليدى متكلف مألوف المعانى والأساليب ، يكرر فيه ماسبق إليه من : تصوير موقف الوداع وهول الجفاء ، والشكوى والرجاء ، والأرق والبكاء ، وبؤس المحب فى حبه ، وذكر طيف الخيال من محبوبته الذى يزوره أحيانا ، وتشبيه حبيبته بالمها والظباء والغصون ، وذكر ألحاظها وأثر فتكها ، وغيرة أهلها عليها ، إلى غير ذلك من المعانى المألوفة التى للشاعر فيها حسن الصوغ ، ونظمها فى أسلوب خلاب وعبارات بليغة . وفى الحق أن حياة ابن هانىء كانت تحول بينه وبين الاجادة فى النسيب شأنه فى ذلك شأن المتنبى ، ومع بداوة ابن ابن هانىء فى غزله التقليدى ، فقد يرق حتى يأتى بالجديد الساحر ، كما فى قصيدته :

امسحوا عن ناظرى كحل السهاد
وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد

أو قصيدته :

قمن فى مأتم على العشاق ولبسن الحداد فى الأحداق

أو قصيدته :

هل من أعقة عالج يبرين أم منهما بقر الحدوج العين ؟

أو قصيدته :

أمن أجلها ذاك السنا وتألقه يؤرقنا لو أن وجدا يؤرقه

وقد يتفلسف فى حبه ، فيذكر الشمل المبدد ، والسعادة الذاهبة ، كما

فى قصيدته : هل آجل مما أؤمل عاجل ؟ . فليس ابن هانىء من رجال الهوى العذرى . ولا من شعراء الحس واللذة المترفين ، وإنما هو فى غزله مقلد كغيره من الشعراء المقلدين ، الذين قد يجيدون فيه وقد لا يجيدون.

ولابن هانىء ثلاث قصائد جيدة فى الرثاء ، منها مرثيتان فى والدة جعفر بن على أمير الزاب ، ومطلعهما :

صدق الفناء وكذب العمر وجلا العظات وبالغ النـــذر

« آلا كل آت قريب المدى وكل حيـــاة إلى منتهى »

والمرثية الثالثة رثى بها طفلا صغيرا من أحفاد جعفر بن على ، ومطلعها :

وهب الدهر نفيسا فاســترد ربمـــا جاد اللئـــيم لحسد

والمرثيات الثلاثة فيها جودة ، وفيها حكمة ، وقد حاول بها ابن هانىء أن يصل إلى منزلة المتنبى فى حكمته الخالدة ، ولكن المتنبى فى ذلك ، لا يضارعه شاعر من الشعراء . والحكمة على أى حال فى شعر ابن هانىء قليلة متفرقة ، وتكثر فى مراثيه ، وهى حكم اجتماعية قريبة التناول مستمدة من أثر التجارب العامة فى الحياة :

وقصارى الحديث أن ابن هانىء أجاد فى شعره السياسى ، وفى مدحه ، وفى وصفه الحربى ، وفى غزله وهجائه ، وفى خمرياته ، وهو فى حكمته لا يصل إلى منزلة حكمة أبى الطيب الخالدة وإن كان يرسم لنا صورة كاملة لفلسفة الحياة العملية التى سبق أن أشرنا إليها فيما مضى من بحوث .

وفى ابن هانىء يقول الفتح بن خاقان م ٥٢٦ هـ فى كتابه مطمح الأنفس :

« له نظم تتمنى الثريا أن تتوج به . وبدائع يتحير فيها ويحار ، ويخال لرقتها أنها أسحار ، اعتمد فيها التهذيب والتحرير ، واتبع فى أغراضه الفرزدق

وجرير ، وتشبيهاته خرق فيها المعتاد »(١)

ويقول فيه المعرى م ٤٤٩ هـ فى رسالة الغفران : « كان من شعراء المغرب المجيدين »(٢) :

ويقول ابن خلكان م ٦٨١ هـ : ليس فى المغرب من هو فى طبقته ، لامن متقدميهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الاطلاق ، وهو عندهم كالمتنبى عند المشارقة ، ثم نوه بنونيته « هل من أعقة عالج يبرين » وأخذ عليه إفراطه فى المدح(٣) . ويفتخر الشقندى أديب الأندلس به فى مناظرة أدبية رواها نفح الطيب(٤) .

وأشاد به لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة(٥) . وابن شرف فى مقامته « أعلام الكلام »(٦) .

وجعله ابن الأبار هو وابن دراج الشاعر الأندلسى نظيرين للمتنبى وأبى تمام(٧) ونوه الحميدى بشعره ، وأخذ عليه قعقعة ألفاظه(٨) ، وذلك رأى المعرى فيه ، وإن حمله ابن خلكان على فرط تعصبه للمتنبى(٩) .

وجعله ابن رشيق من الشعراء الذين يهرون بألفاظهم أكثر مما يهرون

---

(١) ٨٢ مطمح الأنفس .
(٢) ١٥٥ رسالة الغفران نشر اليازجى .
(٣) نفح الطيب ابن خلكان .
(٤) ٢ / ١٤٠ المصدر نفسه .
(٥) ٢/١٢ الاحاطة .
(٦) ص ٢٦ .
(٧) ١٠٣ تكملة الصلة .
(٨) ٤١ جذوة المقتبس .
(٩) ٢ / ٥ ابن خلكان .

بمعانيهم(١) ونوه به الذهبى فى تاريخ الإسلام(٢).

ويعجب ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب(٣) بقصيدته :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

ويراه ياقوت أشعر المغاربة ويجعله فى المغرب نظير المتنبى فى المشرق(٤).

وذكره ابن أبى الحديد فى نهج البلاغة، والعاملى فى الكشكول، وكثير من مؤرخى الأدب فى العصر الحديث

وترجم فان كريمر شعره إلى الألمانية، ورأى فيه قوة بيان وكثرة تمثيلات وجودة ألفاظ بما يعتبر من خصائص وأوصاف شعره، وذكره أيضاً هامر، وهوارت، وسواهما من المستشرقين.

وقد عنى بشرح ديوانه شرحا لغويا واسعا الدكتور زاهد على الهندى، وطبع هذا الشرح فى مطبعة المعارف عام ١٣٥٢ ﻫ فى نحو تسعمائة صفحة، قدمها بمقدمة فى حياته وتاريخه(٥).

وعن ابن هانى كتب المحدثون تراجم موجزة فى دراساتهم الأدبية.

---

(١) ١/ ٨٠ العمدة.

(٢) ٨١.

(٣) راجع باب تجاهل العارف فى الخزانة.

(٤) ٧ / ٢٢٦ وما بعدها معجم الأدباء.

(٥) ومن ديوان ابن هانى نسخة خطية فى مجلد بقلم نسخ فى ١١٧ ورقة فى مكتبة الأزهر (رقم ٥٠٠ أباظة - ٧٠٩٦) . راجع فهرس المكتبة الأزهرية ص ٩٢ ج ٥.

— ٥ —

بين المتنبى وابن هانىء

عاش المتنبى (٣٠٤ — ٣٥٤ هـ) فى العصر الذى عاش فيه ابن هانىء (٣٢٠ — ٣٦٢ هـ) ، ولقد كان أبو الطيب شاعرا ، ولكنه أراد أن يكون ملكا على عرش من العروش ، أو أميرا على ولاية من الولايات فأخفق . أراد أن يترك الشعر إلى السياسة ، فردته الأيام عن السياسة إلى الشعر ، فبرم أبو الطيب بحياته التى لم يدرك فيها آماله وأحلامه ، وعاش ساخطا على الحياة والناس ، داعيا إلى مذاهب وآراء أوحى بها إليه سخطه وغضبه . بعد أن كان يدعو إلى القوة والطموح والتفاؤل ، وظل كذلك حتى خر صريعا مضرجا بالدماء .

ونال أبو الطيب بعد حياته من المجد الأدبى ، مانالة فى حياته من جلال الذكر ، وشيوع الشعر ، فهتفت الأجيال بذكره ، وعد شاعر العربية فى عصره ، بل جعله كثير من النقاد شاعر العربية الفذ فى شتى عصورها الأدبية ، وأحيط ذكره بهالة من التقدير وجلال الذكر وعظمة الفن ، تشبه الهالة التى يحيط بها الأوربيون ذكر شكسبير وجوته وهوجو وليوباردى وسواهم من شعراء الغرب الخالدين .

ومن الغريب فى البحث الأدبى حقا أن نجد بين أبى الطيب وابن هانىء وجوها كثيرة من الشبه فى الحياة وفى العقيدة وفى الشخصية والشاعرية وفى المنزلة الأدبية العامة .

فحياة ابن هانئ ، واتصاله بقصور الأمراء والخلافة ، وجهاده العام ، تشبه فى ذلك حياة المتنبى ، الفكرة الفاطمية التى آمن بها ابن هانئ هى نفس الفكرة الاسماعيلية التى كان يؤمن بها أبو الطيب كما يثبت البحث والدراسة..

وابن هانىء فى طموحه، وفى مكانته عند الأمراء والملوك فى عصره ، شبيه فى ذلك بالمتنبى أبعد حدود الشبه ، وكان ابن هانىء شاعر المغرب فى عهد المعز ، لايطاوله فى مكانته الأدبية شاعر من الشعراء ، كما كان المتنبى شاعر المشرق لايطمع فى أن يكون له بجانبه ذكر لأحد من الشعراء .

وشاعرية الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ، فالمدح وأوصاف الحروب تكاد ان تتعادلان من الناحية الفنية فى شعر الشاعرين ، ولكن ابن هانىء لايضارع المتنبى فى الحكمة والأمثال وفى الرثاء وفى بعض أغراض الشعر الأخرى ، كما أنه لايصل إليه فى دقة المعانى وعمقها ونضوج الثقافة العقلية فى شعره وتنوعها ، وإن جاراه فى ذلك إلى حد ما .

وروح الشاعرية عند الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ، من حيث قوة الأسلوب وفحولته وجزالته وطبعه ، ومن حيث البعد عن ألوان الترف فى الأداء ، والالمام بكثير من الغريب ، وتتشابه فى كثير من السمات الفنية الخاصة التى نراها فى شعر الشاعرين وتراثهما وانتاجهما الفنى الحافل .

ويشبه النقاد وعلماء الأدب ابن هانىء بالمتنبى ، ويلقبونه بمتنبى المغرب ويعطونه بهذا اللقب زعامة الشعراء فى المغرب والأندلس فى عصره وبعد عصره ، كما كان المتنبى أمير الشعر فى المشرق ، كما أنهم بهذا اللقب يشركونه فى كثير من سمات وخصائص شاعرية أبى الطيب المتنبى الخالدة .

ومع ذلك ومع اتحاد عصر الشاعرين ، وتوافقهما فى البيئة والمؤثرات العامة وفى كثير من خصائص الشعر وسمات الشاعرية ، مع هذا كله فإن لكل من الشاعرين طابعه الخاص ، وروحه الفنية المستقلة ونزعاته الأدبية المقصورة عليه ، وإن كان ابن هانىء أقرب الشعراء إلى المتنبى ، وأشبههم به فى مكانته الأدبية العظيمة ، فى عصر الشاعرين وبعد عصرهما .

ويكاد المجد السياسى الذى لاقاه ابن هانىء فى حياته يضارع الشقاء الذى

لاقاه أبو الطيب فى عصره ، كما يكاد الذكر الأدبى السائر الذى ناله المتنبى بعد حياته يضارع الخمول الأدبى الذى لازم اسم ابن هانىء بعد وفاته إلى العصر الحديث .

وهناك أسطورة أدبية يرويها البديعى فى كتابه « الصبح المنبى فى حيثية المتنبى » تحدثنا بأن أبا الطيب حين كان فى مصر عزم على السير إلى المغرب ، فلقيه ابن هانىء فى الطريق ، فأنشده أبو الطيب من شعره ، ثم أنشده ابن هانىء بعض قصائده ، فقفل راجعا إلى مصر ، تاركا المغرب لشاعره ابن هانىء

وهى أسطورة أدبية تريد أن تذكر رأى المتنبى فيه ، وإشادته بفنه وشاعريته ، ولعل ذلك سبب اختلاقها .

وعلى أى حال فقد كان ابن هانىء بطبيعة سنه تلميذا أو كالتلميذ لأبى الطيب . قرأ ديوانه وتأثر به فى كثير من معانيه وأساليبه وخيالاته وروحه الشعرية فى بعض قصائده ، وحاول أن يقلده فى حكمته وتجاربه التى كشف بها النقاب وجه الأيام .

استعار ابن هانىء ديوان المتنبى بعد وفاته - أى بعد عام ٣٥٤هـ - من أديب ، أساء بعد فى طلبه منه ، فنظم ابن هانىء فى ذلك قصيدته :

تنبـــأ المتنبى فيـكم عصرا ... ولو رأى رأيكم فى شعره كفرا
مهلا فـلا المتنبى بالنبى ولا ... أعـد أمثاله فى شعره السورا
تهتم علينـا بمـــرآه وعلـكم ... لم تدركوا منه لاعينا ولا أثرا

وابن هانىء فى قصيدته هذه يحاول أن يخفف من غلواء المتعصبين ، ثم يحاول أن يشـكر فضله فيقول :

ويلـــه شاعرا أخملتموه ولم ... نعلم له عندنا قدراً ولا خطراً

ثم يصف جناية القوم على شعره ، ويتهكم بهم تهكما لاذعا إلى أن يقول :

أريتمونى مثالا من روايتكم ... كالأعجمى أتى لايفصح الخبرا
أصم أعمى ولكنى سهرت له ... حتى رددت إليه السمع والبصرا
كانت معانيه ليلا فامتعضت له ... حتى إذا ما بهرن الشمس والقمرا
ضجرتم وأتانا من ملامتكم ... ومن معارضكم مايشبه الضجرا
ولو حرصتم على إحياء مهجته ... كما حرصتم على ديوانه نشرا

ويظهر من هذا أن الديوان الذى كتبه هذا الأديب واستعاره منه ابن هانىء كان كثير التحريف والخطأ ، وأن ابن هانىء صححه وكتب منه نسخة أخرى ، فاختلفت رواية ابن هانىء لشعر المتنبى عن رواية هذا الأديب وأمثاله ، فأكثروا من الضجر .

وقول ابن هانىء « ولو حرصتم على إحياء مهجته » ، أى مهجة المتنبى، دليل على أن ذلك كان بعد وفاة المتنبى .

وابن هانىء على أى حال فى أول قراءته لديوان المتنبى لم يعترف له - كما يقول - بقدر ولا بخطر ، ولكنه بعد ذلك عكف على احتذاء أبى الطيب وتقليده ، لاسيما فى أمثاله وحكمته ، ولذلك كانت الحكمة فى شعر ابن هانىء متأخرة الظهور فى حياته الأدبية ، وفى شعر ابن هانىء قصائد يتجلى فيها روح التأثر بفن المتنبى وشاعريته ، وتشابه شعره فى كثير من الأساليب والمعانى ، مما يطول بنا البحث لو حاولنا تفصيل الحديث فى ذلك كله ، والإلمام بشتى نواحيه .

أبو العلاء المعرى

— ١ —

أبو العلاء أحمد بن سليمان بن محمد التنوخى (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ : ٩٧٤ — ١٠٥٧ م) من أشهر الشعراء العرب الذى طار ذكرهم وصيتهم فى كل جيل وكل مكان .

موطنه معرة النعمان فى الشام ، عاش نحو نصف حياته فى القرن الرابع وباقيها فى القرن الخامس الهجرى ، نشأ من أسرة لها نصيب كبير من العلم والأدب ، أبوه أديب شاعر . وجده كان قاضياً على المعرة وأمه من أسرة كريمة المحتد .

فقد بصره وهو فى الثالثة من عمره ، وأخذ أبوه فى أوائل نشأته يلقنه أصول علوم الدين والعربية إلى جانب ما كان يتلقاه من علماء المعرة .

ورحل إلى حلب ، وهى مركز من مواطن الأدب والثقافة والعلوم ، فأقام فيها لدراسة علوم اللغة والأدب وأشعار العرب وأخبارهم .

وطاوعته ملكة الشعر ، فأخذ فى نظمه منذ حداثته ، وعاد إلى المعرة وهو فى العشرين من عمره ، وقد توفى أبوه قبل ذلك بخمس سنوات أى عام ٣٧٨ هـ وعاش منذ ٣٨٣ هـ من غلة وقف تبلغ نحو الثلاثين دينـــاراً فى العام ، ومعة خادمه وأمه ، واشتغل بتدريس الشعر واللغة والأدب ، وأخذت شهرته فى الذيوع ونظم سقط الزند ، وكتب بعض كتبه .

وفى عام ٣٩٨ هـ سافر إلى بغداد وهى موطن الأدب والثقافة والمعارف ، ومنارة العالم الاسلامى فى الحضارة والازدهار والمدنية والعمران ، وفيها كل الاعلام والشعراء ، وهى ملء سمع العالم الإسلامى وبصره ، وفيها مجالس الأدب والشعر وحلقات العلم ومنتدياته ، لا يفوتها شىء ، ينشد فيها

الشعراء أشعارهم ، ويعرض فيها كل أديب نتاج أدبه وفكره وقريحته ، وللشريف الرضى فى بغداد دار هى منتدى للأدباء والشعراء وإليها يتجه كل الشعراء ، ولقى المعرى فى بغداد أعلام العلماء والأدباء والشعراء .

وكان الشريف (٣٠٩ - ٤٠٦ هـ) آنذاك شيخ الشعراء فى العالم الإسلامى كله ، لشرف نسبه ، وعلو منزلته ، وكان اشتغاله بالأدب والشعر واللغة سبباً فى أن أصبح من كبار شعراء العربية ، ومن أشعر قريش ، حتى فاق كثيراً من أدباء عصره . وشعرائه ، وكان شعره من أمتع الشعر العربى وأجزله وأجمعه للذاتية والتأمل والوجدان والتجربة الطويلة فى الحياة ، والروعة فى الشكوى والرثاء والفخر والحكمة .

وكان الشريف مولعاً بالنيل من المتنبى ، شأنه فى ذلك شأن أبى فراس والصاحب بن عباد ، وسواهما . وأخذ الشريف على عادته يحط من قدر أبى الطيب ، وهو أعظم شاعر عند أبى العلاء ، فقال المعرى رداً على الشريف : لو لم يكن للمتنبى إلا قصيدته التى يقول فى أولها :

لك يامنازل فى القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

لكفى ذلك فى رفع منزلته فوق كل شاعر ، فغضب الشريف أشد الغضب ، وأمر بطرده من مجلسه ، وبعد أن طرده قال لجلسائه : ألا تدرون مايقصد ، فإن هذه القصيدة ليست من عيون قصائد المتنبى ، ولكنها تشتمل على هذا البيت :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وهذا ماقصد التعريض به ، ومن أجل ذلك أمرت بطرده . .

لقى المعرى فى بغداد أعلام العلماء والأدباء والشعراء ، وفى عام ٤٠٠ هـ علم بمرض أمه فعاد مسرعا إلى المعرة ، ولكنه القدر ، فقد ماتت أمه ،

وهو لم يبلغ المعرة بعد ، وإن كان يسير فى الطريق إليها .

وأقام أبو العلاء فى بلده ولزم بيته ، وسمى نفسه رهين المحبسين ، وأخذ ينظم اللزوميات ، ويؤلف المؤلفات التى تحمل روحه وفكره وطابع ثقافته .

وإذا كان « سقط الزند » يجمع قصائده التى نظمها قبل رحلته إلى بغداد ، وهى قصائد يسير فيها على سنن الشعراء قدامى ومعاصرين له فى النهج والأسلوب والخيال والفن والأغراض ، فإن اللزوميات يحمل طابع تفكيره طيلة حياته فى المعرة بعد عودته من بغداد ، وهى فترة العزلة التى عاشها وفرضها على نفسه .

وفى الحكمة والتأمل والرثاء والفخر والعتاب والدين والوعظ والوصف كان جل أغراض شعر أبى العلاء .

وقصيدته الرثائية المشهورة :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شادى

من القصائد الانسانية الرفيعة الخالدة ، ومن مشهور شعره قصيدته :

علـلانى ببيض الأمانى فنيت والزمان ليس بفانى

إن تناسيتما وداد أناس فاذكرانى فى بعض من تذكران

ومرثاته لأبيه مشهورة ومطلعها :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن

فلا جادنى إلا عبوس من الدجن

وقد اعتزل الناس ، وامتنع عن الزواج ، وأوصى أن يكتب على قبره :

هـــذا جناه أبي علي   وماجنيت على أحـــد

- ٢ -

وأبو العلاء المعرى « ٣٦٣-٤٤٩ هـ ٩٧٥- ١٠٥٩ م » من أشهر الشعراء العرب ، ومن أبعدهم صيتا ، وذيوع ذكر :و « رسالة الغفران » له مشهورة، وهى رحلة تخيلها أبو العلاء فى الصراط والجنة والنار : كى يبدى آراءه فى مسائل الدين والأدب والنقد واللغة من خلالها .

وتذكرنا « رسالة الغفران » برسالة ابن شهيد « التوابع والزوابع » ، وبالكوميديا الالهية لدانتى ، وبالفردوس المفقود لملتون .

و « التوابع والزوابع » تشابه « رسالة الغفران » للمعرى مشابهة كبيرة فالموضوع واحد وهوعرض المشكلات الأدبية والبيانية والفكرية بطريقة قصصية ، والخلاف فى جوهر الموضوع إنما يرجع إلى روح الأديبين الكبيرين : ابن شهيد والمعرى ، فابن شهيد يحرص على عرض المشكلات الأدبية والبيانية ، وأبو العلاء يحرص على عرض المشكلات التى تتعلق بالدين والفكر والفلسفة .. وقد وجه ابن شهيد رسالته إلى أبى بكر بن حزم ، ويوجه المعرى رسالته إلى ابن القارح على بن منصور الحلبى الأديب الشاعر « ٣٥١ - ٤٣٠ هـ » الذى كان يمدح الوزير أبا الحسن المغربى وآله ، ثم لما ذهب سلطانهم هجاهم . و « التوابع والزوابع » رسالة طريفة وفيها فكاهات حلوة ، وأسلوبها يميل فيه ابن شهيد إلى السجع ، وكان مولعا بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه ، وحريصا على إظهار تفوقه عليهم . ويرجح د. زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى » أن ابن شهيد قد ألفها ما بين عامى ٤٠٣ هـ و ٤٠٧ هـ ، لقوله فيها « انتضى على لسانه عند المستعين » ، والمستعين حكم ما بين عامى ٤٠٢ و ٤٠٧ هـ حين مات مقتولا فى العام الأخير ..

وهذا النص لا يدل على ذلك ، فمن الجائز أن يكون ابن شهيد قد قال ذلك بعد مقتل المستعين عام ٤٠٧ هـ لا فى حياته .. أما رسالة الغفران فيرجح أنها ألفت عام ٤٢٤ هـ لقول المعرى فيها : « لا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب فى سنة ٤٢٤ هـ اسمه فلان بن فلان » . ويرجح د . زكى مبارك أن رسالة ابن شهيد « توفى عام ٤٢٦ هـ : ١٠٣٥ م » كتبت قبل رسالة المعرى بعشرين سنة ، من حيث يرجح أغلب النقاد أن رسالة الغفران هى الأصل الذى احتذاه ابن شهيد ، ويعرض ابن شهيد فى رسالته صورا من شعر الشعراء وينقدها ، ويتحدث عن التقائه بشياطين الشعراء وعما جرى بينهم من مناظرات وحوار أدبى .

على أن الرسالتين ترتكزان فى أساسهما على رحلة الاسراء والمعراج الروحية . الغفران أشمل وأعمق وأكثر غنى فى جوانبها الفنية والقصصية من « التوابع والزوابع » .

وكان ابن القارح قد بعث برسالة إلى أبو العلاء ، فرد عليهم أبو العلاء برسالة الغفران .

ويعلل كامل كيلانى لتسميتها الغفران بأن الفكرة الرئيسية فيها ، والتى دفعته إلى انشائها ، مناقشة من فازوا بالغفران ، ومن حرموها فى الدار الآخرة . وكان المعرى يكثر فيها من سؤال الذين يلقاهم فى الجنة بقوله : « بم غفر لك ؟ كما كان يكثر من سؤال من يجده فى النار : لم لم يغفر لك قولك » . .

ويبدأ المعرى الرسالة بقوله ، يخاطب ابن القارح :

وصلت الرسالة التى بحرها بالحكم مسجور ، ومن قرأها لا شك ماجور وغرقت فى أمواج بدعها الزاخرة ، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة

وفى قدرة ربنا - جلت عظمته - أن يجعل كل حرف منها شبح نور، لا يمتزج بمقال الزور.. ولعل سبحانه قد نصب لسطورها المنجية من اللهب، معاريج من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض إلى السماء بدليل الآية: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه».

ثم يقول: وفى تلك السطور كلم كثير كله عند البارى - تقدس - أثير. وقد غرس لمولاى الشيخ الجليل - إن شاء الله - بذلك الثناء شجر فى الجنة لذيذ الاجتناء. ويصور أبو العلاء ابن القارح وقد ركب نجيبا - أى جملا كريما - من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر. ويسير به فى الجنة على غير منهج. ومعه شيء من طعام الخلود ويلتقى بالأعشى ويحاوره، كما يلتقى بزهير وبعبيد بن الابرص، وعدى بن يزيد وبأبى ذؤيب الهـــذلى، وبالنابغتين وبلبيد.

ويلتقى برضوان خازن الجنة، يرفع صوته ويقول له: يا رضوان، يا أمين الملك الجبار الأعظم على الفراديس، ألم تسمع ندائى بك، واستغاثتى إليك، فقال: لقد سمعتك تذكر رضوان وما علمت مقصدك فما الذى تطلبه أيها المسكين؟ فيرد عليه: أنا رجل لا صبر لى على العطش وقد استطلت مدة الحساب، ومعنى صك - أى وثيقة - بالتوبة، وهى للذنوب كلها ماحية وقد مدحتك بأشعار كثيرة ووسمتها باسمك فقال: وما الأشعار؟ فقلت: الأشعار جمع شعر، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس، وكان أهل العاجلة - الدنيا - يتقربون به إلى الملوك والسادات، فجئت بشيء منه إليك لعلك تأذن لى بالدخول، فقد استطلت ما الناس فيه، وأنا ضعيف، ولا ريب أنى ممن يرجو المغفرة، وتصح له بمشيئة الله تعالى، فقال: إنك لغبين الرأى، أتأمل أن آذن لك بغير إذن من رب العزة؟ هيهات.

ويلتقى بحمزة سيد الشهداء، فينشده مدحا له فيه، ويستشفع به،

فيحيله على ابن أخيه على بن أبى طالب ليخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمره .

ويتركه إلى شيخه أبى على الفارسى .. كل ذلك على لسان ابن القارح على بن منصور بن طالب الحلبى الذى كتب المعرى الرسالة من أجله .

ثم يستشفع فيه آل البيت إلى فاطمة الزهراء ليراح من أهوال الموقف ويصير إلى الجنة فيتعجل الفوز ، فتأخذه ويقف عند رسول الله ، فيشفع له ، ويؤذن له فى الدخول . ويعبر الصراط ، فلما صار إلى باب الجنة وقف دونه رضوان يطالبه بالجواز ، إذ لا سبيل إلى الدخول إلا به ، وهنا يلتفت إليه إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجذبه جذبة يدخل بها الجنة ، بعد أن أقام فى الموقف ستة شهور .

ويحاور حميد بن ثور ولبيدا فى الجنة وفى الجنة يحضر المآدب ، ويسمع الغناء ، ويلتقى بالشعراء ويسحره جمال الحور ، ويصنع رحلة إلى جنة العفاريت ، فيلتقى بالجن ، ويسمع شعرهم ولغتهم ، ويرى الحطيئة ، والخنساء وينظر إلى الجحيم من أقصى الجنة ، ويطلع فيرى إبليس ، ويشاهد بشارا ، ويتحدث إلى امرىء القيس ، وإلى عنترة وعلقمة ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث اليشكرى ، وطرفة بن العبد ، وأوس بن حجر ، والاخطل والمهلهل ، والشنفرى وتابط شرآ .

ثم يعود إلى محله فى الجنة ، فيلقى آدم عليه السلام ، ويستمر به المطاف ليلتقى بحورية ، ثم بالرجاز : رؤبة والعجاج .

ويفيض فى الجزء الأخير من الرسالة فى الحديث عن النفاق والزندقة والزنادقة ، وعن الحلاج ومذهب الحلول والتناسخ ، ويجره الحديث إلى ابن الرومى ، وإلى أبى تمام ، وأبى مسلم الخراسانى ، وإلى ابن الراوندى وسواهم .

إن هذه الرسالة التى تحمل فكر المعرى ونظرته إلى الحياة ، وآراء كثيرة له فى نقد الشعر والشعراء ، لهى من أنفس الذخائر فى تراثنا العربى الخالد . . وهذه الرحلة الطريفة إلى العالم الآخر تحمل روحا قصصية عالية تصلح لأن تكون من أرفع النماذج القصصية الأسطورية ، أو الخيالية لو صيغت بأسلوب جديد .

ومن الطريف أن نعرف أن فى دار الكتب المصرية أربع نسخ خطية من الرسالة اثنتان منها فى مكتبة تيمور ، كما توجد نسخة من الرسالة فى مكتبة سوهاج وأخرى فى مكتبة جامعة الاسكندرية .

وقد طبعتها مكتبة أمين هندية بالقاهرة عام ١٩٠٣ ، وكتب خاتمة لها عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة البيان . ثم نشرتها دار المعارف والمكتبة التجارية بالقاهرة بتحقيق المرحوم كامل كيلانى .

وفى عام ١٩٥٠ نشرت دار المعارف رسالة الغفران بتحقيق الأستاذة عائشة عبد الرحمن ، ثم قدمت دراسة عن الرسالة للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٥٣ ، وقد استعانت الدكتورة بنت الشاطىء بنسخة خطية من مكتبة كوبريلى زاده باستانبول موثقة النسب بأبى العلاء برواية تلميذه الخطيب التبريزى .

وكانت الرسالة قد لقيت عناية كبيرة فى دوائر المستشرقين ، فنشر نيكلسون عام ١٩٠٢ ملخصا للقسم الثانى منها مترجما فى المجلة الآسيوية الملكية وكان قد حصل على مخطوطة للرسالة كانت فى مكتبة المستشرق شكسبير ، وقدم نيكلسون عام ١٩٠٠ وصفا موجزا للمخطوطة وترجمة موجزة للقسم الأول منها مع فقرات كثيرة من الأصل العربى .

وفى عام ١٩١٦ ظهرت فى مدريد باللغة الأسبانية دراسة عن الرسالة

للمستشرق الأسبانى المشهور بلاسيوس أكد فيها أن أصولا إسلامية ، من بينها « رسالة الغفران » ، قد كونت أسس الكوميديا الالهية ، وقد ترجم بلاسيوس بعض النصوص من الرسالة وقارن بينها وبين نصوص من كوميديا دانتى .

ورسالة الغفران تعد فى مقدمة تراث أبى العلاء ، الذى وصلنا ، وحفظته الاقدار لنا من الضياع ، ويضاف إليها ديوان سقط الزند ، واللزوميات ، وعبث الوليد ، وملقى السبيل الذى نشره حسن حسنى عبد الوهاب فى مجلة المقتبس - السنة السابعة - عن مخطوطة بالاسكوريال .

كما بقى من تراث المعرى مجموعة من رسائله نشرها مرجليوث عام ١٨٩٨ وطبعت فى اكسفورد .

وكذلك الفصول والغايات ، وقد طبع جزء منه فى القاهرة بتحقيق الزناتى .

وكذلك رسالة الملائكة التى نشرت فى دمشق عن مخطوطة بالظاهرية بتحقيق محمد سليم الجندى .

وبعض الرسائل الصغيرة الأخرى .

والذى فقدناه من تراث المعرى كثير ومنه كتاب « الايك والغصون » الذى زادت أجزاؤه على المائة . وغير ذلك .

على أن أدب الرحلات الخيالية إلى العالم الآخر ، وإلى الجنة والنار مدين لرسالة الغفران ولصاحبها أبى العلاء بدين كبير ، فالرسالة فى جوهرها وروحها عمل فنى كبير وإبداع أدبى لا مثيل له . . ومع أن فى رحلة الإسراء والمعراج طرائف روحية رائعة ، فإن أبا العلاء ولا ريب قد احتذاها فى « الغفران » وتأثر بها تأثراً كبيراً ، كما تأثر برحلة الموبد الزرادشتى إلى الأعراف والجنة والنار .

وتصور لنا الرسالة ـ الغفران ـ عبقرية فكر أبي العلاء تصويرا رائعا فهذا الحوار الرفيع فيها، وهذا الخيال الممتع المتأنق الكثير التنقل ، وهذا التصوير الدقيق البارع ، وهذا الفكر الشرود الذى يلتفت إلى الدقائق فى يقظة ووعى تام . . كل ذلك عناصر أصيلة فى ابداع حقيقى ينفرد به شيخ المعرة أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان الذى نال من اهتمام الأدباء والشعراء والنقاد والدارسين والباحثين مالم ينله شاعر من قبل .

وكم كانت الأحداث والأيام والخطوب تعصف بأبى العلاء فى شتى مراحل حياته ، مرحلة بعد مرحلة ، وجيلا بعد جيل ، ووقتا أثر وقت .. رحمه الله .

— ٣ —

وقد صدرت رسالة الأغريض أو الرسالة الأغريضية وهى من آثار أبي العلاء الأدبية وتسمى « رسالة الحروف » أيضاً ، وقد طبعت من قبل عدة طبقات، وطبعت معها رسالة الوزير المغربى أيضاً فى بعض هذه الطبعات ـ دون تحقيق علمى .

ومن الرسالة نسخة خطية فى الاسكوريال برقم ٤٧٠ وهى مصورة فى معهد المخطوطات العربية برقم ٣٠ فى القائمة الخاصة بمصورات الاسكوريال .

ومنها نسخه خطية أخرى بمكتبة كوبر يلى تحت رقم ١٢٧٢ ، ومنها مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٣٧٥ أدب وعنوانها « الرسالة الاغريضية وتفسيرها لأبى العلاء » ، ومعها رسالة الوزير المغربى إلى أبى العلاء كذلك .

وقد نهض الدكتور السعيد عبادة بتحقيق هذه الرسالة تحقيقا علميا ، متقنا فى مائتى صفحة ، وكان فى ذلك خدمة لتراث أبى العلاء الأدبى .

ورسالة الأغريض بعث بها أبو العلاء من معرة النعمان إلى الوزير المغربى

فى القاهرة ، وكان الوزير المغربى قد ألف مختصراً لاصلاح المنطق لابن السكيت يعقوب بن اسحاق (المتوفى عام ٢٤٤ هـ) بعنوان «مختصر إصلاح المنطق» وبعث إلى أبى العلاء مع مبعوث خاص نسخة من هذا الكتاب ، فكان رد أبى العلاء وشكره للوزير هما هذه الرسالة النفيسة . ومن مختصر اصلاح المنطق نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٧٦٢٧ أدب .

وفى دار الكتب شرح مخطوط للرسالة الاغريضية بعنوان «النوادر الحكمية والأدبية فى شرح الرسالة الأغريضية» لابراهيم الحيدرى البغدادى (١٨٢١ — ١٨٨٢ م) وهو تحت رقم ١٢٧ أدب م .

وممن شرح الرسالة أيضاً أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى البكر أبادى، وشرحه غير كامل وهو مخطوط فى مكتبة عاطف باستامبول برقم ٢٧٧٧ ومنه نسخة مصورة فى معهد المخطوطات العربية برقم ٦٦٣ أدب ، والقطعة الموجودة هى شرح لنحو نصف الرسالة الأغريضية ، وعنوان هذه المخطوطة «شرح رسالة الحروف» .

وقد سمى أبو العلاء رسالته بالأغريض — وهو طلع النخل — تأكيداً لأهميتها ونفاستها .

ويرجع تاريخ تأليف المعرى لهذه الرسالة كما حققه الدكتور السعيد عبادة إلى عام ٣٨٨ هـ من حيث كان يذهب مرجليوث إلى أنها ألفت فى وقت لايتأخر عن عام ٣٩٩ هـ ، وكان يذهب محمد سليم الجندى إلى انها كانت قد ألفت فى تاريخ لايتجاوز عام ٤٠٠ هـ ، والدكتور طه حسين رأى أنها من أمالى أبى العلاء فى عصر الشباب

أما الوزير الذى بعث أبو العلاء إليه بالرسالة فهو الوزير أبو القاسم الحسين بن على المغربى ، كان أبوه من خاصة الحمدانيين ثم الفاطميين وقد درس الوزير فى طفولته فى معرة النعمان على أستاذه شقيق أبى العلاء المعرى

وهو أبو المجد محمد بن عبد الله المولود عام ٣٥٥ هـ قبل أبي العلاء بثمان سنوات ، ولأبي العلاء أخ آخر هو أبو الهيثم عبد الواحد . وفي المعرة اتصل المغربي بأبي العلاء اتصالا وثيقا ، وصار من جملة اخوانه والمقربين لديه وبخاصة أن المغربي كان قريباً في السن من أبي العلاء فقد ولد بعد أبي العلاء بسبع سنوات ، أي عام ٣٧٠ هـ ، وعاش ثمانياً وأربعين سنة حتى توفي عام ٤١٨ هـ ، وكان أديباً شاعراً ، وله تآليف كثيرة ، منها كتاب له في السياسة مخطوط بدار الكتب المصرية (٧٧ مجاميع م).

ورسالة أبي العلاء « المنيح » وجهها أبو العلاء إلى هذا الوزير أيضاً ، وقد أملاها أبو العلاء قبل رسالة الأغريض .

ولما ألف الوزير كتابه « مختصر اصلاح المنطق » بعث به مع رسول إلى أبي العلاء بعد أن قرأه وراجعه على استاذه أبي المجد ، والمغربي في سن السابعة عشرة أو نحوها . وفرح أبو العلاء بالكتاب المهدى إليه فرحا شديدا وكان شكره لهذه الهدية ورده على الوزير صاحب الهدية هو هذه الرسالة البليغة التي حفظها لنا التاريخ الأدبي ، وذكرها القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » في الجزء الرابع عشر منه .

وقد وثق الدكتور نص الرسالة توثيقا علميا جادا ، وراجع نصوصها مراجعة دقيقة ، وأشار في هوامشه الطويلة إلى اختلافات النسخ ، وخرج ماتضمنه النص من شواهد شعرية وأحاديث نبوية وحكم مأثورة ، معرفا بالأعلام الذين ورد ذكرهم في المخطوط من شعراء وغيرهم ، مفسراً مالاغنى عن تفسيره في النص ، نص الرسالة ، ونص تفسيرها أيضاً ، وهو بقلم أبي العلاء نفسه .

وكتب مقدمة لهذا التحقيق ، وأتبع الرسالة وتفسيرها برسالة الوزير المغربي ، وشرح نصوصها وخرج شواهدها في هوامشه الطويلة الجامعة الموثقة .

وموضوع «رسالة الاغريض» هو شكر الوزير المغربى، والتنويه بفضله وفضل أسرته وتقريظ كتابه «مختصر اصلاح المنطق» والاشادة به .

وأبو العلاء فى رسالته يكتب بأسلوبه الرمزى المغلف بضباب كثيف من ثقافاته اللغوية والأدبية والعلمية الواسعة ومن حسن الحظ أن أبا العلاء نفسه فسر بعض ألفاظ رسالته فى شرح موجز جدا، أثبته الدكتور المحقق مع الرسالة فى صلب الكتاب، وحققه وعلق عليه .

ويقول أبو العلاء فى رسالته للوزير : «إن كاتبت فلا ملتمس إلى جواب، وأن اسهبت فى الشكر فلا طالب ثواب . حسبى ما لدى من أياديه، أدام الله لهما القدرة — وفى تعليقات الدكتور المحقق على كلمة «غمر» يثبت أنها وردت فى (س) أى فى نسخة الأغريض المحفوظة فى الاسكوريال والمصورة فى معهد المخطوطات العربية : غمرنى .

ويقول أبو العلاء بعد ذلك : وسلم سيدانا أعز الله نصرهما، ومن أحباه وقرباه، فقد افتننت فى نعمهما الرائمة كافتنان الدائرة الرابعة، وهى من دوائر الخليل بن أحمد فى العروض وقد استخرج منها تسعة أوزان أو بحور : ستة مستعملة، وثلاثة مهملة، والمستعملة فى هذه الدائرة هى كما يذكره الدكتور السعيد عبادة : السريع — المنسرح — الخفيف — المضارع — المقتضب — المجتث .

ويقول المعرى للوزير فى الرسالة : وسيدنا — أطال الله بقاءه — القائل النظم فى الذكاء مثل الزهر . وفى النقاء مثل الجوهر : تحسب بادرته التاج، ارتفع عن الحجاج، أى عن الجبهة والحجاج بوزن كتاب هو عظم الحاجب كما فسره أبو العلاء .

ويوازن أبو العلاء فى رسالته بين عمل ابن السكيت وعمل الوزير المغربى ثم يقول : كان الكتاب تبرا فى تراب معدن ، فاستخرجه سيدنا واستوشاه وصقله فكره ، ووشاه ، فغبطته النيرات على الترقيش ، (أى النقش والتزيين) .

ثم يقول : « وإن عبده موسى لقينى نقابا (أى فجأة) : فقال : هلم كتاباً ، يكون لك شرفاً وبموالاتك فى حضرة سيدنا — أطال الله بقاءه — معترفاً » .

ويستطرد أبو العلاء فى الرسالة إلى وصف حياته الأدبية والمادية ، ويشير إلى رسول آخر ورد له من الوزير وهو « عبده الزهرى » . . ويذكر أبو العلاء للوزير سوء حالته « فلم أجد إلا الحنظل وأن لى بلغتين : بلغة صبر . وبلغة وفر » . ويعتذر للمغربى من عدم كتابته إلى والد الوزير . اكتفاء بالكتابة إلى ابنه ، وتقربا به إلى أبيه .

وبذلك تنتهى رسالة الأغريض التى يقول فى مطالعها للوزير : إنى وإن غدوت فى زمان كثير اللدد (أى الهزل) كماء العدد ، لزمت المذكر ، فأتت بالمنكر ، يذكرنى لغير الثناء ، ويطرحنى عند الاستغناء » .

والرسالة وثيقة تاريخية جليلة عن أبى العلاء وبإملائه نفسه ، وتفسيرها بإملاء أبى العلاء ، يشرح كثيراً من الغموض الذى صاغها أبو العلاء ولفها فيه .

أما رسالة الوزير المغربى إلى أبو العلاء وأخيه الذى هو أستاذه ، فهى وثيقة من وثائق أدب المغربى ، ويبدو أن الشعر الكثير الذى ورد فى تضاعيفها . كله أو جله من شعر الوزير نفسه وفيها ثناء على أبى العلاء وأخيه أبى المجد وتصوير لحياة المغربى نفسه تصويرا صادقاً . ولنقرأ فيها للوزير نفسه

يقول : « وأما حالى وما أنا عليه ، فجعلتها أنى أمسى وأصبح فى غل التدبير وأروح وأغدو فى سجن المقادير ، هدفاً لسهام الليالى والأيام . وغرضاً لأسنة الأحوال والأعوام ، أجد مالا أريد ، وأريد مالا أجد .

وقد طبعت هذه الرسالة وتفسيرها لأبى العلاء فى مائتى صفحة بمطبعة التقدم بالمنيرة بالقاهرة عام ١٩٧٨ ، ومعها رسالة الوزير المغربى إلى أبى العلاء ، وكلها بتحقيق د . السعيد عبادة ،

والمعرى كتاب « ضوء السقط » ويعمل د . السعيد عبادة فى تحقيقه تمهيداً لنشره فى القريب بإذن الله .

خاتمة الكتاب

حمداً لله وشكراً :

هذه هى خاتمة هذا الكتاب « الفكر النقدى والأدبى فى القرن الرابع الهجرى » .

وهو كتاب يؤرخ للفكر النقدى والأدبى فى هذا القرن ممثلا فى أعلامه ورواده تأريخا مؤصلا يكشف عن حركات التجديد والنهضة فى هذا القرن ، ويتحدث عن التيارات والمذاهب والمدارس الأدبية فى تفصيل وتبيان للخصائص والسمات ، وللمميزات التى تحدد مسار الأدب فى هذا القرن .

ولا أجد ما أقوله إلا أن أحيل القارىء على فصول هذا الكتاب يقرؤها ، ويكشف بنفسه عن الجهد المبذول فيه .

والله ولى التوفيق ، عليه أتوكل ، وبه أستعين ، وهو نعم المولى ونعم النصير . وما توفيقى إلا بالله . . .

المؤلف

فهرس الكتاب